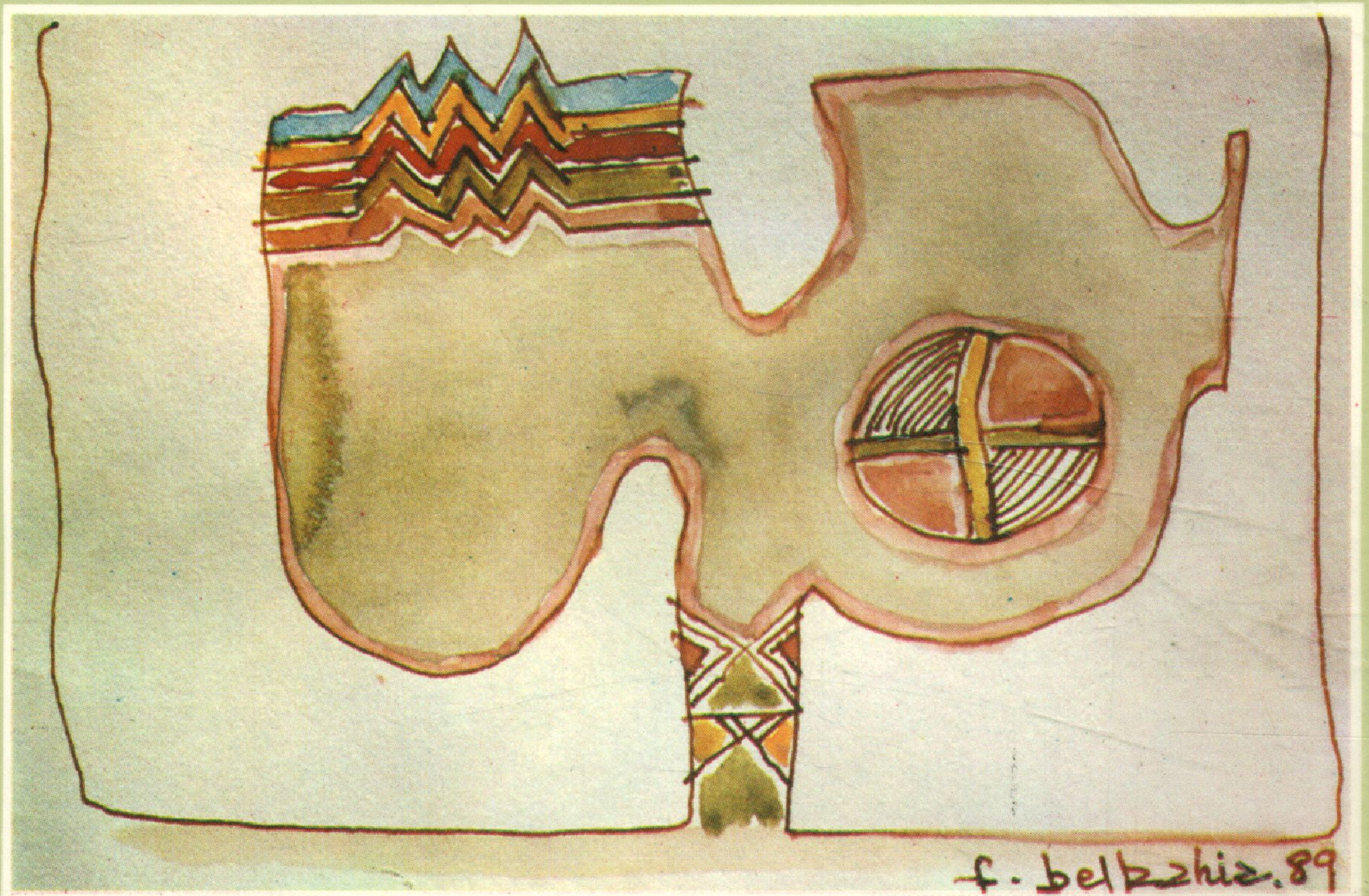
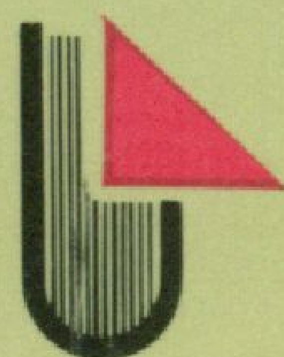
محمود درويش / سميح القاسم

الرسائل





دار توبقال للنشر

دار توبقال للنشر
عمارة معهد التسيير التطبيقي، ساحة محطة القطار
بلفدير. الدار البيضاء 05 ـ المغرب
الهاتف : 24.06.05/42

لوحة الغلاف : فريد بلكاهية

الرسائل

محمود درويش / سميح القاسم

الرسائل

دار توبقال للنشر
عمارة معهد التسيير التطبيقي، ساحة محطة القطار
بلفدير، الدار البيضاء 05 ـ المغرب
الهاتف : 24.06.05/42

تَمَّ نشْرُ هذَا الكِتَاب ضِمْن سِلْسِلة
ذاكرة الحاضر

الطبعة الأُولى 1990

رقم الإيداع القانوني : 679\1990

جمرة الفلسطيني

محمد بنيس

1 ـ عندما قرأت هذه الرسائل، للمرة الأولى، وأنا أتابعها من أسبوع لآخر، على صفحات «اليوم السابع»، ترسّخ لدي الإحساس بأنها من العذاب الفلسطيني تأتي، بدون تقسيط. القراءة الأولى كثيراً ما قادتني إلى إعادة القراءة، إلى تغيير مكان البداية، لأن هذه الرسائل تهب اليومي والعادي بذرة عشق ملحمي، بتفاصيله يعيد نسج الأيام والليالي. ربع قرن، أو يزيد، يعيد تأسيس ذاته بشفافية لا قاهر لها. وفي متابعة القراءة تتّسع المنافي لتحضر فلسطين بفلسطينييها وهم ينشدون ماضياً لا يمضي وعذاباً لا يستسلم، حتى تتحول الرسائل إلى تأريخ لما لا يعرف المؤرخون كيف يضبطونه، ولما به تصبح علاقتنا بفلسطين وفلسطينييها جمرة في عنفوانها تدور مع الدم وتدور.

وأقرأ هذه الرسائل مجتمعة في كتاب. ما كنت أحسست به من قبل تأكد في دخيلتي. هذه رسائل لا شبيه لها. إنها استثناء. كاستثناء كل الرسائل المتفردة، في التاريخ الإنساني. رسائل تبادلها شاعران من أجل أن تستحق الشهادة أن تكون شهادة. وإذا كانت الرسائل تنتقل بين حيفا وباريس، بين داخل فلسطين وخارجها، فإن جمرة العذاب في المؤاخاة اكتملت. الداخل والخارج توأمان. بين الليل والصباح

يتجاوبان، وبينهما تتكتب البداية التي تظل بداية على الدوام.

2 ـ قيمة الرسائل المتبادلة بين الشعراء والأدباء والفنانين، أو بينهم وبين أصدقائهم وأقربائهم، لا تقلّ قيمة عن النصوص والأعمال الشخصية. يثبت لنا التاريخ ذلك، عندما نكون أمام مبدعين لهم من التجربة ما يؤهلهم ليكونوا شهوداً على زمنهم وحياتهم وأعمالهم. لا أقصد، هنا، البعد الوثائقي للرسائل، فذلك مؤكد حتمًا، بل أعني، قبل ذلك، هذا الضوء الذي تحتمي به الرسائل في كتابتها. كامل الرسائل أو مقاطع منها، على الأقل، تتقدم نحو قارئها كنصوص تتورط فيها الذات الكاتبة، بحيوية الألق، وكثافة البهاء.

لكتابة الرسائل في ثقافتنا القديمة وضعية لم نستكشفها بعد، ومأزق الدراسات الخاصة بها يعلن عن ضرورة البحث عن طريق أخرى. أما رسائل أدبائنا وفنانينا، في العصر الحديث، فيبدو أنها منسية في مكان مّا من القراءة. أين هي رسائل كبار أدبائنا الحديثين من طه حسين إلى الآن؟ من قرأها؟ كيف قرأناها؟ لعل جبران خليل جبران من بين النادرين الذين جُمعت رسائلهم، ومع ذلك فإن قراءتها ما تزال متكتّمة، ما دامت منحصرة في الاستشهاد العابر.

ولهذه الرسائل المتبادلة بين محمود درويش وسميح القاسم خصيصة يصعب أن نعثر عليها في غيرها. إنها الكتابة العارية أمام قرائها الذين تابعوا نشرها فور الإنجاز. بدون انتظار مناسبة أخرى غير كتابة الرسائل ذاتها. هكذا يتحدث سميح عن علاقة القراء بها:

«قبل الرد على رسالتك أود تنبيهك إلى أننا لسنا وحيدين في حديقة الأسى والتراشق بالياسمين هذه، التي امتشقناها من أضلعنا مثل آدم في طفرته الإبداعية الرائعة. إن حشداً كبيراً من الناس يـزيح الستائر ويطلّ من النوافذ المحيطة بنا منتظراً ساعي بريدنا الخاص. ومن المدهش أنّ بعض القرّاء يكتشفون في رسائلنا ويستشفون منها أموراً لا أشك في أنها لم تخطر لنا على بال، ولا بأس في ذلك».

ويتمتم محمود عُزّي المشهد فيقول:

«إلى أين تأخذنا هذه الرسائل، هذا النص المفتوح على البداية والنهاية؟ ما البداية وما النهايـة؟ ومـا قيمـة هـذا السـؤال؟ إنها سجل سيرة عفوية، على مرأى من الناس... كتابة على الأرصفة والحيطان.. شكوى النفس لأختها النفس. لا تخطيط لها ولا منهج، وإن كنت أتدرب فيها على ما بلغت من فطام».

كنت أخشى على هذه الرسائل، عند البدء في تبادلها ونشرها، أن تخضع لقسرية القراء، فتملي على كاتبيها ما تكون به الـرغبـة منحجبـة. ولكن مسكن الليل أو وردة الصباح هما اللذان منحا الكتابة حريتها وشرعية متاهها. فجاءت الرسائل مصـاحبـة للتأمل في محاور الصداقة والشعر والتاريخ والكون، وقد عثرت جميعها على حماية في فسحة النفس التي فيها تقيم، باحثة عما بها كانت وتكون، من غير استدراج الاقنعـة إلى حيث المكاشفة هي المنتهى. لذلك تأخذ البداية مسارها حتى ولـو كـان يـؤدي إلى هذا البكاء الذي اختبره الشعر العربي منذ مطلع معلقة امرئ القيس.

3 ـ لا تفاضل بين المحاور التي استحوذت على هذه الرسائل. النسيان والذاكرة. دانيال كاتس وشجرة الخروب. سنـوات 48، 56، و67. الراهبة اللبنانيـة وبيروت. الذاكرة اليهوديـة والغـرب. إميل تـومـا وراشـد حسين. بـايـرون وشكسبير. شيرلي هوفمان وإيلي فيزل. السياسة العربية والوصاية. الشعر والنثر. الكتـابـة وأسرارهـا. الأسفار والمنافي. الوطن والدولة. السيـاسي والشعـري. الصـداقـة والحنين. الحجـارة والجنون... كل هذه المحاور، وغيرها، يعود في هذه الرسـائل إلى الحيـاة اليـوميـة أو عتمات النفس وأضوائها. هناك تنشبك وتترنّح. طرق سراديبيـة تأخـذنـا إلى مسـالك حياة شعب حضر فيها الشاعران معاً، عبر البدايـة التي تتركهـا الكتـابـة بـدايـة على الدوام.

4 ـ من يُنصت لهذا العذاب الفلسطيني؟ يتوجّب إعادة طرح هذا السؤال على العرب والغرب في آن. لا لأنهما متماهيان باستمرار، ولكن لأن العذاب الفلسطيني وحيد. يبتعدون عنه ليسمّوا فعْلَهم اقتراباً. والشاعر حارس هذا العذاب. في خلاياه وكتابته وأهواله يحرص عليه. يختلي به ليتعلّم جوفه. يجهر به ليعلن عن وحدته. والذاكرة لا تنسى.

في صوفيا كان بعض الشباب العرب أشداء لا رحماء. «وفي صوفيا، هل تتذكر (يكتب محمود) كيف كان أشقاؤنا العرب يخطفوننا سّراً، ويحبّوننا سّراً، خوفاً من عرب آخرين أدانوا بقاءنا هناك في بلادنا، وطالبونا بأن ننهي التناحر الضاري بين هويتنا وشروط سفرنا بأن نتخلى عن جواز السفر ووثيقة السفر؟». غير هؤلاء الشباب يتحدد في السياسة العربية التي تريد إلغاء الفلسطينيين وتسليم الجسد الفلسطيني إلى منصّة المقصلة، باسم ما يشاؤون من صرامة الحكمة أو عنف الضرورة.

والفلسطيني وحيد أمام الغرب. لا حقّ له ولا مصداقية. دانيال كاتس، شيرلي هوفمان، إيلي فيزل، ينتهون إلى المآل ذاته. الفلسطيني هو حُجّتهم في إلغاء الفلسطيني. التاريخ والحالة هاربان. و«الضمير اليهودي» من «الذاكرة اليهودية» يستقي مسعاه.

لا يحتاج العذاب الفلسطيني إلى خبرة في التاريخ وعلم الاجتماع والتحليل النفسي، أو خبرة في التلمود والفلسفة وحقوق الإنسان. عذاب بمفرده يكفي للرد على كل الخطابات الغربية التي تلغيه. وهاهي الرسائل، إلى جانب غيرها من الكتابات الفلسطينية، تطرح سؤال العذاب ذاته على الغرب، كما كان طرحه بول تسيلان. فكيف يمكن للفلسطيني أن يعبر من فلسطين إلى فلسطين، والإلغاء الغربي يتمادى، فيما العذاب لا ينسى ولا يغفر؟

5 ـ الرسائل ممارسة للكتابة، بقلقها وسؤالها، في تلك اللحظة التي لا يشارك فيها أحد حالة الشاعر، جسده المفتت الذي لا يشيخ. هكذا يرى إليها سميح القاسم:

«لا يُقلقك تحفّظي من النشر، فهو كما يبدو تحفظ ذهني يشكل تساؤلاً أكثر مما يشكل موقفاً. وهو قائم على القناعة بأن عملية الكتابة، أية كتابة: القصيدة، الرسالة، الخبر الصحفي، المقالة، الإهداء الخاص على كتاب تهديه إنساناً عزيزاً عليك، كلّها تستهلك طاقة من المخزون المتراكم في حالة الكتابة. وأعني بحالة الكتابة، تلك الحالة التي يتغير فيها وضعك النفسي والجسدي معاً، تنتابك غيبوبة ما، ترتفع حرارتك قليلاً، ترى ولا ترى، تسمع ولا تسمع، ولا ينقذك من اختلال التوازن الطارئ سوى ذلك الاندغام الكامل بين روحك وجسدك وقلمك والورقة الساحرة المستلقية بين يديك مثل امرأة والهة تصيح: خذني».

إنها الكتابة ذاتها التي يقتحم صمتها محمود درويش. فيها ينتزع النهائي والمنقاد. كتابته هو. ذات يفاجئها الصمت أو البياض. في وردة الصباح التي لا تستسلم. فالصيف أو الجرائد مُرغِمَان، والكتابة مخفية حيث لا يستطيع الكشف عنها. ضراوة مقاومة غياب الكتابة في وقت ليس لأحد أن يعرف متى يحين. فصل الكتابة لدى محمود هو الخريف. والشاعر بحاجة إليها لأن هناك ما يستدعيها، قبل هذا الفصل وبعده، لذلك تتحول كتابة سميح إلى صلاة:

«أكتب لي.. اكتب من أجلي.. لأقرأ نفسي بطريقة سليمة. وصدق الحبر المصنوع من غيمة. لقد جربت وتغرّبت واغتربت، فلم أجد أصفى من تلك المرآة:

حجر هناك يحك جلدي وجذوع الشجر، حجر مرمي على طريق مهجور، حجر في يد طالبة غاضبة تتأهب للصراخ الأول، حجر يتسلح باللغة، حجر من ذاكرة، حجر من نسيان، حجر من قصيدة...»

6 ـ لمقاطع مطولة من هذه الرسائل كثافة الشعر النادرة، وتختزن رسائل

بكاملها جدارة الشعر أيضاً. من ثم تنخسف أوهام الفاصلين بين الشعر والنثر على أساس السائد من التعريف، لتكون ممارسة الكتابة وحدها مصدر الابتهاج الشعري ومصدر مأزق النظرية في آن. الشاعرية أساسها «فائض الجنون» كما يسميه محمود درويش، والشعر يولد مع النثر، فليس في وسع الشاعر إلاّ أن يكون شاعراً.

هذه المراصد النظرية التي يقول بها محمود درويش أغنى من كل نظرية تنسى ما يقوله الشاعر بصدد شعره أو بصدد الشعر إجمالاً. وحرص الشاعر على أن يبقى شاعراً، في زمن يهدد شعره، هو ما يقود إلى انبثاق المراصد النظرية، في هذه اللحظة أو تلك، وقد تساعد حالة التوتر على صياغة ما يخترق الجسد، حنيناً أو نحيباً. والثلاثاء، بالنسبة لمحمود درويش، هو يوم التوترات التي يخشى الجسد فيها على نفسه من التشظي. يوم موعد تسليم المقال الاسبوعي. يوم شقاء. لأنه يوم التوتر بين الداخل والخارج. بين الشعر والنثر. بين الحرية والواجب. النثر بحاجة للجسد الملتزم الخضوع لمواعيد الكتابة، أمّا الشعر فلا موعد له، أو موعده إلغاء للموعد. هبّة فاتنة يأتي، ثم بعد هنيهة، لها لمح البصر أحياناً، يتبدّد، كأنه حلم به الجسد اصطدم. والشاعر، الذي ليس بمقدوره التخلّص من الشّعر، مضطر ليستقيل من كل ما يحجب لحظة التوتر عن الانكشاف في غفلة عما لا نحسّ به إلا مداهمة وارتطاماً. شقاء يوم الثلاثاء، بهذا المعنى، هو قوة ما يترك وردة الصباح مهددة بجفاف يستعصي عليه الشبيه.

7 ـ يحضر الشعر في هذه الرسائل بالصفاء الفائق. الشعر والحياة متلازمان. من بداية الرسائل إلى بدايتها تظل الكتابة منعقدة في اليومي والعادي ليصيرا معاً هذا الأفق الذي به يحيا الشاعر، سَكَنَهُ في النشيد الذي به يسمي ما يراه وما لا يراه. في الانكشاف والانحجاب يقيم بلا كلل.

والشعر في رسائل محمود درويش وسميح القاسم ينحفر في العذاب الفلسطيني. كل واحد منهما يجتازُ عتبة المتعاقَد عليه بين الكاتب والقارىء لينفذ إلى

السريرة وهي تخترق الحواجز فالحواجز. السّخرية أو الحنين أو الجنون. بها كلّها تعيد الذات ترتيب العالم. متورطة في هواها.

إن الرسائل، وهي تختار الحوار مع النفس، تؤالف بين السيرة الذاتية والشهادة على ما كان ويكون، في فلسطين وحولها. صراع أكيد من أجل هذا الوطن الذي يعرف الفلسطيني جيّداً حدوده. والحوار مع النفس استقصاء لذات الآخر. عندها يصير الشعر عبوراً إلى حرية تعتقلها الخطابات أو أحذية الجنود التي تفرض حدود الاغتصاب والقهر. أين تنتهي ذات محمود درويش؟ وأين تبدأ ذات سميح القاسم؟ ما يبدو من الأجوبة بسيطاً يتحول شيئاً فشيئاً إلى مُركّب. لا وجود إلّا للمركّب. والشهادة على الزمن وأهله بالتوتر العالي تنكتب. شهادة تستبد بها الذاكرة لأنها المكان المفتوح على حلم الفلسطيني الذي لا ينسى أن له أرضاً وحلمًا، ككل الناس في هذا العالم. وحيداً يتذكر ووحيداً يحلم. لأنه على هذه الأرض يريد أن يحيا، ولها يبتغي الاسترسال في النشيد.

8 ـ ليست هذه الرسائل موجّهة إلى القارىء العربي بمفرده. إنّها لكل من لا يعرفون العذاب الفلسطيني، وجمرة الفلسطيني. وأقول إنها يجب أن تترجم إلى كل اللغات، وبخاصّة إلى العبرية ولغات الغرب الذي يجهل أو يتجاهل. فالرسائل استطاعت أن تجهر بالتفاصيل التي تشهد على حيوية شعب قال لا لنسيانٍ مدجج بإلغاء الآخر للفلسطيني، في حياته وموته.

من يقرأ هذه الرسائل لن ينسى. إنها إمضاء جرح يتعاضد فيه الفردي مع الجماعي، والشعر مع الحياة. سفر في الوحدة والشوق والجنون. أهوال الداخل والخارج. من الليل تأتي ومن الصباح تأتي. بين حيفا وباريس. بين الوطن ومحتلّيه. وللجمرة حجرُهَا. ذلك ما تبدأ به الرسائل لتبدأ.

المحمدية في 90.8.8

الحزمة
الأولى

★ في هذه الحزمة مجموعة من الرسائل والقصائد المتبادلة بين الشاعرين منذ فتوتهما الشعرية والزمنية. ننشر هنا آخر قصيدتين / رسالتين، أما ما تبقى فقد نعثر عليه ذات يوم بين أوراق الشاعرين ★

تغريبة

إلى محمود درويش

لبيروت وجهان
وجهٌ لحيفا
ونحن صديقان
سجنا ومنفى
قطعنا بلادا وراء بلاد
وها نحنُ، في تعتعاتِ الدوار
نعودُ
وزادُ المعاد
عناقٌ سريعٌ بباب مطار.
أكانَ اللقاءُ اعتذارا؟
أكانَ الوداعُ فرارا؟
بدون كلام نمدّ اليدينْ
ويا ليلُ يا عينُ
لا الليل ليلٌ
ولا العينُ عينْ
يفرّقنا العالمُ اليعربيُّ
ويجمعُنا العالمُ الاجنبيُّ.

ونبقى أجانبَ في العالمين!
ويبقى الرحيلْ
مع الريح، من منزلٍ في الجليلْ
الى الريح
في فندق غامضٍ
يعانقُ فيه القتيل القتيلْ..
بدون سلام
بدون كلام
تُقبِّل في عُنُقي قلبَ أُمِّكْ
«ورُبَّ أخٍ لكَ...»
أُلقي بهمي على صدرِ همِّكْ
ونبكي ونضحكْ
.. في غربتينْ!
أتسألني كيف حالي
وأنت جوابُ السؤالِ ؟
عذابيَ قُلْهْ
وموتيَ قُبلَهْ
بلا شفتين
ذهبتُ بعيداً
وعدتُ وحيداً
يتمتمُ فيَّ عجوزٌ حقودٌ:
متى؟ كيف؟ أين؟
متى؟

كيف؟

أين؟



للندنَ وجهانِ
وجـهٌ لحيفا
ونحنُ رفيقانِ
خصباً وإلفا..
يؤرّخنا الحبُّ والموتُ
في دفترِ الارضِ
تغريبة للمهاجرْ
وتغريبة للوطنْ
ونفضي بأسرارنا للقباب
وننقش أحزاننا في القناطرْ
ونُطلقُ من جرحنا عندليبا
يزلزلُ صمتَ الزمنْ
ونعجنُ بالدمع
خبزَ المجازرْ
أَتذْكُرُ ضرعاً شهياً
رضعناهُ دون شهيّة؟
وزيتونةً غادَرتْنا
كسائحة أجنبيّة؟
وعاشقةً
ما رَحَمْنا هواها،

وظلّتْ وفيّة؟
أتذكُرُ أيّامَ جُعنا
معاً
وشبعنا
معاً
ثمّ جعنا
معاً
وعِشقنا
معاً
ثمّ ضعنا؟
سلامٌ عليكَ
سلامٌ عَليًّا
على الحبِّ
يولَدُ
ثمَّ يموتُ
ـ سلامٌ عليه ـ
ويُبعثُ حيّا؟
لكلِّ المغنّين
أمٌّ حزينه
وكلُّ مغنٍّ
مدينه
تنامُ
وفي قلبها نجمةٌ

وتصحو
وفي جُرحها.. غنغرينه؟
ونحنُ،
شروق الاغاريد كنّا
فهل سنكونُ
غروبَ الضغينه؟!
من «الرامة» الخائفه
إلى «البروة» السالفه
إلى دمعةٍ بيننا واقفه
تقوم على الرمل دنيا
وتسقط في الوحل ِدنيا
وأعداؤنا
لـعـنـةٌ
يُحجمُ الموتُ
وهْي على رِسْلها زاحفه
وأنصارنا
عملةٌ زائفه
فماذا عسانيَ أفعلُ وحدي
وماذا ستفعلُ وَحدَكْ
وقد صارَ لحديَ مهدي
ومهدُكَ لَحْدكَ؟
أُأنشد عنكَ
وتنشدُ عني

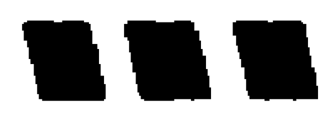
لصحراء قاحلة قاحله
يموت على ساعديها المغني
وتتركه خلفها القافله؟
أتخرجُ حوريّةُ البحرِ
من صَدَفِ القاعِ
أم أوصدَ البحر أسرارهُ
وانتهينا،
نُتمتمُ سخطاً:
متى؟
كيف؟
أين؟!



تساءلتُ في ساعةِ القصفِ؟
هل أدركتْهُ القذائفْ
مُكباً على نبأ في جريده؟
وهل أخطأتْهُ القذائفْ
ليشربَ كأساً جديدهْ
ويودعَ لوعته في قصيده!
تساءلتُ: كيفَ هو الآنَ
غضبان
جوعان
بردان
خائف؟

وهل فاجأتْهُ القذائف؟
وهل أمهلتْه القذائف؟
على شاشة التليفزيون
أبصرتُ وجهك
في ضوء قنبلةٍ مُشمسه
وكانت بقربك جثّةُ طفله
وقُصفةُ فُلّه
وأفواهُ قتلى المحبة والشوقِ
مفغورةٌ..
آخٍ.. أبواق حزني وخوفي
تجلجلُ بالدمّ
ما من سميع وما من مجيبْ
سوى قهقهات سكارى سدوم
وهزءِ عمورا وتلٍّ أبيبْ
وأدنيتُ كفّي لوجهكَ
حاولتُ أن ألمسه
على شاشة التليفزيون
في ضوءِ قُنبلة مُشمسَه
وكانت بقربك جثّةُ طفلهْ
على وَجهها وجهُ حُبّي «محمّد»
و «وضّاح» يزعقُ رعباً
على شاشة التليفزيون
يزعقُ رعباً

ويجذبُ زندَ «عُمرْ»
لعلَّ ملاذاً ببعض الحُفَرْ
ومــتُ
ومــتُ
وماتَ البَشَرْ
جميع البشرْ
ومــات القمرْ
وراحتْ تكفّنهُ الريحُ سرّاً
وتدفنُه في هشيم الشجرْ
ولم يبقَ من عالم الله والناس
إلا خبرْ
شظايا خبرْ
وكانت بقربكَ جثه
الى جنبِ جثه
وفي القلبِ جثه
وما كان بالقرب منّي
سوى دمـع عيني
«وربَّ أخٍ ..»



لباريس وجهان
وجهٌ لحيفا
ونحن شقيقان
حِلماً وسُخفا

وتعرفُ قلبي
وتعرفُ حزني
ووردةَ حُبي
وخيبة ظنـي
وتبصر بيتك في وهـج صوتي
وأسمع صوتك
في صمتِ بيتي.
«ورُبَّ أخٍ لك...»
فكَّرتُ فيكَ
لاني أُحـبُّ بلادي
وفكَّرت فيَّ
لانَّ البلاد
ـ دع الشِّعر ـ
ليست تفكّر في النازحين
وليست تُفكر في الرازحين
ـ دع الشعر ـ
كيف يفكِّر صخرٌ وطين؟
ـ دع الشِّعر ـ
نحنُ حطامُ الاغاني
ومجزرةُ القمح والياسمين
وأعداءُ أطفالنا يضربون
وأصحابُنا يكذبون
ولم يبقَ في الارضِ

غير الذين
يحبّوننا ميّتين
وإن قدَّرَ اللهُ حُسْنَ النوايا
فقد يقبلون بنا لاجئين
ومُستضعَفين
ومستنزَفين..
وفكَّرتُ فيك
وفكَّرت فيَّ
لأن الشهيدَ
صديقٌ وفيّ!



لبيروت وجهان
وجهٌ لحيفا
ونحنُ صديقان
سجناً ومنفى

للندن وجهان
وجهٌ لحيفا
ونحنُ رفيقان
حبا وخوفا

لباريس وجهان
وجهٌ لحيفا
ونحنُ شقيقان
قمعاً وعسفا

لتونس وجهان
وجهٌ لحيفا
ونحن غريبان
نحنُ غريبان
نحنُ غريبان
ما من زمانٍ
وما من مكانٍ
لماذا؟ لماذا؟
وأيـن؟
وكيفا؟
ووجهٌ... لحيفا

سميح القاسم
الرامة - ١٩٨٢/١٠/٢٧

أسميك نرجسة حول قلبي

إلى سميح القاسم

دوائرُ حولَ الدوائر، لو كان قلبي مَعَكْ
قطعتُ مزيداً من البحرِ. ماذا أصابَ الفَرَاشَ،
وما صَنَعَ النبعُ بالفتياتِ الصغيرات؟ ماذا دهانا؟
لندخلَ هذا العناقَ السرابَ.. العناقَ السرابَ السرابْ
ونحن على مشهدٍ لا يُكَرِّرُ الاّ حضورَ الغيابْ
تماثيلَ تُحصى، حصى، مشمشاً، شارعاً، شارعين. وبابْ
يطلُّ على خُطْوةٍ لم تصلْ بعدُ. ماذا أصاب الوهجْ
وما فعل الليلُ بالعتباتِ الأليفةِ؟ ماذا دهانا؟
لتنفصلَ العينُ عن نظرةٍ صَوَّبَتها؟ أحين تمدُّ الجذورْ
رسائلَها في الفضاءِ لتمتدُّ فينا يغيبُ الحضورْ؟
غيابٌ حُلوليَ في كُلِّ دارٍ غيابٌ بلادٌ أُشيِّدها في اللغهْ
غيابٌ دخوليَ في الروحِ . لا شيءَ فيَّ. غيابٌ غيابْ.
إذا غَفَرَ اللهُ للأنبياء؛
وعادوا الى الأرضِ من ملكوت العقيدهْ؛
إذا غفر الله للسجناء؛
وعادوا إلى البيتِ من رحلةٍ في مساء القصيدهْ؛
إذا غفر الله للشهداء؛

وعادوا إلى الأهل من جنّة الكلماتِ البعيدهْ
فهل تغفرُ الأمُّ لي
رحيلي إلى امرأةٍ ثانيهْ؟



دوائرُ حول الدوائر، دعني أُفسِّرْ لكَ الحادثهْ
حلمتُ، كما كُنْتَ تَحلم، أن حزيران أقسى الشهورْ
وأنَّ الكلام الذي يتكرَّرُ فينا لكي نتبعهْ
هو الكارثهْ.
حلمتُ، كما كنتَ تحلمُ، أن البحيرات زرقاءُ خلف يديَّ، وخلف يديكْ.
وأن الطريق المعاكسَ أقربُ منّي إليَّ، وأقربُ منكَ إليكْ،
وأن الحريق رمزُ تموزَ والزوبعهْ.
حلمتُ فَطِرْتُ لأدخل، ثانيةً، في الجذورْ
وغبتُ لأُحضِرَ كلَّ هدايا اللغهْ
إليكْ..
وكدتُ أعود قُبيْل انبثاق الفراقْ
ولكنَّ حادثةَ الوهم تُمتْ، وتمَّ احتراقُ البُراقْ.
على شارع عجَّ بالحالمين،
وبالرحلة الثالثهْ.



إذا ضَلَّت الروحُ خارجَها
ضَلَّتْ روحَ داخلها



أسمِّيك نرجسةً حول قلبي

لو كان قلبي معك،
وأودعتهُ خَشَبَ السنديانِ،
لكنتُ قطعتُ الطريقَ بموتٍ أقلَّ...
أما من وراءٍ؟ أما من أمامٍ؟ أمّا من صعود؟
أما من هبوط؟
أما آن للفارس المُرِّ أن يتوسَّدَ ظِلّاً
وأن يشتري قبرَهُ قبل أن ينفدَ القفرُ. ماذا دهانا
أما كان من حقِّنا أن نُصَدِّق امرأةً واحدهْ
وأُسطورة واحدهْ؟
حرامٌ علينا مكاشفةُ الذات. هل ترقص الباسادوبلي
وتعبر في شارع الموسماتْ؟
أما كان من حَقِّنا أن نواصل ذاك الضحكْ
وكَسْرَ الزجاجاتِ في شارع الليل حين يموتُ الملكْ؟
لنا الذكرياتُ، وللغزوِ ترجمةُ الذكرياتِ إلى أسلحهْ
ومستوطناتْ.
أما زلت تؤمن أن القصائد أقوى من الطائرات؟
إذن، كيف لم يستطع إمرؤُ القيس ِ فينا مواجهة المذبحهْ؟
سؤالي غـلـطْ
لأنَّ جروحي صحيحهْ
ونطقي صحيحٌ، وحبري صحيحٌ، وروحي فضيحهْ.
أما كان من حَقنا أن نكرّس للخيل بعضَ القصائد قبلَ انتحار القريحهْ؟
سؤالي غـلـطْ
لأني نـمـطْ

وبعد دقائق أشربُ نخبي ونخبكَ من أجل عامٍ سعيدٍ جديدٍ جديدٍ سعيدٍ جديدٍ سعيدْ.



إذا ضلّت الروحُ خارجَها
ضلّلتْ روحَ داخِلها.



سنكتبُ، لا شيء يثبت أني أُحبك غير الكتابهْ
أُعانق فيك الذين أحبوا ولم يفصحوا بعد عن حُبِّهم،
أُعانق فيك تفاصيل عمرٍ توقّفَ في لحظةٍ لا تشيخْ.
هنا قلبُ أُمّي. هنا وجهُ أُمِّك،
هنا أوّل الشعر والسخريهْ.
هنا أول السُلَّم الحجريِّ المؤدي الى الله والسجن والكلمهْ.
هنا نستطيع انتظارَ البرابرة المؤمنين بجحشٍ توقف في أرضنا قبل ميلاد عيسى عليه السلام،
وأسّس دولته بعد ألفي سنهْ.
أتحسب أن الزمانَ يُضَيِّعُ حَقَّ الحمير بقتلِ العربْ؟



سنكتب، لا شيء يثبتُ أنَّ الزمانَ طويلُ اللسانِ سوى الكلمات التي لا تَصُدُّ سوى موتِ صاحبها
فقتّلها
وقلّها
وخفّفْ عن القلبِ بعضَ التلوّثِ والأسئلهْ
وقلّها

وخفِّفْ عن الناس سادِيَّة العصرِ والاخوةِ ـ القَتَلَهْ
سنكتب من غير قافيةٍ أو وطنْ
لأن الكتابة تثبت أني أُحبكْ،
وأنَّ لأُمي حقاً بقلبكْ
وأنَّ يديك يدايَ، وقلبي قلبُكْ!

محمود درويش
باريس ـ ١٩٨٦

الحـزمـة
الثانيـة

رسالة أولى

● عزيزي سميح،

... وما قيمة ان يتبادل شاعران الرسائل؟

لقد اتفقنا على هذه الفكرة المغرية منذ عامين في مدينة استوكهولم الباردة. وها انـذا اعترف بتقصيري، لانني محروم من متعة التخطيط لسبعة ايام قادمة. فأنا مخطوف دائـماً الى لا مكان آخر. ولكن تسلّل الفكرة المشتركة الى الكثيرين من الاصدقاء تحوّل الى الحاح لا يُقاوم. كم تبهجني قراءة الرسائل! وكم أمقت كتابتها، لأني اخشى ان تشي ببوح حميم قد يخلق جواً فضائحياً لا ينقصني، حتى تحولت هذه الخشية الى مصدر اتهامات لا تحصى، ليس افدحها «التعالي»، كما هو رائج!

الآن، اشمر عن عواطفي، وابدأ. لا اعرف من أين ابدأ عملية النظر.الى مرآتنا المشتركة. ولكني سأبدأ لانضبط ولأورطك في انضباط صارم. سيكون التردد او التراجع قاسياً بعدما اشهدنا القراء علينا؛ وبعدما هنأتك بعيد ميلادك الذي يواصل صناعة الفارق بين العمر والصورة. كل عام وانت في خير وشعر حتى نهايات النشيد.

لن نخدع احداً، وسنقلب التقاليد، فمن عادة الناشرين، او الكتاب، او الورثة ان يجمعوا الرسائل المكتوبة في كتاب. ولكننا هنا نُصمم الكتاب ونضع له الرسائل. لعبتنا مكشوفة. سنعلق سيرتنا على السطوح، او نواري الخجل من كتاب المذكرات بكتابتها في رسائل.

انتبـه جيداً، لن تستطيع قول ما لا يُقال. فنحن مطالبان بالعبوس، مطالبان بالصـدق والاخفاء ومراقبتهما في آن. مطالبان بألا نشوه صورة نمطية اعدتها لنا المخيلة العامة. ومطالبان باجراء تعديل ما على طبيعة أدب الرسائل؛ أبرزه استبعاد وجوه الشهود وجمالية الضعف الانساني. فكيف نحل هذه المعضلة التي يجمد بقاؤها الفارق الطليُّ بين الرسالة والمقالة؟

سنحاول افلات النص من ضفافه، اذ لعل أبرز خصائص الكتابة هي فـن تحديد

الضفاف الذي يسميه النقد بناء؛ فلنكسر البناء لتعثر لعبتنا الجديدة على ساحتها المفتوحة.

وأصل الحكاية ـ كما تذكر ـ هو رغبتنا الوارفة في ان نترك حولنا، وبعدنا، وفينا، اثراً مشتركاً وشهادة على تجربة جيل تألب على نور الامل وعلى نار الحسرة، وان نقدم اعتذاراً مدوّياً عن انقطاع اصاب ساعة في عمرنا الواحد، وان نعيد ارتباطنا السابق الينا والى وعي الناس ووجدانهم، لنواصل هذه الثنائية المتناغمة ـ ثنائيتنا ـ الى آخر دقيقة في الزمن، بعدما تمرّدنا عليها في مطلع التكوُّن الجنيني تمرداً كان ضرورياً لبلورة خصوصية لا بديل عنها في الشعر، ثم تجاوزت نزعتها الاستقلالية لتتحول الى تناحر سفيه قد كان احد مصادره احساس الواحد منا، بشكل مفاجيء، بقطيعة حوار توصلُ الى يُتم. لقد كان كل واحد منا شاهداً على ولادة الآخر. فلنتابع هذه الشهادة.

ولكن، ما قيمةُ ان يتبادل شاعران الرسائل؟

لسنا بشاعرين هنا، ولن نكون شاعرين الا عندما يقتضي الامر ذلك. هل هذا ممكن؟ لا اعرف ان كنت سترضى بهذا التغييب الملازم لاستحضار انسانيتنا المقهورة «بعدوان» الحب والقصيدة، منذ حول العربيُّ الجديد شاعرهُ الجديد الى موضوع. فماذا نريد ان نقول؟ لقد فعل الشعر فينا ما تفعل الموسيقى بموضوعها، تتجاوزه للافتتان بذاتها وادواتها. ولكن اين مكاننا؟ اين لحمنا ودمنا؟ اين طفولتنا؟

لقد تعبتُ من المهارة. ولكن أعجبتني حاسة المهارة المنتبهة الى ذاتها في مجموعتك الشعرية الجديدة. ومع ذلك، فان اكثر ما يعنيني هو انسانيتك. وهنا تحديداً: ابوك. لقد اعادتني مرثيتك اليه، الى كرم الزيتون المعلق على خاصرة السمو الراسخ، والى قدرتنا على الدهشة وسط تبدل الروائح الصلبة في الطبيعة، والى الحدود الناتئة الفاصلة بين الفصول. مَنْ لا مكان له لا فصول له. ولكنني ما زلت مفتوناً ومجنوناً بخريفنا. وخريفنا ليس هو الشجر المدافع عن بذاءة الذهب، ولكنه الرائحة. فكيف ستنقل الي هذه الرائحة بالرسائل؟

خذني الى هناك اذا كان لي متسع في السراب المتحجّر، خذني الى مضائق رائحة اشمها على الشاشة وعلى الورق وعلى الهاتف. واذا تعذر ذلك فليسمع منك كل الحصى والعشب والنوافذ المفتوحة اعتذاري الجارح.

من حق الولد ان يلعب خارج ساحة الدار. من حقه ان يقيس المدى بفتحة ناي. من حقه ان يقع في بئر او فوهة كبيرة في جذع شجرة خروب. من حقه ان يضلَّ الطريق الى البحر او المدرسة. ولكن ليس من حق احد، حتى لو كان عدواً، ان يُبقي الولد

خارج الدار.

لم نذهب الى العمر في هذه الطريقة، بل ذهبنا على هذا الطريق. هل تذكر هتافك الساطع «ابداً على هذا الطريق»؟ ابداً... ابداً وان تعرَّج، او عرج بنا على مناف لم تخطر على بال آلهـة الشر الاغريقية. ولا أفعى جلجامش فعلت ما فعلت بنا بنت الجيران. هل تذكر الشارع الخارج من عكا الى الشمال العربي، وسكة الحديد الموصلة الى الجنوب العربي؟. ولكن، ابداً... ابداً على هذا الطريق مهما اشتد مزاح الزمن، ومهما توسع حمار الخواجا بلعام...

لستُ نادماً على شيء، فما زلتُ قادراً على الجنون، وعلى الكتابة وعلى الحنين. ودون ان اتساءل: هل سبقت الفكرة اداتها ليتكاثر عليها هذا الحصار؟ اصرخ في وجـوه الـذين يدفعون الفكرة الى الضجر: ان روحي هناك. واقول لك: ان اولئك المحتلين، الـواقفين بيني وبينك، لا يستحقون أية مقارنة مع اي شر عربي.. عبيد الخرافات، طفيليات العجز المحيط، سلالة الانتقام، لا حق لهم في التصفيق لحماقة الآخـرين التي تواصـل انتـاجهم المؤقت. وماذا لو انتصروا في غياب؟ هل يضمن فولاذهم القوي النجاح الدائم لفكرة ميتة؟ وهل تصوغ الاداة الحق من الزائل؟

لهذا السبب أحارب الالتباس الخبيث، ولا أمـد حنيني على جسر فردي. فكن انت جسري الصلب، وقدم لجدل «الداخل والخارج» عافية التواصل. عوضني عن غياب لأفرح: ما دمت هناك انا هناك. وافتح النافذة المطلة على العكس. ما كان يطل على الخارج، فينا، يستدير ليطل على الداخل، هي الدائرة... هي الدائرة.

ويلحون عليَّ ليقتلوني: هل انت نادم على سفر؟ لم يذهب شيء عبثاً، لم يذهب. وقد حاولنا ان نضخ الوعد بما أوتينا من لغة وحجارة ودم؛ وما زلنا نحاول البقاء والسير. لن ينكسر الصوت ما دام شعبي حياً... حياً... حياً، وما دام للارض يوم هو هوية العمر. فلماذا يُساق فرد واحد الى سؤال: هل انت نادم على سفر؟ سُدى احاول ان أرد السؤال الى سياقه، فأهمس في آلـة تسجيل صغيرة: اذا كان هذا يريحكم، فأنا نادم على سفر!

المكان، المكان، اريد اي مكان في مكان المكان لاعود الى ذاتي، لاضع الورق على خشب اصلب، لاكتب رسالة اطولَ، لاعلق لوحة على جدار لي، لارتب ملابسي، لاعطيك عنواني، لأربي نبتة منزلية، لأزرع حوضاً من النعناع، لانتظر المطر الأول. كل شيء، خارج المكان، عابر وسريع الزوال حتى لو كان جمهورية. ذلك... ذلك هو ما يجعلني عاجزاً عن الرحيل الـحـر...

ولكنـك ستكتب اليّ، لاعادة تركيب ما تفكك في النفس والزمن، لرفع رافعة

التـوازن لثنـائية «الـداخـل والخارج» الخاصة والعامة، لاستعادة اولى الطرقات الصاعدة الى أفق يفيض عن الطرق. ستكتب اليّ. سأكتب اليك... لأعود. فما زال في وسع الكلمات ان تحمل صاحبها وان تعيد حاملها المحمول عليها الى داره. وما زال في وسع الذاكرة ان تشير الى تاريخ. ويجتاحني نداء راعف الى عودة، عودة ما الى اول الاشياء والى اول الاسماء، فكن انت عودتي!

اذن، اخرج من خزانة الثياب لتلعب لعبة اخرى مع فتيات أخريات، ولا تتلكأ طويلاً في الشوارع الخلفية، فأنت على موعد مع الشاطىء. حيفا حارة في الصيف ورطبة. ولا تنسَ ان تزور محطة الشرطة وانت في طريقك الى البحر. لا تنسَ أن تسأل الضابط عن موعد الاعتقال القادم. قدم له سيجارة واطلب منه سجناً انظف من سجن الشهـر الفـائت. ولا تنسَ المقـال في «مقهى رومـا» كالمعتاد... وان جاءت «السيدة»، سلّم عليها وقل لها: سافر... وسيعود قريباً. ولا تسألها عن الجنين!...

قريباً؟ ست عشرة سنة! ست عشرة سنة كافية لتقبل بنيلوب وُدَّ خطابها وتلعن بحر ايجه. ست عشرة سنة كافية لان تتحول الحشرات الصغيرة على جراح ايوب الى طائـرات نفـاثـة. ست عشـرة سنة تكفي لأصرخ: بدي أعود. بدي أعود. كافية لأتلاشى في الأغنية حتى النصر او القبر...

ولكن، أين قبري يا صديقي؟ أين قبري يا اخي؟ اين قبري؟...

أخوك محمود درويش
(باريس ـ ١٩٨٦/٥/١٩)

الوطن ينتظر عودتك

● أخـــي محمود،

اذن، هكذا نكفُّ قليلاً عن عبث الغربة ونخترع لأنفسنا لقاء ما. وها انت منذ رسالتك الجديدة (لماذا تسميها رسالة اولى؟) تقترح بذكائك الذي أعرفه قاعدة للعبة وكأنك لا تعرف اخاك في عناده (برج الثور) وشهوته الفادحة للعب بلا قواعد!

«نحن مطالبان بألا نشوه صورة نمطية أعدتها لنا المخيلة العامة..».

هكذا تقول في رسالتك، هديتك الرائعة لي في يوم ميلادي المروع. لا بأس عليك يا اخي الحبيب فهناك من هم اقدر منا على تشويه «صورتنا النمطية هذه». اما نحن فما علينا الا ان نرمم «المخيلة العامة»، المخيلة الطيبة المدقعة الهالكة شوقاً الى موت أليف في زمن الضجيج والـوحشة والنعيب. وماذا بشأن مخيّلتنا نحن. مخيلة جيل برمته، حاصروها منذ طفولتها الاولى بكأس امرىء القيس الذهبية وأبهة بني أمية، وسيجـوهـا بمطالع المتنبي المدهشة وصهيل الخيل وصليل السيوف منذ داحس والغبراء مروراً بالقادسية حتى «حرب تشرين المجيدة»؟ ماذا عن ذاكرتنا المحرومة من غضب الصعـاليك ونقاء الغفاري ولوعة ابن زريق البغدادي؟ لقد جرُّوا الى قلوبنا انابيب نفطهم ومائهم هم، وتركونا نتخبط بحثاً عن رأس النبع حيث ماؤنا نحن... فما الذي كان وما هو الكائن وما الذي سيكون بعد إذ صعقوا مخيّلة طفولتنا عام ١٩٤٨ وصعقـوا مخيلة فتـوتنـا عام ١٩٥٦ وصعقوا مخيلة شبابنا عام ١٩٦٧ وقايضونا عين جالوت بكامب ديفيد، والحبل على الاعناق.

خانوا ذاكرتنا، بملوكهم ورؤسائهم وحكوماتهم ومؤسساتهم. خانوا ذاكرتنا شعباً وجيلاً وشعـراء. وأباحوا لانفسهم انقصافنا مثل قصبة هشّة امام عاصفة الوكالة اليهودية والكومنولث وجامعة انتوني ايدن العربية (؟).

لا بأس عليك، لا بأس عليّ. علينا ان نرمم الذاكرة.

مُـدَّ اليَّ يدك النحيلة عبر المتوسط. لا تكترث بحاملات الطائرات والطرادات الصـاروخية فهي منهمكة بلحم طفلة عربية من ليبيا آمنت بأن رأس الدوتشي

موسوليني لا تصلح قمراً للصحراء.

مُـدَّ اليَّ يدك في غفلة من انبياء الكذب وشهود الزور. وتعال نأخذ نصيبنا من دهشـة العيد الاول للقصيدة البكـر يوم كانت زيارتك الاولى للرامة. كان ذلك بالامس القريب، منذ ربع قرن فحسب. هل تذكر كيف استولينا على مضافة ابي العليا وحوَّلناها بلا استئذان الى منتدى ثقافي لثلةٍ من الشبان المدججين بدواوين علي محمود طـه ومحمود حسن اسماعيل وابي القاسم الشابي وكتابات جبران النبوية؟ هل تذكـر ذلـك الشـاب الـذي حاصرنا وأمطرنا بوابل من قصائده حتى ضقنا ذرعاً فتهامسنا: «اللهم اجعل هذه الليلة خيراً.. فهذا الفتى قد تأبط شعراً (!) ما كان النوم مُتاحاً الا في ساعة متأخرة من الليل او في أختها المبكرة من النهار... وآنذاك شددت اللحاف الى ما تحت أنفك مودعاً: (بخاطرك)!

«بخـاطـرك!» لماذا أتوقف عند هذه الكلمة؟ آه. صحيح، لانك لم تقلها لي حين أرهقتك ليلة ما في موسكو فشددت مصر الى ما تحت أنفك. لقد أحزنني رحيلك اكثر مما اغضبني. كان في رحيلك قسط من الانانية بقدر ما كان قسط مماثل من الانانية في سخـطي عليك. والغريب في الامر ان كتيبة بأكملها من الكتاب والصحفيين والشعراء والقراء رأت في (حادث الطرق) هذا منطلقاً تاريخياً لتجديد امجاد القيسية واليمنية حتى انهم اقتسموا بلا رفـة هدب ان قصيدة (اليك هنـاك حيث تموت) موجهـة اليك رغم انها نشـرت قبل رحيلك بعامين. هكذا كان. بيد أن قصيدتنا المشتركة في الرامة ودير الاسد وحيفا وحبنا المشترك وسجننا المشترك ونضالنا المشترك وجـريدتنـا المشتركة وذاكرتنا المشتركة، هذا العالم الزاخر بالفرح الدامي، الجيّاش بغبطة التحدي وكبرياء الالم، كان رأس النبع الذي اكتشفناه وها نحن نعود اليه.

قلتُ (الـرامـة) وقلتُ (دير الاسـد). وتحضر على الفور تلك البداية السحيقة اللصيقـة (لعملنا المشترك). في اعقاب زيارتك لي في الرامة اهديتني قصيدة. كان عنوانها (عروس جبل حيدر). وكان مطلعها:

فـي حـضـن حـيـدر تـرقـُـد حـيـثُ الجـمـال مـغـردُ

وبالطبع كان علي ان أرد على النار بالمثل. وهكذا أهديتك قصيدة معارضة. كان عنوانها (بلبل دير الاسد). وكان مطلعها:

قـلـبـي يـثـور ويـزبـدُ وعـلـى الـحـنـين يـعـربـدُ

مهـلاً. انتظر. راجع المطلعين معي. ألا تلاحظ شيئاً، بل تلاحظ بالتأكيد من خلال هذين البيتين اننا منذ بداياتنا كنا مكرسين للتماثل والتناقض في آن. التماثل في الوجدان والتناقض في شكل التعبير عن هذا الوجدان.

تأمل مفرداتك: حضن، ترقد. مغرد.
وتأمل مفرداتي: يثور، يزبد، يعربد.

يـاه. أتعلم يا محمـود؟ قـد يعثر النقاد في هذين المطلعين على المفتاح الحقيقي لمداخل تجربتينا ـ تجربتنا. من جهتي، يبدو لي الآن ان مناخك الشعري كان صافياً منذ البداية، وان مناخي الشعري كان غائماً منذ البداية.

قد يكون الامر كذلك وقد لا يكون. الا انني مُقدم على البوح لك هنا بسر رافق خطواتنا الاولى. قبل ثلاثين عاماً كنت طالباً في مدرسة الناصرة الثانوية. والى جانب ممارسات سرية شتى كنت أمارس كتابة القصائد البذيئة الصاخبة هجاء لمعلم او تجريحـاً لزميل او غزلاً في طالبـة. وكـان الـطلاب يتنـاولون هاتيك القصائد مع ساندوتشات العطلة الصباحية، متلمظين بعدها بما طاب لهم مدحاً او قدحاً. في تلك المرحلة اكتشفت بايرون وشيللي عبر المنهاج الدراسي. وخيل اليّ آنذاك ان بايرون اقرب الى قلبي من صديقه وزميله. وذات درس من دروس الادب الانجليزي علمنا المعلم ان والـد بايرون كان ضابطاً متقاعداً من الجيش برتبة كابتن. فجأة انفجر طالب يدعى سعيد الصح ضاحكاً. دهشنا لجرأة زميلنا علماً بأن استاذ الانجليزية كان رجلاً صارماً عصبياً حاد المزاج، وتفادياً لعاصفة الغضب سارع اخونا سعيد لتبرير موقفه: (يا استاذ، والد سميح القاسم هو الآخر ضابط متقاعد من الجيش برتبة كابتن). ضحك الطلاب وغفر المعلم. اما انا فلم اضحك ولم اكتشف ضرورة للغفران بل تعاملت مع هذه المسألة ليس باعتبارها لفت انتباه الى مصادفة طريفة او لسعة من زميل يشكك في مستقبلي الشعري، بل باعتبارها نوعاً من التقمص التاريخي الناجز وفق ارادة إلهية...

وحين تعارفنا فيما بعد يا عزيزي محمود، همست لذاتي وفي ذاتي: (آها.. لا بد ان هذا الشاعر هو زميلي وصديقي بيرسي بيش شيللي!!) والآن، في هذا الوقت بالذات، وبعـد ظاهـرة الثنائية التي أشرت اليها في رسالتك، سأكون مموهاً اذا انا زعمت الفكاك من (ثنائية) شيللي وبايرون.

يا عزيزي بيرسي بيش درويش.

من حقك ان (تلعب خارج ساحة الدار) ومن حقك ان تعود، ومن حقي أن العب في ساحة الدار ومن حقي انا الآخر ان اعود. ومن حقنا جميعاً ان نختار قبورنا. لكن تعـال نراقب كلمة «الحق» هذه. ماذا عنت في الماضي؟ ما هو معناها اليوم؟ وهل تختزن هذه اللفظة الرشيقة والمهيبة في آن، مضموناً مجرداً فرداً شاملاً وخالداً؟ لا ارى ذلـك، والا لكـان عليَّ ان اعلق نفسي على اقـرب شجـرة. ولنتـأمل معاً الفاظاً

ومصطلحات رائجة اخرى: السلام... العدالة الاجتماعية... الأمن... الوحدة الوطنية... حق تقرير المصير وهلمجرا. وعليه قِس! ستجد من يفسر حق تقرير المصير على انه الحق في اختيار هذا النظام او ذاك وتكريسه لابادتنا السياسية والتاريخية، حتى الجسدية. وحين تسأل امرأة ما لماذا تزني فقد تجيبك على الفور: انا حرة! واذا سألت سمساراً لماذا تخون وطنك فسيرد على الفور: انا حرّ! واكثر من ذلك. فستجد من يجابهك بصفاقة مرعبة: هـه، تتحدث عن الحرية وتدعو للحق وها انت تنتقص من حريتي وتصادر عليّ حقي!

كلمات يا عزيزي. كلمات. كلمات. كلمات وألف رحمة على هملت وعلى شكسبير وعلى آله وصحبه أجمعين!

اخيراً لا تسألني اين قبرك. ما دام المهد قضية معلقة فسيظل القبر سؤالاً محرجاً يتيم الاجابة.

الامر المؤكد الوحيد هو ان حواجز الشرطة المحيطة بمطار اللد لن تقوى على احتجاز قلب الوطن الذي ينتظر عودتك ساعة بساعة ودهراً بدهر...

أخوك سميح القاسم
(حيفا ـ ١٩٨٦/٥/٢٢)

هناك.. شجرة خروب

● عزيزي سميح،

... وعلى ذكر «الحق» الذي يمدُّ لسان السخرية في رسالتك، والحق بالحق يُذْكر او يُنْكر، فضحتني دمعتي منذ ايام، عندما كنت اسجل حديثاً تلفزيونياً في مدينة هلسنكي...

إنقض عليّ احد المحاورين، وهو كاتب فنلندي شهير، بهذا السؤال المدهش: هل تعرف كيبوتس «يسعور»؟

أجبت: نعم، اعرف مكانه لاني اعرف انقاضي. ولكن، لماذا تحرك فيّ هذا العطش؟

قال: انا من هناك. أعني: عشت هناك عشر سنين. ومن حقي أن اعود الى هناك في أي وقت أشاء...

قلت: في أي وقت تشاء، لماذا؟

قال: لأنني يهودي...

قلت له، وقد تحول الى مرآة: يا سيد دانيال كاتس، يبدو لي انك تعرف انني وُلدت هناك، تحت غرفة نومك، وتعرف ان لا «حـق» لي في العودة الى مكان ولادتي، بينما انت الفنلندي، صاحب العشرين الف بحيرة، تملك «الحـق» في العودة الى بلادي في أي وقت تشاء...

قال: اعرف هذا الظلم. ولذلك، أعددتُ لك هذه الهدية، هذه الاغنية القصيرة: «انظر الى البلاد التي تسميها وطنك ـ قال لي توفيق او محمود / عيناك تحدقان في التراب ولا تصلان الى ما تخبىء الارض / القرية التي وُلدت فيها عارية وباكية / متحررة من خاصرة أمي / وانت... ها انت ترفع باعتزاز / كوخاً من الصنوبر»...

وروى لي دانيال، يا عزيزي سميح، مسيرته في طريق العودة ـ فهم دائماً عائدون ـ كما يرويها من يملكون الحق، اينما كان، والضمير عندما يشاؤون. اذ ليس على التاريخ الا ان يتمرن على حساب مصالحهم وعواطفهم وينضبط! كان مثل جميع المهـاجـرين لا يعلم. لا احد منهم يعلم ـ على ما يبدو ـ ان في بلادنا شعباً. وحين

يواجهـون عقبـات الانـدماج في الارض او في المؤسسة فانهم سرعان ما يعلمون، ويستخرجون احتياطيّ الضمير ليختاروا «عودة» اخرى الى «حـق» آخر.

من علمك يا دانيال ان تحت كيبوتسك قريتي؟

قال: شجرة الخروب الضخمة... سألت احد زملائي في الكيبوتس عمن غرس هذه الشجرة، فقال: نحن المهاجرين. ولكنني ادركت من عمر الشجرة انه يكذب، ادركت ان احد اجدادك هو الذي غرسها، فحملت ضميري المعذب وعدت الى وطني فنلندا.

لـم أقـل لـه، يا عزيزي سميح، انه محظوظ بامتلاكه حقين، ووطنين، وعودتين. قلت له انه عادل، لانه يمتلك ميزة انسانية اكبر هي: الضمير، يحركه، يستعمله ويشهره متى يشاء في وجه أية مشكلة. في وسعه ان يتوج قاضياً ما دام يتمتع بهذه القوى الانسانية. له حق الكلام والمصداقية. أليس هو الشاهد الذي لا يُدحض؟ ونحن الذين نحتاج اليه لنتكلم عبره عما يصيبنا. فهل يحق للعربي ان يتحدث في الغرب بلا شاهد يهودي؟ لاحظ، على سبيل المثال، كيف يناقش الاسرائيليون قضايا الاحتلال ونتائجها السكانية. انهم يبكون كما لو كانوا هم الضحية، ونحن الضحايا نصفق لمتانة الدليل!

ولكنني اعلق بطريقة أخرى تشبه معاني الكلمات التالية: وهكذا تدلنا شهادة دانيال على ان السلام في الشرق الاوسط ما زال قابلاً للتحقيق، ما دام دانيال يصافحني، ويرضى ان يكون صديقي، ويكتب لي هذه الاغنية!

وبالاغنية ذاتها التي تخدع ذاتها لتكون ذاتها، يقف الواقع على رأسه، ويعتذر عن وعي شقي ووعي زائف معاً. ماذا يريد الشعر من المستوطنين اكثر من الاشارة الى طفولتنا التي تنسب جماليتها الى المكان ذاته؟ ليكونوا هم المعبرين نيابة عنا. هل يعبر عني حاييم نحمان بياليك حين يغني للطائر العائد من بلاد الشمس الى نافذته المطلة على الجليد الروسي؟ وهل يعبر عنك حاييم غوري في وصف الجليل العائد الى اهله الغائبين؟ وهل تعبر عن هشاشة قلوبنا تلك الاغنية الرائجة: يا بحيرة طبريا، يا بحيرة طبريا، لقد هبت الريح؟ وهل نستعيد جمال القدس، كما استعادوه، في أغنيتهم التي حطمتنا: يا اورشليم من ذهب، ومن نحاس وضياء؟

ليس هذا سؤالاً، يا سميح، بمقدار ما هو نزيف. وهل انتبهنا الى شراسة استيطان الارض ومحاولة استيطان الذاكرة، وظل استيطان لغة الحنين والعودة والتيه مجالاً لعواطف مشتركة ممكنة؟ طالما ان سكان «يسعور» يستمتعون بذهب الذرة الصفراء ذاته، وبالتفاح ذاته، وبالدوالي ذاتها، ويرفعون اكواخاً من الصنوبر كما كنا نرفع ويغنون ـ كما كنا نغني ـ هبَّ النسيم على الحقول؟

لا تصدقني، فأنا لا أسأل، بقدر ما أشير الى «حياد» الطبيعة الجارح.

‹ولكن شجرة الخروب اياها التي دلت المستوطن الاجنبي «البريء» عليَّ وعلى اجدادي، هي هي غلاف هويتي، وهي ايضاً جلد روحي اذا كان للروح جلد. هناك ولدت.. هناك ولدت. وهناك أريد ان أدفن. ولتكن تلك وصيتي الوحيدة!.

شجرة الخروب ـ أغبطك لانك تراها كل يوم في طريقك من الرامة الى حيفا، ومن حيفا الى الرامة. سلم عليها اذا كانوا لم يجدعوها بعد. شجرة الخروب ـ اختبأت في جذعها العملاق المجوف من المطر ومن الاهل عندما كنت العب مع السحالي والزيز والزواحف، وعندما كنت أتبع خط الاسفلت الساطع الى عكا، لأشرب الماء بالطاسات.

ويا سميح، يا سفير قلبي الى الشجر كله، لماذا اشعر بكل هذا العطش، والعطش الذي لا يرويه غير امتصاص قطرة من الماء على جناح قبرة عندكم؟. ولماذا يتجمد الزمن عند السنين الاولى... لينفتح السهل امامي في امتداد لا ينهيه حتى البحر، وأرى جنود نابليون في حقولي عاجزين عن اقتحام القلعة على السور، الذي حولته شركات السياحة الاسرائيلية الى سوق تجاريه وملاهٍ لليل طويل؟

... وينفتح الشرق امامي لغابات الزيتون التي تصعد، وتصعد بلا تعب وبلا ملل الى تعرجات جبال كثيرة، متناثرة، لتصل قريتي بقريتك العالية، عبر عشرات من القرى المتناثرة، كالمجاز السهل، في نشيد شديد الصعوبة؛ يدخلنا في متنه شهداء او شهداء، وهكذا تتحول شجرة الخروب الى مرتكز جهات، والى علامة الفارق بين الارض والسماء. ومن على غصونها أقطف، حتى الآن، حبات الهواء الطازجة.

لم يكن للشهور اسماء لا تذكر متى انقصف حبق الطفولة. ولكن الليل لم يكن بارداً كما هو الآن. ولم تكن للقمر أغان عبرية معاصرة. ولكنني اتذكر ساحة الدار التي تتوسطها شجرة التوت التي تشدُّ البيوت لتحولها الى دار هي دار جدي. تركنا كل شيء على حاله: الحصان، والخروف، والثور، والابواب المفتوحة، والعشاء الساخن، وآذان العشاء، وجهاز الراديو الوحيد لعله ظل مفتوحاً ليذيع اخبار انتصاراتنا الى الآن. هبطنا الوادي الحاد المؤدي الى الجنوب الشرقي المفتوح على بئر يشرق من سهل يقودنا الى قرية «شعب» حيث يقيم أقارب امي واهلها القادمون من قرية «الدامون» التي سقطت تحت الاحتلال... وهناك ـ بعد ايام قليلة ـ تنادى فلاحو القرى المجاورة، الذين باعوا ذهب زوجاتهم، ليشتروا بنادق فرنسية الصنع لتحرير «البروة»...

حرروها في اول الليل. شربوا شاي المحتلين الساخن. وباتوا ليلة النصر الاولى، وفي اليوم التالي تسلمها «جيش الانقاذ» بلا ايصال، ليعيد اليهود احتلالها وتدميرها حتى آخر حجر.. ونحن ننتظر العودة على مشارف الوطن.

تعرف السيرة كلها، يا سميح، لقد طالت «نزهة» المهاجرين واختُصرت الحرب. وتعرف كيف «تسلّلنا» من لبنان حين أدرك جدي ان الرحلة ستطول، وان عليه ان يلحق بالارض قبل ان تطير. وحين وصلنا لم نجد غير الخراب. فقدنا حق الاقامة وفقدنا حق الارض. وحين مارستُ طقس الحج الاول الى قريتي الاولى «البروة» لم اجد منها غير شجرة الخروب والكنيسة المهجورة، وراعي ابقار لا يتكلم العربية الواضحة ولا العبرية الجارحة: من انت يا سيد؟. فأجاب: انا من كيبوتس «يسعور». قلت: اين كيبوتس «يسعور»؟ قال: هنا. قلت: هنا البروة. قال: اين هي؟ قلت: هنا. تحتنا. حولنا. فوقنا. هنا في كل مكان. قال: ولكنني لا أرى شيئاً، ولا حتى حجارة. قلت: وهذه الكنيسة... ألا تراها؟. قال: هذه ليست كنيسة. هذا اصطبل للابقار. هذه بعض آثار رومانية؟. قلت: ومن اين أتيت يا سيد؟ قال: من اليمن. قلت: وماذا تفعل هنا؟. قال: عائد الى بلادي. ثم سألني: ومن أين انت؟ قلت: من هنا.. عائد الى بلادي..

هكـذا، يا عزيزي سميح، يجري الحوار منذ اربعين عاماً تقريباً. لاحظ المعاني العكسية، الانقلابية، الاستبدادية، للكلمات! ونحن في احسن الاحوال حُرّاس آثار رومانية. لذلك، كان علينا ان نعيش في «دير الاسد» قريباً منكم، لاجئين في وطن محفوظ، بقرار الهي، منذ ألفي سنة لعودة راعي ابقار من اليمن!

فكيف نعيد تركيب هذا التفكيك، في البـداية، بغير الشعر؟ كنا ـ انت وانا ـ نتسلح بالمعلقات، وبخلاصات المتنبي، ورهافة الاندلسيين، ورخاوة المهجريين. وكنا نخدع انفسنا، في شبق البحث عن اختلاف، بتقمُّص صعاليك وخوارج وبكل ما يبدو لنا انه خروج عن المؤسسة. لم يكن اختلافنا كله مع تاريخنا. لان هذا الاستيطان الصليبي يعارض كل تاريخنا. لذلك، لم نجد النموذج الجاهز في مرحلة وعي اكثر تطوراً وتشكلاً. كان علينا ان نبحث عن اصفارنا، وكان علينا ان نخطىء. اذ ليس لمصيرنا، ومفارقتنا الانسانية، ومأساتنا من اطار مرجعي. وليس لنا من مُعَبر. وليس لنـا ان نستعير دموع عاشق اندلسي يبكي الخروج. ليس وطننا اندلسياً الا في الجمال والاندلس ليس لنا.

واذا كان لا بد من اندلس، بتداعياتها الجمالية، فان فلسطين هي الاندلس القابلة للاستعادة.

سلام عليك، يا عزيزي، يا حارس الخروبة من أغاني الآخرين. ارجوك. ارجوك... ارجوك ان مررت بها غداً، ان تعانقها وان تحفر على جذعها اسمك واسمي... ولا تتأخر!

أخوك محمود درويش
(باريس ـ ١٩٨٦/٦/٣)

سأحفر اسمينا على الريح

● اخـي محمود،

في الايام الاخيرة ارتفعت درجة الحرارة هنا بفظاظة، وانخفض منسوب المياه في بحيرة طبرية بشكل لم يسبق له مثيل، الامر الذي يثير لدى الدوائر الرسمية قلقاً شديداً ويستـدعي اعلان حالة الطوارىء المائية. وزارة زراعتهم تتخذ اجراءات مشدّدة لتقليص مخصصات الري ويسود التحسب اوساطهم الاقتصادية والصحية وربما العسكرية ايضاً.

في البدء لم أقلق، وليس هذا فحسب، بل فرحتُ قليلاً ورحت اتخيّل مدى سعادتي لو ان بحيرة طبرية جفّت الى قعرها... ولا تسقط الثلوج على جبل الشيخ في العام القادم وتغور منابع نهر الاردن فتظهر طحالب مائية خضراء مخملية ثم يتأكلها الصدأ ورويداً رويداً تتحجـر وتجف ادغـال القصب وتـذبل الاشجار وترحل الحيوانات والعصافير وترتفع الحرارة ويميل الاخضر الى الاصفر والاصفر الى البني والبني الى الـرمادي وتعلن بلادنا منطقة تصحُّر محتّم. وترتفع الحرارة لأجدني من جديد بدوياً سعيداً في صحرائه السعيدة.

لم اقلق في البدء، بيد ان القلق أخذ يقضم اعصابي مثل فأر نهم. فقد خيّل اليّ في ما بعد ان حل أزمة المياه قد يتم على الطريقة الاسرائيلية التقليدية: يذهبون الى الامم المتحدة مطالبين بأرض اسرائيل الكبرى وفق نصوص التوراة ليضمنوا مياه النيل والفرات، ولا ريب في انهم سيجدون هناك آذاناً صاغية وقلوباً ليّنة، لا سيما ان الشعب النمساوي جرؤ على انتخاب كورت فالدهايم رئيساً لجمهوريته! ولن يحرموا هذه المرة دولاً عربية تصوّت من أجلهم!

لا يا محمود، لا يا صديقي، ينبغي الا تجف بحيرة طبرية ولا يحق لنهر الاردن ان ينكمش ولا يجوز لجبل الشيخ الا ان يعتمر ثلوجه عمامة للحزن ومصدراً مؤكداً لمياه صهيون!

ها انت تعود في رسالتك الى الانكسارات الاولى، الى الطفولة التي لم تنهض من

ركلة حذاء العسكري الانجليزي جورج حتى فاجأتْها ركلة حذاء العسكري الصهيوني شلومو. ها انت تعود الى الانقطاع القسري عن لعبة السحالي في البروة. وماذا اقول لك؟ ماذا اقول عن الايام الثلاثة بلياليها التي قضيناها مُرتدين ثيابنا منتعلين احذيتنا في انتظار المصفحات اليهودية القادمة من انقاض البروة عبر طلعة الليّات على طريق صفد. ماذا اقول لك عن الخوف غير المفهوم (الاطفال يخافون فحسب!) والاستعداد الكامل للهرب مرة اخرى، لا الى كروم الزيتون وكهوف جبل حيدر القريبة بل الى المنافي العربية. انني خجل من مكوثي، خجل من رحيلك. وكم تلوعني ذكرى الايام التي نسميها النكبة. كم تلوعني خيبتي يوم هرعت الى الشارع خلف ابي الذي اخذ بندقيته وذهب للدفاع عن الليات بعد ورود النبأ عن سقوط البروة واقتراب الفاتحين الجدد. كان ابي معتمراً كوفية بيضاء وعقالاً مقصباً من مخلفات خدمته العسكرية في قوة حدود شرق الاردن. ركضت وراءه بالخوذة الحديدية التي احتفظ بها بعد تسريحه من الجيش لايام الشدة القادمة. وما زلت اذكر كدرة وجهه وهو ينتهرني: «عُد يا ولدي الى البيت وابق الى جانب امك واخوتك». ألححت عليه: ولكن الخوذة.. خذها يا ابي (لم اكن خائفاً عليه بقدر ما كنت معتزاً به... وفي هاتيك اللحظات كان يطفو على سطح مخيّلتي الصغيرة نشيدنا الذي طالما رددناه في الساحات وعلى جذوع الاشجار: يا يهودي يا ابن الكلب... شو جابك عبلاد الحرب!).

لم يأخذ ابي الخوذة ولم تستطع بندقيته ذات الطلقات القليلة حماية شبر واحد من الارض... والذين جاءوا لحماية الارض كلها (ولانقاذها) هربوا شمالاً وشرقاً كالنعاج وهم يتخففون من رتبهم العسكرية وأسلحتهم وشرفهم... اولاد الكلب!!!

بعد وفاة ابي بسنة كاملة جرؤت على الاقتراب من أوراقه. وبين تلك الاوراق عثرت على رسالة من المقدم عامر قائد جيش الانقاذ في الرامة والمنطقة يوصي فيها بتجنيد ابي وباعطائه رتبته الرسمية، رتبة الرئيس، من اجل رفع معنويات المقاتلين... والذي حدث يا اخي في اليتم والكارثة ان المقدم عامر رحل على الفور برتبه وجنوده ولم يبق في الوادي سوى حجارته والمدنيين المصعوقين وبنادقهم التعيسة ذات الطلقات المقننة.

وتجد اليوم من يتهمون شعبنا بأنه تخلى عن وطنه وهرب طوعاً. أية فرية يطلقها هؤلاء الخنازير! لقد صمد شعبنا وقاتل بكل شجاعة وصدق وحمية الا ان ما نسميه اليوم بتوازن القوى لم يكن لصالحنا على الاطلاق. فقد كان شعبنا ضحية جاهزة بين مطرقة الغزو الهمجي وسندان الوصاية الخائنة.

اخي محمود، ايها الشاعر التعس، ما الذي اقحمك مرة اخرى في لعبة الضمير

السادية هذه؟ من الذي أهال على جسدك المرهق خروبة البروة واشجار فلسطين كلهـا؟ اهو المستوطن الفنلندي المصاب بالملل؟ ام انها الاغنية الجارحة عن بقايا الوطن الجارح؟

انا يا اخي الحبيب ما عدت قادراً على حمل زهرة البرقوق البرية، فلماذا تحملني خروبة البروة؟ زهرة البرقوق التي قطفناها قبل ان يقطفوا طفولتنا اصبحت اليوم الرمز الرسمي لمدينة كرمئيل، هل تذكرها؟ نحن اصبحنا متطفلين على زهرة البرقوق يا محمود!

وتضغط في رسالتك، تضغط عليّ بشجرة الخروب وبدموعك المنهمرة مع اغنية شقية في فنلندا البعيدة الباردة. حسناً، سأقدم لك الحقيقة غانية، لا حليّ ولا اصباغ: لصداقتنا الجميلة همومها الخاصة، وآلامها العائدة دائماً وبلا انقطاع، جراء ارتكابنا الخطيئة المميتة، خطيئة الاندغام الكامل والابدي بين الانسان ـ الفرد ـ الشخص وبين الوطن ـ الشعب ـ القضية. وانني لاتساءل احياناً: نحن نقول شعرنا ام انه الوطن؟ نحن نكتب القصيدة ام انها هي التي ترنمنا؟ اين ينتهي الخاص واين يبدأ العام؟ هل لدينا ما يجوز اعتباره امراً شخصيًا؟ ويخيل اليّ احياناً اننا ما احببنا امرأة لذاتها ولا احبتنا امرأة لذاتنا... او اننا نأكل ونمشي ونحب ونسافر ونغضب ونفرح في غيبوبة تامة اسمها الوطن.

لماذا اقول لك ذلك كله؟ لانك توصيني بشجرة الخروب. حسناً. دعني اصارحك بأنني منذ فراقنا، وربما منذ تعارفنا، وانا اتهرب من انقاض البروة، زيتونها، خروبها، صبّارها... وحين أمرُّ بها احاول اشغال نفسي بأمر ما حتى اتجنب النظر اليها. ولو ضبطت نفسي متلبساً بالنظر صوبها فان عقرباً صفراء هائلة تلسعني في القلب مباشرة وبلا رحمة وتنغص عليّ رحلتي.. لا تغبطني على اقامتي... جحيم هنا، وجحيم هناك... جحيم الى يوم الجنة، يوم يلوح اطفال فلسطين بأعلام فلسطين في مراسم استقبال ضيف رسمي او في طقوس العيد المقدس الكبير، عيد العودة والحرية والاستقلال.

أخـــي العزيز،

ارجو أن تعذرني. لن أزور شجرة طفولتك في البروة ولن أحفر عليها اسمينا... ببساطة وبصراحة تامة: لا استطيع.. شيء آخر استطيعه من اجلي ومن اجلك، هو أن أحفر اسمينا على الريح... وأن انقش الريح على الوطن وأن اكتب الوطن على لحمي وأن انثر لحمي في القصيدة.

اخـيراً، نوال والاولاد يسلمـون عليك... اصبحـوا يعرفونك جيداً عبر الصور والقصائد والتلفون. قبل حين سألني «وطن محمد»: لماذا لا يأتي عمي محمود لزيارتنا

كما تزوره انت؟ قلت: انه مشغول كثيراً، الا انه سيأتي ذات يوم، حين يفرغ من اشغاله.

هل اخبرتك انني اقلعت نهائياً عن الكحول! حسناً لقد ضمنت لنفسي مكاناً في تصفيات دوري الجنة. وضمنت لمعدتي عطلة من الآلام المبرحة. وانت؟ حاول ان تهدأ قليلاً. مثلنا الشعبي يقول «الكبير حكيم نفسه». ولن تُجدينا المناورات يا صديقي. لقد كبرنا.

اخوك سميح القاسم
(الرامة ـ ١٩٨٦/٦/١٠)

لا توبخ حنيني

● عزيزي سميح،

لماذا توبخ حنيني؟ الأنك تخشى ان اطيعه، فأرتكب حماقة تودعني السجن هناك، او تعلقني على حبال الفضيحة هنا؟ ام لانك تخاف على قلبي اياه الذي ساهمت انت، في فيينا، في انتشاله من قاع الغم الذي امتصنا كلنا جراء الحصار المتتابع، خطوة خطوة، منذ قرأنا مأساة طروادة حتى الآن، دون ان يحتاج المحاصرون الجدد الى اي حصان او حمار!

هكـذا أريد ان افهمـك. واريد ان اغبـطك. جحيم هنا... جحيم هناك. ولكني اغبطك، اذ ليس في وسعي ان اجد جداراً أسند عليه ندائي، او ناي عظامي، غير ذلـك المكـان المنحوت من هواء صلب، المرفوع على الاذان الاول، بعدما عجزت الفكرة والمرآة فينا عن صـد الحاح الخريف.

ليس للخارج ان يخرج اكثر،

وليس للداخل ان يدخل اكثر،

أمن هنا نُطلّ على الحضور والغياب؟...

لقد كبرنا دون ان ننتبه. لم يُسمح لنا بأن نكبر على مهل. غافلنا العمر فوجدنا انفسنا وقد كبرنا. وانتفخ بطن الاحتلال وتمدد مرتاحاً على العمق الحيوي. ونحن نربي كلمات تتمخض عن كلمات نرفعها قلاعاً في مواجهة حصون الاسمنت المرتفعة في شرايينتا. فماذا كان في وسعنا ان نفعل، يا عزيزي، لو بدأنا من جديد، غير ما فعلنا؟

كنت اواسي النفس، احياناً، بقراءة علم الفلك الذي يؤكد ان حجم الكرة الارضية كلها لا يزيد عن حجم حبة رمل على ساحل لا نهاية له. فأين داري واين دارك من هذه الحبة الشاردة؟ هكذا يستطيع المرء المثقل بالفقدان والغياب ان ينام قليلاً، وان يسخر من مأساوية العبث ومن عبث المأساة. وهكذا يستطيع ان يردع القلب المهان المتحفز للانقضاض على الواقع ليعضه من الغيظ... نعم ليعضه!

ولكننـا لسنـا شهـوداً على ما مضى، ولا نستطيع مشاهدة المسرحية دون ان

نتقمص ابطالها المتعبين، فنحن الضحايا والخشبة. ولم نحظ، حتى الآن، بنعمة ان نكون الجمهور، ولا حتى في مباريات كرة القدم التى نفتقد فيها حاسة الانحياز الى احد، لاننا نفتقد فيها دورنا. فلمن نصفق في هذه الحرب المؤولة؟ ولأي نشيد وطني في ملاعب المكسيك تنكس القلوب المتلهفة الى ملكية حماسة؟ او الى سخرية حرة؟

لقد وجد اميل حبيبي حله الاممي بانحيازه الى الفرق الاشتراكية. تحمس وخاف الخيبــة وخاب فتوقف عن المراهنة. وحين ذكره احد الاصدقاء بان فلسطين كانت تلعب كرة القدم في عهد الانتداب البريطاني، مال عليَّ ووشوشني سخريته التي تورده التهلكة دائماً: لا اعرف، تماماً، ان كان ذلك الفريق عربياً! لقد مات مؤرخنا اميل توما الذي كان الوحيد القادر على التأكد...

هل مات اميل توما حقاً؟ ذلك الفارس الشاهق صاحب «العصا الماريشالية» التي كسرتها «حرب التقسيم» وأحنت قامته قليلاً؟ هل مات؟ أتذكره منكباً على عمل لا مبرر لافـراطه فيه غير الرغبة في تحقير الحاضر الطارىء بالوقوف على الضفاف الواسعة لنهر التاريخ الذي عرف وجرف مثل هذه النكات الفجة. ولذلك انتقل من اليومي الى التاريخي، ومن التفاصيل الى النظرية. وعجز عن اتقان اللغة العبرية التي اضطر الى استخدامها في المطبخ وفي غرفة النوم فقط!... اميل توما ايضاً يموت. اذن، من لا يموت! عملت معه عشر سنين في جريدة «الاتحاد». ومنذ البداية قال لي: هل انت متأكد من انك ستمضي على هذه الطريق؟ قلت ـ وانا في العشرين: معك، ومع اميل حبيبي وتوفيق طوبي سأمضي في هذا الطريق الى النهاية...

اردعني الآن، يا عزيزي سميح، لانني اجهش بهذه الذكرى. لقد ظننت انني لن ابكي عليه، فلماذا أرى موته الآن؟ أإلى هذا الحد صرنا لا نرى الحقيقة الا اذا قرأناها او كتبناها؟ أإلى هذا الحد لم نعد هواة؟ سألت اميل حبيبي الذي زارني منذ ايام، ان يحدثني عن ايام اميل توما الاخيرة، فأبى ان يُريني كيف ذاب جسده، وواصلت روحه سموها المعتاد. وقال: لقد فقدت مرجعي.. لقد فقدت مرجعي.. قلت: عندي سر. قال: لا تقله. قلت: سأقول لك ان اميل توما قال لي ونحن نصعد من وادي النسناس الى شارع عباس: ماذا تفعل هنا ايها الشاب؟ فسألته ماذا يعني، فرد بصوت خفيض: ابحث لنفسك عن أفـق...

وفي موسكو، حيث كان اميل توما يراجع اطروحته عن الوحدة العربية ويبحث عن أفق، وحيث كنت أدرس «رأس المال» صفحة صفحة بافتتان، كنت اول من ابلغ اميل توما بوفاة جمال عبدالناصر، فقال: ليس هذا معقولاً.. سيأتي السادات. وقضينا اكثر من مساء طويل في المعهد نستمع الى «التريو» لتشايكوفسكي يلعبه الثلاثة

الكبار: راستروبوفتش على التشيلو، اويستراخ على الكمان وريختر على البيانو.
ما العلاقة، يا عزيزي سميح، بين هؤلاء الثلاثة وبين الثلاثة «الترويكا» الذين قادوا وعينا ونشاطنا السياسي الاول: اميل توما، توفيق طوبي، واميل حبيبي؟
رأيت الساحر الابويّ توفيق طوبي، قبل شهرين، في مطار اثينا. سحبني من احضانه النداء الاخير للطائرة المتجهة الى استانبول، وكان هو متوجهاً الى بلاده، خجلت ان اقول له: سلم على قلبي هناك! كم احب هذا الرجل الذي حمل لي الشوكولاه مع اولغا، وانا مريض في بيت اميل توما المسافر. وحين ذهبت في اليوم التالي الى مكتب الجريدة لأراه واشكره، وبخني بقسوة: عد الى السرير!
من يملأ فراغ الذين يغيبون؟ اولئك آبائي فجئني بمثلهم / اذا جمعتنا، يا سميح، المجامع! لا تغضب فلست جريراً، ولست الفرزدق، ولكنني اشاركك الزهو بهذه الأبوة.
من يملأ هذا الفراغ؟ سألت اميل حبيبي المكابر الذي يخشى الاعتراف بان مجال عمل الادب هو التعامل مع الضعف البشري، فتأفف من سؤالي كي يتعفّف، واختار كعادته مجاله الحيوي: هناك خطأ جرى في زمان ما وفي مكان ما. قلت: ماذا دهاك؟ قال: الانسان مسكين وانا حزين... رأيت اليوم رجلاً ـ او امرأة لا اعرف ـ يحمل جيتاراً ويحث الخطى بحثاً عن الرزق، بينما الناس كلها تذهب الى «الويك اند». قلت: هل تعني ان ما يحزنك هو ان ترى انساناً يمشي عكس الاجازة؟ قال: نعم... هناك خطأ ما.
هناك أخطاء كثيرة، يا اميل حبيبي، اشدُّها هولاً هو ما لا نقوله. وهناك اخطاء كثيرة منها: انك لا تهتم بصحتك فتلتهم الطعام الدسم والحلوى باعتبارها الفرح الوحيد الممكن في هذه الحياة المرة. وهناك اخطاء كثيرة ابسطها انك تدعوني الى زيارة بلادي، وعائلتي الصغيرة وعائلتي الكبيرة، بثقة تدفعني الى الظن الخائف بأنك تودع شيئاً ما، فتعين نفسك رئيساً لجمهورية الصنوبر المستقلة على سفوح جبل الكرمل!
وهناك اخطاء كثيرة كثيرة، نخشى ان نحن سميناها ان نقع في اخطاء اكبر واكثر.
جحيم هنا...
جحيم هناك...
ولكن ليس للخارج ان يخرج اكثر وليس للداخل ان يدخل اكثر. فالى متى تلتفُّ علينا الدائرة؟
قمر هنا... قمر هناك.
وسأعود، مهما اجتاح جنون الواقع حنيني، ففي النفس جنون مضاد، سأعود مهما

ضيق علم الفلك مســاحتي. على هذه الذرّة، يا عزيزي سميح، على هذه الذرّة من ساحِل الـرمل اللامتناهي، جنة كبيرة، جنة واسعة شاسعة تتسع لخطوة الحضور ولخطوة الغياب، وتتسع للملعب يرتكب فيه الاولاد ـ مهما كبروا ـ خطأ التصويب...

هل اخطأنا التصويب؟ لا... لا... لا...

خـذ قلبي كرة قدم، نلعب بها كما نشاء، كما نشاء: تمريرة من هنا... تمريرة من هناك، ثم نسجل هدفاً في الشبكة ـ شبكتنا. ويهتف الجمهور ـ جمهورنا: جوووووووووووول...

اخوك محمود درويش

(باريس ـ ١٩٨٦/٦/٢٢)

نرسم بحبر الروح سهماً واضحاً..

● اخـي محمود هنا وهناك...

لا مفـر، اننـا نعترف ونبوح ونستجدي الذكريات عزاء ما عن غربة الحضور وحضور الغربة. ولا مفر، نشهر احزاننا صواري ناصعة.. ونندفع بزوارق الحنين بين المدمرات وحاملات الطائرات، ولا مفر، لا مكان على هذه اليابسة المزدحمة.

يخيل لي ان الواحد منا يكتب لنفسه حين يكتب لصديقه. ويكتب عن اخيه حين يكتب عن نفسه حتي ليختلط الامر: من المرسل؟ من المرسل اليه؟! طوبى للجحيم طوبى للمطهر وهنيئاً لاولئك الذين بلغوا الفردوس المنشود. ويخيّل لي ايها الصديق الغالي ان كلامنا يحمل في اعماقه «تاييس» وراهب توبتها معاً... تهلك فينجيها، فتنجو ويهلك. كان الله في عوننا.

تلحّ عليّ الآن فكرة الصداقة.. وقد تكون هذه هي المرة الاولى التي أتأمل فيها هذه المقـولـة البسيطة (صـداقة)، ويتضح لي على الفور انها ليست بسيطة على الاطلاق. وحين احاول تعريفها اكتشف ان الامر ليس من السهولة بمكان. تماماً كما يطلب الينا تعريف الشعر. واتملص من نفسي الى نفسي قانعاً بالحكم ان الصداقة هي ما بيننا ـ خيراً وشراً، سلباً وايجاباً، اقامة وغربة. واطمح الى الزعم بأن الصداقة كالصحة، مستنجداً بالقول المأثور (الصحة تاج على رؤوس الاصحاء لا يراه سوى المرضى). هل حالفني الحظ؟ لا ليس تماماً، فنحن الاصحاء ونحن المرضى، نحن التاج ونحن العين التي ترنو اليه دامعة بدخان الروح حمراء بغبار الغضب.

أخـي العزيز،

تذهب الى علم الفلك راصداً شيئاً من المؤاساة. أإلى هذا الحد ضاقت بنا الارض؟ اجل الى هذا الحد. وتمتد عبر ركام العمر يد صغيرة لذكرى صغيرة تهمس: «خذني. اريد ان اغتسل. اريد أن اولد من جديد». ونعود معاً الى منزل ما في شارع المتنبي على سفح الكرمل. المتنبي يصير شارعاً في حيفا، وتصير حيفا نمطاً جديداً من شعب بوان.. آه مغـاني الشعب.. آه ابـا الطيب... «ولكن الفتى العربي فيها»... ولان جمهور

حاييم نحـمان بياليك لا يعرف وجه المتنبي ولا يده ولا لسانه، فان شارع المتنبي يصبح تلقائياً وبسخرية قاتلة: شارع مونت نبي، على غرار مونت كارلو او مونت بلانش ولا بأس بمونت كريستو! ورغم كل شيء نعود معاً الى شارع المتنبي، وفي صباح احد ايام العطلة القليلة تشعل انت سيجارة اخرى على الشرفة العالية المطلة على البحـر واخرج انا من خزانة الثياب التي اعتصمت فيها احتجاجاً على الحياة نفسها وعلى الموت شخصياً ثم اتربع على الكنبة الرثة في الصالون الصغير فارداً جريدة ما بين يدي. اقذف بالجريدة وتقذف بالسيجارة. نواجه عزلتنا المخيفة داخل الحشد الملتف حولنا ونتساءل كأننا بصوت واحد: «مـا العمل؟ مـا الـحـل؟». واعثر انا على العمل في احدى قاعات السينما النهارية وتجد انت حلك المناسب على شاطىء البحر.. هل تذكر المايوه الاول الذي اشتريته وخجلت من ارتدائه امامنا؟ هل تذكر عودتك من البحر بأنف احمر وغبطة بيضاء. هل تذكر متعتي بأفلام الرعب والهول والعنف؟ هل تذكر الصديقات العابرات مساء والاصدقاء الذين احبونا على علاتنا وزلاتنا؟

وتذهب الى علم الفلك. تغادر هذه الارض وفي قرارة عقلك الباطن وقلبك الباطن شهـوة ارخميدس (أو فيثاغوراس) الهائلة: «اعطوني رافعة وموقعاً خارج الارض لازحزحها من مكانها». اجل، نحن نرغب في زحزحة الارض لان دورتها المملة تحكم حبلاً من مسد على جيدنا المتلع نحو الوطن، نحو استراحة متواضعة في ظـل شجرة الخروب القانتة، (هناك) (هنا) على تل صغير بين ساحل البحر وجبال الجليل.

كان لنا فلكنا الخاص ومدارنا الليلي المحظور على سكان الارض. والى جانب قصائدنا وسجوننا ونسائنا كان لدينا جوعنا الخاص، جوعنا المتكبر والحقيقي في آن. فأهلنـا الذين يحبوننا يريدون لنا ان نصبح في عداد الاطباء والمحامين والمهندسين وسـواهم من اصحـاب الدخل المؤكد، ونحن الذين نحب أهلنا نريد لانفسنا وعياً وعمداً وعن سبق اصرار، مهنة اخرى، قد يخسر المرء فيها كل شيء الا انه يكسب نفسه حتماً. اراد لنا اهلنا سعادة تردع الشقاء واخترنا لانفسنا شقاء يبدع السعادة. واية بهجة آدمية تعدل فرحنا حين تفاجئنا صورة ما، وحين نفاجىء في صدوع الليل وظلال النهار بيتاً من الشعر، نأوي اليه ونجول في ارجائه المدهشة عراة الا من احلامنا قانعين بكلماتنا كفاف يومنا؟

هكذا كان... سخط من التاريخ سخط من الاهل سخط من الجغرافيا سخط من السلطة وسخط من المـومياءات... ومرة اخرى نلقي انفسنا في مواجهة حادة مع عزلتنا الباهظة.

هنا في هذا الموقف بالضبط تمتد الينا ايديهم الطيبة، اولئك الرجال الكبار الذين اصبحوا آباء تاريخيين ليس لك ولي فحسب، بل لبضعة عزيزة من شعبنا العزيز. احبونا وتوسموا فينا خيراً ففتحوا لنا ابوابهم الضيقة في المكان، الرحبة في الزمان. توفيق طوبي، اميل توما، اميل حبيبي، حنا نقارة، صليبا خميس ورفاقهم من الرعيل الاول بعد نكبة وتسعمئة وثمان واربعين، هذه الثلة النبيلة من حراس الشرف لشعبنا ولغتنا وشعرنا وتاريخنا. من حقهم علينا ومن واجبنا ازاءهم ان نصارحهم بحبنا لهم وبامتناننا لحنكتهم ورحابة صدورهم في زمن انتهاك الحرمة وامتهان الحنكة وسقوط الخيل قبل سقوط الفرسان.

واذكر، كما قد تذكر، ان صليبا خميس، بعد طردي من سلك التعليم، كتب في «الجديد» واحدة من اجمل افتتاحياتها على الاطلاق ودعاني للعمل في صحافة الحزب، وعملت هناك الى اليوم الذي اعلن فيه رفيقنا المرحوم يوسف صباغ مدير «الاتحاد» (كنا نسميه وزير المالية!) انه لم يبق في صندوق الصحافة كلها سوى ما يمكننا من شراء علبة شاي. ولانني لم احب الشاي ولم ارغب في ان اكون عبئاً اضافياً فقد لممت اوراقي بصمت وعدت الى شقتي في منزل السيدة سافيدس ارملة القنصل اليوناني في حيفا. كنت مغموماً ومضطرباً. قرعت باب السيدة اليونانية. العجوز الارستقراطية المتزمتة، لاطلب تأجيل اجرة الشقة الى وقت لاحق. وحين فتحت الباب بابتسامتها المتحفظة روّح عني قليلاً. فقد بدت في زينتها المفرطة والوان مكياجها المتطرفة (ربما لضعف في نظرها) بدت شديدة الشبه بجدة ليلى المصورة على غلاف قصة الاطفال (ليلى والذئب). وقبل ان افاتحها في الامر سألتني ان كنت احب ان تواصل العزف على الجيتار بحضوري ولم يكن لي ان ارفض. وقبل انطلاق اظافرها المطلية بالاحمر الفاقع على اوتار الجيتار ناولتني قصاصة صغيرة: «احد اصدقائك جلبها قبل قليل». وكانت القصاصة رسالة مقتضبة من صبري جريس يقترح عليّ فيها العمل رئيساً للتحرير في مجلة اسبوعية ينوون اصدارها بالاشتراك مع اوري افنيري. ولم يمض سوى شهور قليلة على عملي رئيساً لتحرير مجلة «هذا العالم» حتى دبّ الخلاف بيني وبين اوري افنيري الذي يظن نفسه لورنس اليهودي في بلاد العرب السذج.

مرة اخرى، انا بلا عمل، ولا بد من البحث عن وسيلة اقناع لتأجيل أجرة البيت. صاحبة البيت هذه المرة كانت سيدة جميلة من تل ابيب. ولم توافق السيدة الجميلة على تأجيل أجرة البيت فحسب بل دفعت لي مبلغاً جيداً لقاء جهودي الجيدة في خدمة القضايا الانسانية الملحة.

لم ابتلع تل ابيب ولم تبتلعني. بيننا نفور مزمن. وحين تعذرت أية امكانية للتعايش بيننا حملت اوراقي وعدت الى حيفا. وكأنما بميعاد سابق او كأنما بارادة الهية، كدت اصطدم في زحمة محطة القطار في حيفا بتوفيق طوبي الذي يخاطب الناس جميعاً بنداء (يا رفيق) صادر عفواً ومباشرة من القلب الابوي الكبير: ـ «اين انت يا رفيق سميح؟» ـ انا هنا وفي لا مكان! ـ اما زلت تعمل في مجلة «هذا العالم؟» ـ حتى مساء أمس ـ وماذا الآن؟ ـ لا اعرف. ـ كيف لا تعرف؟ ما معنى لا اعرف؟ (بلهجة معنفة) عد فوراً الى مكتبك... في «الاتحاد» في «الجديد» في «الغد»، حيث تشاء ولكن ليس متى تشاء بل غداً ـ».

نحن الآن، يا محمود معاً، تحت سقف «الاتحاد» واميل توما. ولأننا نسهر الليل اكثره والنهار أقله، فلم يكن بد من قدومنا الى العمل. متأخرين لنجد استاذنا وصديقنا اميل توما وقد فرغ من كتابة الافتتاحية على الاقل. ونعاود المسرحية اياها: ندخل مقطبين جادين فيحدجنا ابو ميخائيل من بين حاجبيه الكثين ونظارته الصارمة دون ان يفلت القلم، ويرد على تحية الصباح باقتضاب عاتب ويواصل الكتابة. وبعد ان ننجز عملاً ملحوظاً، فقط، نسمح لانفسنا باسترضائه: «حبيبنا ابا ميخائيل، معذرة فقد كان الليل قصيراً جداً. آنذاك يطرح القلم على مكتبه وينظر الينا مباشرة بابتسامته العذبة الاليفة: «يا عكاريت متى تعقلان؟ متى تكفان عن لعبة التدمير الذاتي هذه؟»...

ويحين وقت الغداء، يذهب الناس الى وجباتهم الساخنة، ونكتشف اننا أنفقنا مرتب الشهر القادم في منتصف الشهر الجاري. ونشعر بالجوع، ونكابر. ويشعر الجوع بنا ونكابر. نحاول اضفاء شيء من الرومانسية على جوعنا الواقعي. نقدم التماساً الى «وزير المالية». وحين يراجع حساباتنا يصدنا بحزم: «رجاء، انكما تبالغان»! ويعلق علي عاشور ساخراً: (ان سوق الخضار قريبة، اذهبا بصندوق من القصائد فقد تعثران هناك على زبون اهبل!).

ولا ينقذنا من ورطتنا سوى صليبا خميس الذي يذكّرنا للمرة الاولى بعد الالف: (وجدتها.. وجدتها.. ليس لنا سوى ابي طوني ـ حنا نقارة). وحنا نقارة الملقب بصديق الشعراء يلبي دائماً دعوتنا له لكي يدعونا بدوره الى الغداء، حيث يترع كؤوس قلوبنا بحزمة ذكرياته مع عبد الكريم الكرمي (ابي سلمى) وابراهيم طوقان وجلال زريق وسائر افراد الكوكبة... ويوم تمرد ابو طوني، (وجدها) صليبا مرة اخرى فاستكتبنا قصيدة لا تخلو من تهديد ووعيد:

يا ابـا طوني الا تذكــرهـــا دعـــوة وجهتهـا من قبـل عام؟
يـوم اقــســمــت بأن تتـخمنــا بألـذ الخمـر مع اشهى الـطعام
فلماذا صرت ان ابـصــرتـنــا في جوار البيت اســرعت تنـام
انـشـغـال ام قضـــايـا طـرأت ام فلاس ام ترى تخشى «المـدام»!!

الـــخ... الـــخ.

ويستجيب ابو طوني شريطة ان نسلمه القصيدة... وفي اليوم التالي نكرر دعوتنا اليه فيزجرنا: «لا اخافكما فالقصيدة في جيبي»... الا انه سرعان ما ينسحب ويكرر الدعوة صاغراً لاننا نعيد له على التلفون، بيتاً بيتاً، تلك القصيدة الابتزازية التي حفظناها عن ظهر قلب...

ولعلك تذكر تلك القصة الطريفة عن الجوع وزميلنا محمد خاص... أتيناه ظهراً لنستدين منه نقوداً لغدائنا:

يـــا مـحـــمـدا!
يا اميراً وابن من كانت وتبقى
أبد الدهر اميرة
اعطنا خمسين ليرة!
فرد بلا اكتراث:
اغربا عن وجهي فانا فقير مثلكما.
واعدنا الكرة مخفضين من طموحنا:
يـــا مـحـــمـدا!
يا فقيراً وابن من كانت وتبقى
أبد الدهر فقيرة.
اعطنا عشرين ليرة!
وعاود الكرة بلا اكتراث:
قلت لكما اغربا عن وجهي فلا مال لدي.

وحين تنحنحنا لنؤكد من جديد اصرارنا على حقوقنا المشروعة، صرخ محمد خاص مقاطعاً:

- كفى. كفى. هذه عشر ليرات ليس لدي سواهـا... وسألنا عن سر استسلامه المفاجىء فقال بهدوء: انها القافية الشريرة... امير واميرة.. ثم فقير وفقيرة... وحان

الآن دور الحقير والحقيرة... كفاني الله شركما وشر القافية!

ضحكنا وقبضنا وتغدينا وكابرنا.. كابرنا باتجاه الخارج، اما خدوش النفس والتواءات الروح فنعرفها وحدنا انا وانت والله.

هل اذكرك بقصة اخرى من قصص الجوع اللذيذة؟ حسناً. ها انت ذات مساء تأتي الى منزلي في شارع يافا، تلوب قليلاً ولا تستقر على مقعد، تمسك كتاباً وتفتح راديو. تغلق النافذة وتفتح الثلاجة ثم تصرخ: «اريد ان آكل. انا جائع!» واهدىء من روعك: «لا بأس عليك انني متضامن معك، ضع جوعك الى جانب جوعي وسنحظى بوجبة فاخرة».

لم نجد في المنزل ذاك المساء سوى حبة بطاطا واحدة كان التلف قد اصاب احد اطرافها... بترنا جناحها التالف وسلقناها.. ثم شطرناها في صحنين من الصيني الفاخر محاطين بشوكتين وسكينين كما يليق بالناس المتحضرين... وكانت هناك مملحة بلا ملح وزجاجة كنياك في منتصف العمر، وبعد هذه الوليمة اشتد علينا الجوع، واشتد علينا كبرياؤنا... ولا شدة الا ويعقبها فرج ما...

فرج ما... هناك دائماً فرج ما. ونحن في شدتنا الراهنة، لم نفقد الامل. قد لا يتاح لنا ان ننعم «بالملعب الذي نمارس عليه حقنا في اجادة التصويب او خطأ التصويب» الا اننا لن نفقد الامل ولو من اجل الاجيال القادمة، وحسبنا يا صديقي العزيز اننا نرسم بحبر الروح ودم القصيدة سهماً واضحاً (ارجو ان يكون واضحاً) يؤشر الى الاتجاه السليم نحو خروبتنا وزيتونتنا وزهرة برقوقنا اللاذعة...

اخوك سميح القاسم
(الرامة ـ ١٩٨٦/٦/٢٩)

خذ القصيدة عني!

[رسالة تلفونية]

● عزيزي سميح،

ما اضيق هذا النهار. نهار آخر من جدار الايام التي تتساقط علينا بلا انقطاع. رب يوم بكيت منه ولما.. الى آخر الجملة المعروفة. ترى هل سنرى ما هو اسوأ مما نحن فيه؟ لقد صحوت على رائحة حزيران هذا الصباح. ولكن بلا ضجيج. كل شيء هادىء على المشرق والمغرب هادىء وعادي باستثناء اجراءات روتينية كان لا بد من اتخاذها للمحافظة على سلامة الخطاب القومي.

لقد تعلمت الامة نعمة الصمت الحكيم وتعلم الاسرائيليون بعض التقاليد العربية وفي مقدمتها ردة الرجل الى بيت العروس. شمعون بيرس في القصر الملكي المغربي. معمر القذافي لا يصدق. لا يصدق الى الحد الذي جعله يصدق ان هذه الزيارة مخالفة لاتفاق الوحدة الموقع في وجدة!

اما جامعة الدول العربية فانها ما زالت مشغولة في البحث عن ميزانية لتشييد مبناها الجديد اللائق بوضعها الجديد.

شلوم عزيزي سميح شلوم. ولكنني لا اظن ان من حق السادات ان يفرح كثيراً فما زال في رزنامة العرب ما هو أشد سواداً.

اما لآخر هذا الليل من آخر؟ ما علينا الا ان نستعد لاستقبال ليل أشد حلكة. فان قاع هذه الهاوية ذات الشق المفتوح من طنجة الى عدن لا نهاية له، لا نهاية مرئية له. ولكن لمن الهاوية يا عزيزي لمن الهاوية؟

كنا نصفق لما ينهار من حولنا، لا علينا دع ما ينهار يواصل انهياره يبزغ البديل من بين الركام. هكذا كنا نقرأ التراجيديا الشكسبيرية بطريقة جدلية. وكانت اغنية الخراب هي الاغنية التي يزفها المثقف العربي الى ورد المزابل. ولم يكن في مقدور يد بشرية ان تسند حائطاً ينهار او توقف جبلاً يطير. ولكن هل استطعنا ان نختلف، ان نتميز، ان نتفرد وان نقف خارج هذا الشمول الرمادي؟ هل استطاع احد ان يقول ان شمول الخراب سيشملني؟ وباختصار مؤلم هل استطاع العربي ان يكون عربياً

آخر؟ وهل استطاع الجنين المتكون في هذا الرحم المريض ان ينجو من المرض؟ لا اقترح جواباً بل أطـل على صحراء.

خذ القصيدة عني يا عزيزي فقد ضاق المبدع بما يبدع وضاق الصانع بما يصنع. من أين يأتيك العسـل؟ من اين يأتيني الامـل؟ خذ القصيدة عني لانني لا اطيق الساعة خداع الجمال. ولا اطيق قوة اللغة التي تحشرنا في النفق وتفتح لها لا لنا بطولة الافق. لا اطيق قوة اللغة التي لا تغير الا علاقة صاحبها بنفسه وحين يخرج الى الشـارع لا يجد نفسه ولا يجد لغته. خذ القصيدة عنى قليلاً وحدثني عن خارطة الصحراء فها نحن نعد هجراتنا حين يؤذن لنا بالاستراحة القصيرة بين هجرتين. نعد هجراتنا كما يعد البدوي الابل والماعز. فماذا يريدون لنا وماذا يريدون منا. لقد بلغنا يوماً نسأل فيه لماذا ولدنا هناك؟ لماذا ولدنا هنا؟ ونحاكم: هل كان علينا ان نصدق تاريخنا وان نرفع للحاضر رافعة من دمنا. دمنا الذي احتاجوه يوماً لتلوين الاعلام ولتحسين سعر النفط. وحين تدهورت اسعار البترول انتهت الحاجة الى دمنا الذي صار دمـاً فائضاً عن الحاجة لا لزوم له ولا لزوم لما لا يلزم من شعب زائد. صار التخلص من بشاعة منظرنا ومن جهلنا ومن خمولنا شرطاً للحصول على الديون الامريكية.

شلوم سميح شلوم.

هل تذكر العهد الذي كانت فيه السياسة العربية تستنجد بأمريكا لتحميها من طيش اسرائيل. لقد امتد بنا الاجل لنرى كيف تستنجد السياسة العربية باسرائيل لتحميهـا من العـدوان الامريكي ومن الافلاس. لقد اجلسوا الوهم على قدميه. طوروا الوهم الى درجة الانتحار الذاتي وحولوه الى صنم للعبادة. هل بلغنا مرحلة اللا معقـول؟ كلا. لقد تجاوزنا مرحلة اللامعقول بتحويله الى معقول ألفناه وأدمناه. انظر، اذا كان في وسعك بعد ان تنظر، الى فردوس الصمت الممتد من طنجة الى عدن. واضحون كالفضيحة متساوون كالرمال حكماء كالعبيد وبلا قناع في مسرح العبث المفتوح بلا قناع. كم من قناع سوف يسقط؟ كم مرة سنقول «قد سقط القناع» لكي نرى بشكل اوضح. لا اقترح جواباً. اني اطـل على صحراء.

ويشتد علينا الخناق. الى اين يُدفع يا عزيزي بذلك النداء الفدائي الرسولي؟ الى اية بئر يرمون صرخة اللحم البشري العاري حتى من الصلاة؟ الى اين يسوقون هذا الجسد المضرج بخناجر الاخوة؟ أإلى هذا الحد تضيق الارض العربية بعشاق الحرية المتواضعين، الذين روض الواقع احلامهم فترجلت من المدى الشاهق الى مكان آمن محروس بكـل ما انجب العقل المساوم من معاهدات تحظر على الانسان ان يحلم

بصوت مسموع؟

يشتد علينا الخناق لنعود كما تركتنا الخيانة الاولى لاجئين، لاجئين كضحايا الكوارث الطبيعية، لاجئين بلا وطن، لاجئين بلا منفى، لاجئين بلا رسالة، لاجئين بلا قضية. فماذا ستكسب السياسة العربية من محاولة اعادة النهر الى الوراء؟ ومن سيحصل على حصة الاسد من هذا الجسد الغنيمة؟ وما هي مكافأة الجريمة؟

من سيكسب غير الزائر في صراعه الداخلي علينا لا من اجلنا؟ اما العرب فلن يضمنوا غير المزيد من الهزيمة. تقسيم المنقسم وتجزئة المجزأ وتخفيض سعر الدم والبرتقال مقابل هدايا القمح والقمع وازدياد التبعية. ثم ما شأننا نحن؟ ما شأننا بصراع انتخابي اسرائيلي داخلي لنزج بمصالحنا القومية فيه؟ ليس من واجبنا يا عزيزي ترشيد الرجعية سواء كانت تقليدية ام تقدمية القناع. ليس من واجبنا ان ندلها على مصالحها التي حولها ارتباطها بالغرب الى رهينة تستدرجنا لنكون رهينتها. فهل نكون الرهينة؟ ليس هذا ما يخيفني يا عزيزي. ان ما يخيفني هو الوهم والتحاق المعارضة بالنظام الى درجة اتساءل معها: ماذا اصاب لغتنا؟ لماذا تأدبنا الى هذا الحد؟ ولماذا لا تستولي الرهينة على رهائنها؟ أليس من حق الرهينة ان تفاوض؟ ولماذا نزن كلماتنا بميزان الآخرين؟ فليس من واجب الرهينة الانضباط الدقيق بقواعد الشرعية الدولية التي قضمت مطالبنا ورسالتنا وروحنا واستدرجتنا الى نفاق اخلاق الدول: سفارة هنا وسفارة هناك ولا دولة.. الارض تبتعد ونحن نبتعد عن الارض. فما جدوى الاطراف اذا توقف القلب. وما اسم الجزيرة اذا جف ا بحر. لا اقترح جواباً بل أطل على صحراء.

اخوك محمود درويش

(باريس ـ ١٩٨٦/٧/٢٢)

لن يفلت أحد من شهوتنا

● اخـي يا محمود،

مسكـين ساعي البريد المتنقل بيننا مثل رقاص ساعة اثرية. مسكين ساعى بريدنا، حمل رسالتك ـ دمعتك ـ الاخيرة، فحملته الحيرة: كيف يوصلها اليّ؟ كيف ومن اين ومتى؟ ابـواب القـارة العربية ونوافذها موصدة، مختومة بالشمع الاحمر المصنوع في الولايات المتحدة الامريكية او في ولاية اسرائيل الامريكية. يا له من ساع مسكين حقاً حمل الرسالة ودار بها على حدود الوطن العربي كلها مستغيثاً: دعوني اكمل عملي! حين قرع ابواب ساحل المتوسط الشرقي والجنوبي اطلت عليه اساطيل العم سام وخفر السواحل الاسرائيلي، وحين هتف بباب الشاطىء الاطلسي تصـدى له الـبريطانيون والاسبـان. قال اجرّب «البوابة الشرقية» للوطن العربي فأجابوه بالفارسية. ونادى يائساً، نادى على ثغور الشمال. وما من معاوية يلبي، وما من سيف دولة يجيب، وما من ابي فراس يسعف.. لم يكن هناك سوى الرجع الملول لاغنية تركية على مقام الرصد (اقرأ الرست) !

ووصلت رسالتك، اذن كيف وصلت؟

عبر كوّتنـا اياهـا. الكـوة المضاءة بسراج الدم في هذه القلعة الهائلة المهجورة المعتمة. الكوة التي كأنها (وكأنها) استغفلت الزمان فظلت مفتوحة او كأنها هي ثغرة طارئة بفعل العوامل الطبيعية. الفيضانات، العواصف، الهزات الارضية. ربما، الا ان الحارس الشيخ الذي دافع ببسالة عن هواء هذه الكوة ونورها لم يزل حياً يرزق ومن حوله سبط لن يضيع!

محمود يا اخي.

أيـة لوعـة في القلب اودعتهـا رسـالتـك؟ ان صرختـك المحشرجة: «خذ عني القصيدة»! هي التكثيف النهائي والكامل لألمنا الفلسطيني، انها النسخة المعاصرة ـ هل اقول الطبعة الجديدة؟ ـ لصرخة حبيبنا ورفيقنا يسوع المسيح: «الهي الهي لماذا

شبقتني؟» انني ابكي ايها الاخ البعيد، ابكي وانا اكتب لك هذه الكلمات، ابكي ولا اخجل، على الرجال ان يبكوا احياناً، دفعاً للخجل، احتيالاً على الحياة والتفافاً على الموت.

الهي، الهي، لماذا شبقتني؟ خذ عني القصيدة! ابعدوا عن فمي هذه الكأس! أما آن لهذا الفارس ان يترجل؟... وماذا بعد؟ اما آن لتعب السؤال ان يجزى براحة الجواب؟!

الآن يحضـر فرانز كافكا بكامل استلابه، لا يلقي التحية على احد، يقف على منصة الامم المتحدة ليلقي كلمته، تصفق له الوفود ولا يعيرها التفاتاً. انه ما زال مكباً على ذاته متأملاً ذلك الجعل البشري المقلوب على ظهره، الجعل البشري انت وانـا ونحن وهم. يلقي كافكا خطابه المرعب: «الم اقل لكم؟!» ويستدير نازلاً عن المنصة المنافقة، عائداً الى عزلته الانسانية المطبقة.

هنا يحين دورنا. نستعيد صرخة ذلك الشهيد القديم: «احمل صليبك واتبعني!». نستلهم النـظرة الاخـيرة في حدقتي سبارتاكوس المطفأتين، نحاول استكناه نأمته الفاصلة. نتشبث بصرير اسناننا. ورغم كل شيء نكتب القصيدة. ورغم كل شيء نحمـل قصيدتنـا ونتبعـه. نتبـع ذلك النور المتلألىء حتماً هناك في نهاية سردابنا الدامس. هذا السرداب لا بد له من نهاية... علينا ان نمشي فقط، نزحف، نؤمن ونقول، نقول ونؤمن، نستعيد قوانا حبّة حبّة وننهض خطوة خطوة. لا نرى النور ونراه، ينبغي ان نراه. لا خيار امامنا سوى بلوغ ذلك البصيص المؤكد في نهاية النفق المظلم. فرانز كافكا كان على شيء من الحق. اما الحق كله فالى جانبنا نحن. كافكا رأى، اما نحن فقد رأينا وثرنا، ادركنا وثرنا، آمنا وثرنا. هذا الجعل البشري المقلوب على ظهره ظلماً وغدراً وعدواناً سيستقيم من جديد وسيبعث انساناً سوياً رغم كل الوحوش المتحضرة المتألبة علينا.

لتذهب غولدة الى رغدان وليذهب السادات الى الكنيست وليذهب بيرس الى افران. ليذهبوا جميعاً حيث يشاؤون، فلن يفلتوا، لن يفلت احد من شهوتنا النبيلة الطاغية، شهوة العودة الى حيث نشاء، حيث يحق لنا ان نشاء. يستطيعون اطالة حرماننا بيد انهم عاجزون عن انهاء حقنا.

نحن، اليوم، في حاجة ماسة لانفسنا، لروحنا القديم، نحن في حاجة للايمان، ليس بمعنـاه الكهنـوتي، بل بمعناه المجرد المطلق، بالعفوية التي تلازم الطبيعة الاولى والمباشرة، بعيداً عن السّبر والتقصي. وفي منأى عن التأمل. نحن في حاجة لنارنا القديمة ـ على سذاجتها، لانها الخاص الكامن في اعماقنا مثل حبة الرمل الكامنة في اعـماق اللؤلؤة. ليكن الشعب محارتنا، ولتكن قصيدتنا عزاءه المؤقت بقدر ما هي

عزاؤنا الدائم. لقد جعلنا من لفظة: سأقاوم! شعاراً لشعب ونداء لأمة. ورغم ان اوكار الخيانة تتناسل مثل اوكار الارانب، ورغم التكاثر الفاجع في مدن العبودية وعواصم السقوط، فلا خيار امامنا سوى ذلك الذي أكدته انت وجددته قبل فترة وجيزة: اما ان نكون او نكون!

ها انذا ارتاح قليلاً، حين اكتب اليك فانني اكتب الى نفسي. ويا لها من مناورة رائعة هذه التي نتعزى بها في زمن شحّ فيه العزاء، زمن المبكيات المضحكات، هذا الزمن الذي ثرنا فيه وعليه، من اجل ان يكون زمننا نحن، وسيكون.

اخوك سميح القاسم
(حيفا ـ ١٩٨٦/٧/٢٧)

طائر على حجر

● عزيزي سميح،
حطت رسالتك الاخيرة عليّ كما يحط طائر على حجر. آنستني في برية الروح. دلتني عليّ وعلى أفق لا يبدو انه سيواصل الهروب منا الى الابد...
ولا أخفي عنك حاجتي العطشى الى اول الماء والى اول الكلام. فهذه العزلة التي كنا نحتاجها لنتأمل ما فينا من بقايا النهار هي العزلة التي نقاومها لنواجه ما حولنا من حصار.
وها أنت توقفني في المهب الحريري للخطى الاولى. كأنك تنجح في وقف البعيد عن الابتعاد. كأنك تمنع البداية من اخفاء عنوانها الساطع، وسط ركام الشك الشائع في هذه الايام.
شكراً لهذا الشمال،
شكراً لتلك البوصلة،
لقد انقطعت شهيتي عن الكتابة فجأة، لا لأن جدران المراحيض العامة هي صحافة المستقبل الحرة، بل لانني لم احترف الكتابة بعد كما لم آلف الزواج. فهل ينبغي عليَّ ان اخاف هذا الصيف الذي يدفع النفس الى الخمول، ويطلق افاعي الذكرى من اوكارها؟ ام ينبغي عليّ ان اغتصب الكتابة؟
منذ شهور، وانا أروِّض عاداتي. اصحو لأكتب. اصحو من اجل ان اكتب، وانقح حياتي من عبث كان ضرورياً حين كان يبدو لي ان في العمر متسعاً لنضج فواكه اللغة. ولكن، أليست الكتابة عبثاً أقسى في هذا الصراع الضاري مع بياض لا ينتهي؟ فكلما كتبنا احسسنا بأننا لم نكتب بعد. وكلما قرأنا شعرنا بأننا لم نبدأ القراءة.
ومن مشاكلي انني لا اكتب في الليل. لا أحب الليل ولا اطمئن الى الليل. والصباح هنا قصير. والفجر رصاصيّ موشح بحمام اسود. الحمام هنا أسود. ومن مشاكلي المهنية ايضاً انني لا اعرف الاجازة، لا اعرف ماذا اصنع بالاجازة التي يقدسها الناس هنا. لذلك، اختلف مع الصيف ولا اتفق مع الليل. تعال... تعال اذا

استطعت لنواصل هجاء الزمان والمكان ولنلعب الطاولة، ولنطهو مذاق الطعام القديم...

هل يصيبك هذا العقم المفاجىء؟ هل يجتاحك الاحساس بالهزيمة النهائية اذا توقفت اسبوعاً واحداً عن الكتابة الى درجة تنسى معها انك قد انتجت كثيراً هذا العام؟ لقد علمتني تجربتي المتكررة، في هذا الاحباط، ان ابتعد عن المحاولة. فالكتابة حرون لا تنفع معها وسائل الاغراء ان عصت. سترضخ، سترضخ. تباً لهذا الصيف. تباً للجرائد!

قلت لي انك تخاف كتابة النثر. لماذا تخاف؟ يبدو لي، يا عزيزي، ان النثر هو ديوان هذا العصر، اذا أبقى التلفزيون له باقية! وماذا لو سرق النثر شيئاً من الشعر. أليس النصُّ نصك؟ لا اظن ان النثر هو استراحة الشاعر، او فضيحته كما يقولون. فقد تتحقق الشاعرية في النثر اكثر من تحققها في القصيدة المشروطة بشكل قد يكبح جماح الجنون، هناك دائماً فائض شعري ينبجس من مكان آخر. المهم هو الا نؤجل هذا الانبجاس، فليس من الصواب ان ندخر الشعر الى ان تأتي قصيدته التي قد لا تأتي...

ايّاك، يا عزيزي، اياك ان تغربل النثر لتفصل ما يصلح منه للقصيدة القادمة، فالشعر لا يسقط في النثر بل يولد معه. وأنت أدرى من سواك بأن الشاعرية شهوة تصعب اعادة انتاجها في شروط توتر محسوب. الرغبة تصيح وتنفجر ولا تُنقل الى موعد آخر.

ضع نفسك في الريح والجنون، فليس في وسع الشاعر الا ان يكون شاعراً.

وفي الأزمات تكثر النبوءات الطالعة من كوابيس. لا تبك ان سألتك ان تأخذ القصيدة عنّي. فلمن اشكو مما اعبد؟ اما آن لك ان تعرف اني لا احبُّ الحب لاني لا احب وضوح هزيمة الحلم المتحقق. سأهرب دائماً مما يصير شروطاً للفرح. سأشاكسه كما يشاكس الطائر شجرة. ولن نشفى.. لا نريد ان نشفى من هذا الايقاع، لا لانه سلاح يصلح للسخرية من تاريخ ما خرج من التاريخ، بل لانه مرض ملازم لا يعني الشفاء منه سوى موتنا!

اكتب الي.. اكتبِ من اجلي.. لاقرأ نفسي بطريقة سليمة. وصدق حبرك المصنوع من غيمة. لقد جرّبتُ وتغربت واغتربت، فلم اجد اصفى من تلك المرآة: حجر هناك يحك جلدي وجذوع الشجر، حجر مرمي على طريق مهجور، حجر في يد طالبة غاضبة تتأهب للصراخ الاول، حجر يتجنح، حجر يتسلح باللغة، حجر من ذاكرة، حجر من نسيان، حجر من قصيدة..

اكتب اليَّ.. اكتب من اجلي لتُرشد جهات الأفق الى الجذور. لا، ليس من طبيعة

القلب ان يتلفت الى ناحية اخـرى. وليس من حق القلب ان ينفصـل عن الوجه النوراني لزهرة عباد الشمس.

كان عليك ان تبقى. وكان عليَّ ان اذهب، كان عليك ان تذهب، وكان عليَّ ان ابقى لنبني هذا الجسر، لنرفع لرائحة السريس السرية ولزهرة القندول سيرة الفضاء الذي لا يتسع لصرخة. ليس هاملت سيد الكلمات ليكوِّن حيرتنا. لماذا تضخم سؤاله الى هذا الحـد الفلكي؟ فنحن لسنـا بحـائـرين ومترددين بقدر ما نحن مذبوحون بشفرات المياه الراكدة. ولكن الادب قادر على اخفاء مذبحة شعب بسؤال فرد.

نعم، لقد اخترنا ان نكون وان نكون، وأن نشرب الكأس، كأسنا، حتى الثمالة على مرأى من ملوك الـطوائف المتحالفين مع ملوك الخرافة في حراسة القدس من قلوب تشرئب على الأسوار شجراً، وحصى، واناشيد...

نكون، او لا نكون... ألستم انتم الجواب؟

يتبلور الاطار ويتغير.. ألستم انتم الجواب؟

يرتدي الملوك بدلات الكاكي للتمويه، ويتنكر البوليس برداء القديس للترفيه.. ألستم انتم الجواب؟

معاهدات سرية او علنية، خرائط محفوظة في الخزائن ام مطبقة على الارض.. ألستم انتم الجواب؟

خناجر الاخوة ـ الاعداء، والاخوة والاعداء واضحة.. ألستم انتم الجواب؟

وليتحالف الطائفيون مع الصليبيين، ألستم انتم الجواب؟

يسرقون الدم واللسان. يبعدون المقاتلين عن حدود الارض، وينهبون الارض من الشعب. الستم شعباً في ارض، وارضاً في شعب، ألستم انتم الجواب؟

نعم، ليذهبوا الى حيث شاءوا. وان كنا نريدهم ان يذهبوا الى اقرب جحيم. هل نجا احدٌ من «لعنة فلسطين».. هل نجا احدٌ من قبل؟ ولكن ماذا نفعل بالدهشة، ماذا نفعل بلا دهشة؟ ونحن ما زلنا نقرأ تاريخ الغزو الصليبي وتحالفاته، وندهش من تمدده الآمن على السـواحـل، ومن مرارة صلاح الدين المشغول بأكثر من حرب، المشغول باستبدال الدعاء بالسيف.

لا نجد وصفاً لحالتنا ولحالتهم افضل من تلك القلاع المهجورة الدالة على الحضور والغياب، في ارض تتساقط فيها القلاع على القلاع، ويرعى الماعز على انقاضها اعشاباً لا تتوقف عن النمو..

أكثير علينا، اذاً، ان نحزن قليلاً الى ما يتكرر بلا عبرة، هذه المرة، وكأن لا شاغل للحكم العربي غير احالة أزمة الآخرين الى صفوفنا، وتحرير الأمة من المدافعين عن

الأمة؟ ألم يعد للحكم العربي من مقومات الدفاع عن النفس غير القضاء علينا، جسداً وفكرة وصرخة؟

وبـأي ثـمـن؟

بـلا ثـمـن!

ولكنكم هناك.. فأكتب لنا من هناك عن هزيمة الحرب الاسرائيلية الدائمة لفـك الارتباط بين الارض وشعب الارض. واكتب لنا عن هزيمة الاسرائيليين في محاولة فرض السـلام الاسـرائيلي على الشعب الاعزل المحاصر، ليحاط الملوك والرؤساء العرب علماً بما لا يعلمون من البديهيات...

واكتب الي.. دُلني على البسيط البسيط، على الكلمات الاولى لاغاني رعاة علّمونا الجبـال، الكلمات الاولى لعمال المطبعة الاولى. معك حـق.. معك حـق: نحن في حاجة ماسّة الى الايمان الاول، والى النار الاولى. نحن في حاجة الى «سذاجتنا». نحن في حاجة الى درس الوطن الاول: ان نقاوم بما نملك من عناد، وسخرية، بما نملك من جنون...

في الأزمات تكثر النبوءات: وها أنذا أرى وجهاً للحرية، محاطاً بغصني زيتون.. أراه طالعاً من حجر.

اخوك محمود درويش

(باريس ـ ١٩٨٦/٨/٥)

الصمت الجهوري

● العزيز محمود،

لم أجرب لدغة الأفعى، حتى الآن، جربت لسعات النحل. قد تكون مضاعفات توبيخ الضمير ألماً مماثلاً في مساحة ما، بين الافعى والنحلة. وكما تعلم فالملعونون، امثالنا، معرضون لنوبات التأنيب الضميري اكثر من قابليتهم الجسدية للسقوط في شراك الزكام (انت لا تحب الصيف وانا لا أحـب الزكام!). نحن مكشوفون لعذابات ضمائرنا الى حد الجنون والى حـد الغباء احياناً. نتصرف بأعصابنا كأنها ملكية عامة. وغالباً ما نبدو لأنفسنا تماماً كما نبدو للآخرين، مشاعاً للاجناس البشرية كلها. اذا جاع طفل في بيافرا ترانا نغرز اظافرنا في امعائنا. نحن المسؤولون عن سـوء توزيع النتـاج العـالمي ونحن أفشلنـا باهمالنا الشخصي خطط التنمية في العالم الثالث وبـرامج الامن الغذائي الدولي. واذا قتل طالب جامعي في تشيلي واذا انفجرت سيارة مفخخة في لبنان واذا اعتدت امريكا على ليبيا واسرائيل على العرب والعرب على العرب فاننا ننقض على اقرب الاشياء الينا بالضرب والركل والشتائم: نضرب معدتنا بالقرحة، نركل احلامنا بالخيبة ونهجو القصائد بالقصائد.

هل نحن مخولون؟ هل نحن مكرسون؟ هل نحن منذورون؟ لا ونعم. نعم ولا. أجل وكلا. كلا وأجل. لماذا؟ لهذا!!

اليوم في غمرة رسالتك الاخيرة، صعقتني نوبة ضميرية جديدة: فجأة ينهض بيني وبينك راشد حسين بقامته الفارعة المنحنية قليلاً عند ملتقى العنق بالكتفين وبغرته المتفلّتة ابداً كأنها راغبة في الرحيل الى مكان مـا.

يقول راشد وهو يشعل سيجارة من سيجارة: «هكذا! اكتب عـدة رسائل لأتلقى جواباً متملصاً واحداً، وها انتما تتبادلان، الرسائل واحدة بواحدة». وأرد عليه متملصاً مختنقاً بالادانة: «الحق معك ايها الاخ الغالي الا ان حبنا لك يحصى بدقات القلب لا بالرسائل». كم اخطأنا يا محمود حين تأخرنا في الرد على رسائل راشد الحبيب.

وتحضر دفعة واحدة تلك الليلة المشدودة كوتر، الليلة الاخيرة التي امضاها راشد

بيننا. حيفا، شارع عباس، شقة اميل توما الغائب في الاتحاد السوفييتي (الحاضر في ذمة التاريخ). راشد يتحدث عن استحالة بقائه في الوطن بصوت عال كأنها يحاور احداً. ونحن نواصل وجومنا بأسى احتفالي. كان ذلك كرنفالاً للحزن. واليوم حين أمر بوادي عارة يقوم راشد من بين الاموات منتصراً بالحياة منتصراً على الموت بالموت.. وأجدنا جميعاً هناك انت وسالم وتوفيق وحنا وصليبا، ولا اجد ذراعاً أرفعها بالتحية ويغرق الشارع في غشاء من الدمع ولا يعيدني الى نفسي الا الابتعاد عن سفح «مُصْمُص» والانباء اليومية عن حوادث الطرق المهلكة.

هل كانت لنا يد في مصرع راشد حسين؟ ألم يكن في مستطاعنا اطالة حياة غسان كنفاني قليلاً؟ لماذا سمحنا بسقوط عبدالرحيم محمود في معركة الشجرة؟ كيف تغاضينا عن صلب الحلاج؟ لماذا لم نستأنف ضد قرار عثمان بنفي أبي ذر؟ ألم يكن في مقدورنا ردع الموت عن فدريكو؟ لعلنا تساهلنا مع الاسخريوطي اكثر مما ينبغي؟

انها أسئلة جادة. ولا اريد اجابة من اساتذة التاريخ. ولا اريد اجابة على الاطلاق. لا اريد للحزن ان يتشكل ولا اريد للغضب ان يتموضع! حسبي ذلك الصمت الجهوريّ الذي تختزنه القصيدة.

ايها العزيز محمود،

كانت رسالتك الاخيرة اشبه بنهنهة طفل خارج لتوه من البكاء. انت الآن في حالة نفسية افضل. الى متى؟ الى المفاجأة اليعربية القادمة. لقد حصلت انا على مفاجأتي الخاصة قبل فترة وجيزة حين قرأت في احدى الصحف التي تصلني متأخرة جداً ان أخانا العقيد معمر القذافي قرر تغيير اسماء الشهور. حسناً، انها رغبة ملحة في تغيير واقع الزمن، الا ان ما حدث فعلاً لا يتعدى تغيير شكل الزمن، اطاره، مقياسه. هذه الواقعة تعيد الى الذهن واقعة مماثلة. عزّ على اتاتورك ما اكتشفه في شعبه من تخلف، فانقض على العمائم واستبدلها بالسلندر وانهال على اللحى واستبدلها بالآفترشيف وماذا كانت النتيجة؟ أتيح لي قبل اعوام ان اقوم بجولة في ربوع آسيا الصغرى، وكنت اردد في دخيلتي بين قرية واخرى: «أتاتورك اتاتورك دع لي لحيتي!».

لا يقلقك تحفظي من النثر، فهو كما يبدو تحفظ ذهني يشكل تساؤلاً اكثر مما يشكل موقفاً. وهو قائم على القناعة بأن عملية الكتابة، أية كتابة: القصيدة، الرسالة، الخبر الصحفي، المقالة، الاهداء الخاص على كتاب تهديه انساناً عزيزاً عليك، كلها تستهلك طاقة ما من المخزون المتراكم في حالة الكتابة وأعني بحالة الكتابة، تلك الحالة التي يتغير فيها وضعك النفسي والجسدي معاً، تنتابك غيبوبة ما، ترتفع حرارتك قليلاً، ترى ولا ترى، تسمع ولا تسمع، ولا ينقذك من اختلال

التوازن الطارىء سوى ذلك الاندغام الكامل بين روحك وجسدك وقلمك والورقة الساحرة المستلقية بين يديك مثل امرأة والهة تصيح: خـذنـــي!

بـلى، يصيبني «العقم المفاجىء» احياناً. ذات مرة استمر شهوراً بكاملها. استحوذ عليّ رعب لا يوصف. لعله الـرعب الذي يكتسح انساناً كاشفه الطبيب بأن داء السرطان لن يمهله طويلاً. لم أجد السلوى الا في حكمة تلك النبعة الجبلية في كرم الزيتون الذي اشارت اليه احدى رسائلك السابقة. انها تحتبس عاماً واكثر لتعود وتتدفق من جديد في موعد غير متوقع ولا يقدر إنسيٌ على حسبانه.

حصلت في قبرص على نسخة من مجموعتك الجديدة «هي اغنية.. هي اغنية»، وكان طبيعياً ان يعجبني فيها ما لا يعجب النقاد الالترامودرن، اعني الشعر، الشعر الحقيقي بلوعتـه البكـر وفرحه الطازج وغنائيته المفعمة بالدم والحبق والشمس. وخيّل لي يا محمـود انني وقعت في احـد مطبات القراءة. حين بدا لي ان القصيدة، منشورة في صحيفة او مجلة، ليست هي نفسها حين تتداخل مع شقيقاتها في مجموعة شعرية خاصة. قد اكون مخطئاً لكن لِمَ لا اكون ايضاً على حق، فالانسان، منشوراً في المجتمـع، ليس هو نفسه حين يتداخل مع ذاته في ركن خاص. أليست القصيدة شاعراً؟ أليس الشاعر انساناً.

اكتب لك هذه الكلمات في الرامة. تجاوزت الساعة الثانية بعد منتصف الليل. ثمـة كلب ينبح في طرف القرية الشمالي الشرقي. لعل شاباً يعود الآن من منزل خطيبته الى بيته وقد يكون عليه ان يستيقظ في الفجر ليذهب الى عمله. انه الليل، ليلنـا الجليلي الرائع. كم اخشى ان تضيع مني لحظة من فضائه الممتلىء بالدهشة العامر بجلبة الصمت. هذا الليل الجبليّ الوعر الحاوي المكتظ، اتوجه ملكاً على احلام يقظتي ويكرّسني كاهن الاعتراف: يجثو امامي على ركبتيه ويبوح لي عبر حجاب من اجفاني المثقلة بكل ما في روحه من أسرار.

انت لا تحب الكتابة في الليل. لا بأس، لعله قدر علينا ان نتناوب الانفجار.. حين تخمد اصابعي على القلم في تهويمة الهزيع الاخيرة تقرع ما بين صدغيك نواقيس الفجر، فتنهض الى الورقة الساحرة المستلقية بين يديك مثل امرأة والهة تصيح: خـذنـــي!

أخوك سميح القاسم
(الرامة ـ ١٢/٨/١٩٨٦)

بيت من هواء

● عزيزي سميح،

أصحـو لك من النـوم لأودعك برسالة. كانت زيارتك قصيرة، قصيرة كتحية البحـارة. رافقتك السلامة، يا عزيزي، رافقتك السلامة. ولا تقلق عليَّ، لا تقلق عليك، لا تقلق على احد، لتواصل هذا التماسك النبيل.

أحدّق في الساعة لأعرف انك قد وصلت الى بلادك الآن. هل بدأ الاستجواب؟ هل يحق لك ان تقابلني بعد صدور القانون الجديد؟ وهل يفكرون بسن قانون آخر يمنع تبادل الرسائل مع اعدائهم الذين يريدون لكم ان تكونوا اعداءهم؟... معقول.. لا معقول. كل شيء مفتوح على اللامعقول. الى متى اغبطك؟ الى متى تغبطني؟ والى متى تدعوني الى مقايضـة الحنين بالكتابـة.. الى مـتـى اتـدفـأ مـن الكلام بالكلام؟

... تعـرف ماذا اصـابني أمـس. هو ما يُصيبني السـاعـة. قـل لـي: من اين استوردت هذا السلام مع النفس؟ من اين نهلت نعمة المحافظة على المسافة اللازمة بين حركة الواقع الانقلابية وبين ثبات المثال؟

على قلق أنـا، على قلق... احوم كالنحلة الملعونة، ولا اريد لعسل الكتابة ان يُغريني بالهتاف لمصادر الشقاء العام والشخصي الذي يُغدق علينا ايقاع السحرة. كفى هوساً! فان بيتاً واحداً من خشب او قصب او حجر خير لي من مباني هوميروس ودانتي وابي تمام. لهذا صرخت في المرآة: آن للشاعر ان يقتل نفسه. لا لينتحر، كما يظن الصحافي الباحث في القصيدة عن خبر، بل ليكف الانسان فيه عن تحويل الدم الى ورد، وعن تجميل الرماد... وليفضح السعادة، السعادة المضللة المضللة الناتجة عن أمـل لا فكاك منه بابداع عالم، مواز ومضاد، لعالم ينهار فينا وفيه. ولنوقف الاتهام الـذاتي: أتمـوتُ النـاس لتحيا اللغة!.. ولتتوقف الجثة فينا، جئتنا كما قلت، عـن الـرقـص الاحتفالي..

ولكن، ماذا يحدث.. ماذا يحدث لو تركنا هذا الموت الماطر بلا شاهد وبلا جمال

دفاعي، لو ابقيناه ميتاً بيننا يمجد الآخرون موت ورقة من شجرة؟. ماذا يحدث لو تركنا هذا اليأس العابث في حياتنا بلا قوة ابداع تحوله دلالاتها الى أمل؟. ماذا يحدث للفجر بلا وتر جيتار؟. وماذا يحدث لك اذا لم تُخرج ما فيك من زهور ليلك؟

تركت فيَّ مذاق مرارةٍ وغياب. اصابني هذا الصباح ما اصابني امس من بلوى ضعف حين اوصلت الصبيتين، ابنتي اخي، الى المطار. جميع الركاب عائدون، عائدون، عائدون بأكثر من لغة، بما فيها العبرية، عائدون الى ما ليس لهم، عائدون الى ما هو لي، عائدون الى صنوبرتي وسريري. وانا ممنوع من التفكير بالعودة... وممنوع من الرغبة في العودة.

ماذا اصابني، يا عزيزي، لماذا اعود الى اكتشاف البسيط؟ لماذا يجرحني بسيطُ البسيط؟ لماذا اتذكر انني قد نسيتُ البسيط؟ لماذا يحتاج البسيط، هذا البسيط بسيطنا، الى خارق ومعجزة والى حرب عالمية؟. ألأنني كبرتُ دون ان أدري. ألأن الطفولة التي كبرت في غيابي دلتني على ان الكلمات ـ مهما كبرت واتسعت واشتدت ـ لا تنجب طفلاً من لحم ودم، وانه لا بد للطفل من ام؟ وانني في حاجة عضوية ونفسية الى من اصب له الحليب والشاي في الصباح؟ وانني في حاجةٍ الى من اعود اليه في غرفة في فندق؟

ان تكون معي.. ان يكون احد من افراد عائلتي معي.. ان يكون احد من اصدقائي القدامى معي.. هو الدليل الاخير والوحيد على انني موجود. ماذا دهاني؟ الى هذا الحد تحتاج القربى والصداقة الى تاريخ وامهات وسجون قديمة.. الى جذور وذكريات؟ ألهذا نمرُّ اليوم، على الناس والاشياء والمدن، مرور الممثلين الهواة على خشبة مسرح عابر؟

ألهذا مات راشد حسين؟

انا ايضاً يعضني ضميري. وانا ايضاً احد الذين يحملون انفسهم المسؤولية عن العزلة التي غرق فيها راشد. نعم يا عزيزي.. نحن مسؤولون ـ بما يعنيه الشعر في جدل الاخضر والخنجر ـ عن موت الشعراء والانبياء. نحن مسؤولون عن طلوع القمر على قصور القتلة. نحن مسؤولون عن مصرع فيديريكو غارسيا لوركا وراشد حسين. كان علينا ان نفعل شيئاً لانقاذ رأس الحلاج. ولكن، ماذا سيُصيب سؤالنا لو ادركنا اننا عاجزون عن اللقاء في حيفا لمنع راشد حسين من الرحيل الى نيويورك ولمنعي من السفر الى المجهول؟

مزيد من الخلوة في الحمّام لحجب الدموع عن الاصدقاء والاعداء. تلك هي المسافة، لا القطيعة، بين ما نريد وما نستطيع..

لقد انكسر راشد، كا ينكسر السرو العالي، في المعركة اياها التي كرست فيها الصهيونية الليبرالية بعض منابرها مواقع للدفاع عن القومية العربية!! وحين انتبه راشد حسين، القومي البريء، الى التناقض بين الموقع والموقف كانوا قد سحبوا منه المنبر وعلقوه على الهواء..

كان يكتب الينا من نيويورك باكياً. وكان صليبا خميس، الصديق الوفي، يحث الاصدقاء على المراسلة. هل كنا كسالى، ام كنا نفتقر الى حاسة المنفى وحاجة المنفيّ الى جسـور معنوية، ام كنا نغبطه لانه متحرر هناك من قيود الاقامة الاجبارية والسجون، أم كنا مشغولين في معارك الدفاع عن حقنا في الهواء؟ لا اعرف. اسئلة تحفر فينا الندم. لقد جرحناه بذلك الاهمال الصبياني البريء، على الرغم من انه كان صديقنا ومثالنا. هل كانت نيويورك، الواسعة في السينما، ضيقة على راشد الى هذا الحـد؟

من هناك، اتصل بي عندما كنت مقيماً في القاهرة. دعوته الى زيارتي فلبى الدعوة بطيبته المعروفة. أوقفوه اربع ساعات في المطار. وحين افرجوا عن قامته الفارعة، وعانقته مداعباً خصلة شعره الشاردة، قال لي: اسمع! قلت: ماذا؟ قال:

واقفٌ كلي مذلة في مطار القاهره
ليتني كنت طليقاً في سجون الناصره

قلت: من منا لم تستقبله هذه الحسرة؟ ذاهبون الى بلاد الاحلام ليدفعنا اول شرطي الىٰ بئر الخيبة. طأطأ شغفه وواصل العناق. وقلت لأواسيه: حدث لي ذلك على الحـدود السورية ـ اللبنانية في اول زيارة لدمشق بدعوة رسمية من وزارة الثقافة، حين وجد حارس الحدود اسمي مدرجاً على اللائحة السوداء.

في القـاهرة، استعاد راشد حسين عافيته المعنوية تدريجياً. جمعته بجميع ادباء مصر. فرح بهم. فرحوا به. قرأ شعره لجمهور الشعر. أدلى باحاديث صحفية طويلة اعادته الى سياقه الادبي. دعاه حسنين هيكل الى الكتابة في «الاهـرام». قرر الاقامة في القاهرة. سافر الى دمشق. قرر الاقامة في دمشق. اختلف مع بعض الاصدقاء القدامى الذين تغيروا ـ كما قال ـ ثم عاد الى نيويورك ليبحث عن نفس لن يجدها..

كان متعبـاً، ويُغيِّب ذاته. لقد ضاق الامام. وحين كان يلتفت الى الوراء كان الوراء يبتعد مهما سلط عليه الذاكرة. لم يجد ما يشغل به منفاه، ولم يكن الحنين مهنة كافية، ولا شعر عربياً في نيويورك الفاتحة معدتها لابتلاع الامم والثقافات. لماذا لا

تعود؟ اسأله. فيقول بصوت يتلاشى الى البعيد البعيد، بصوت فاتح الغموض: ليتني اعود، ولكنني تورطت في المنفى.. تورطت الى درجة اسأل معها نفسي: ماذا سأفعل هناك.. ماذا سأفعل؟

وكنا نراه، كل عام، في نيويورك. يأتي الى فندق «بلازا» ليأخذ الوفد الفلسطيني كله الى شقته الصغيرة لتناول «المجدرة». كانت هذه الوجبة احد التعابير عن هويته الوطنية. «لست غريباً الى هذا الحد.. لتجد فيها جذورك» كنت امازحه. وكان يلح. كان يتقن طهوها، ويجرحه اي اعتذار. راشد حسين لم يهاجر. لم يخرج من مصمص. لم يعرف نيويورك. ولم يطور لغته. اراد ان يبقى كما هو. ومن حوله تمرّ الايام والتيارات والامواج والشعوب. وهو هو.. حارس الحنين والذكريات. وهو هو.. هناك: الشاعر الذي جـر لغة الشعر الفلسطيني من الخطاب الايديولوجي الى واقع الحياة اليومية والى انسانها البسيط: الفلاح، العامل، اللاجىء، العاشق، والفدائي...

فلماذا لم نكتب اليه بعض الرسائل، لماذا لم نكتب الى كولونيل روحنا المتقاعد؟ لماذا لم نشغله ببناء الجسور والمواعيد، لماذا تركناه وحيداً.. وحيداً في نيويورك؟

صديقـه «هادي الطرن» معذب الضمير. قال لي: انا ايضاً مسؤول عن موت راشد. كنت آخر من رآه. ذهبت الى شقتي وذهب الى شقته. في الليل ناداني. ألح عليَّ بأن اذهب اليه. رفضت. قال لي انه محتاج الى من يشرب معه ويتكلم معه. قلت له اني متعب. وتركته.

صديقه هادي يبكي الآن: ليتني ذهبت اليه.. ليتني ذهبت. لقد انقضّ عليه الليل. توغل في العزلة المطلقة. وكان وحيداً في بطن الوحش. كفر بكل شيء. اشعل النار في أشرطة سجل عليها شعره، فاختنق بدخان قصائده..

اختنق راشد بدخان القصائد...

كان انقاذه ممكناً، لو وجد من يؤنس وحشة روحه في مدينة وحشية. كما كان انقاذ ماياكوفسكي ممكناً لو جاءت اليه صديقته، او احد اصدقائه ليلعب معه الورق. كذلك كان من الممكن انقاذ معين بسيسو في غرفة الفندق لو كان الى جانبه احد.

لا احـد..

كان من الممكن انقاذ الكثيرين لو كانت هنالك يـد، او رسالة، او سبب للحياة..

لا احـد..

فهـل سنجد من ينقذنا، يا عزيزي سميح، هل سنجد من ينقذنا لو تخلينا عن الشعر، لو خجلنا من تحويل الدم الى ورد؟

انقـذني من سطوة هذا الحنين. انقذني من شماتة هذا المطار الذي يوصلكم الى بيوت من حجر، ويوصلني الى بيت من هواء!

اخوك محمود درويش
(باريس ـ ١٩٨٦/٨/٢٥)

الـملاك

● اخـي محمود،
لو أعلم فقط، لو أعلم من اين هذا الثلج كله... نديف هائل عبر النافذة، أسأل صحفياً شاباً في جريدة «الاتحاد» التي عدت اليها كما يعود العاشق الى حبه الاول او كما يعود المجرم الى مكان جريمته، بلغة دوستويفسكي، اسأله وهو يضع خبراً جديداً على مكتبي: هل من ثلج على نافذتك؟
يفزع قليلاً ثم يبتسم بارتباك ويجيب مشككاً فيَّ وربما في نفسه ايضاً: «لا.. لا ثلج على نافذتي».. ويعود الى عمله متلجلج الخطى يائساً تماماً.
يتراكم الثلج على نافذتي ويغيب ميناء حيفا قليلاً قليلاً مثل سفينة تهب نفسها للضباب. وتنقطع صلتي البصرية بالعالم الخارجي.
يُقرع الباب برفق ويدخل بكل هَبَلِه وأناقته صديقنا القديم اوسكار وايلد.
ـ ماذا تشرب يا اوسكار؟
ـ قهوة تركية من فضلك.
لم تكن القهوة قد حضرت بعد حين قلت له باحترام شديد:
ـ يا عزيزي اوسكار. الآن وبعد العندليب والوردة تستطيع الذهاب الى موتك بهدوء. لا تبدد وقتك ووقتي.
ولم ينتظر صديقنا القديم طويلاً، نهض بأدب جم وذهب الى موته.
كم اشتهي عندليبي ووردتي. كم انا في توق جامح الى سفر اخير نحو المحطة الاخيرة. أرهقتني الفوضى، أرهقني الرحيل في الاقامة والاقامة في الرحيل.
تسألني: من اين استوردت هذا السلام مع النفس؟
حسناً، سأبوح لك بما اعتبرته دائماً شأناً موغلاً في الخصوصية. انا يا صديقي احترف احلام اليقظة وامارسها بإدمان. اخلط العالم مثل اوراق الشدة واعيد ترتيبه على هواي. واحتفظ في جيبي بقلم يبدو في مظهره الخارجي قلم حبر عادياً من طراز «شيفرز» او «باركر». بيد انه قلم سحري، صوبته ذات يوم باتجاه سفن الاسطول

السادس الراسية في ميناء حيفا، وحين ضغطت على النقطة السرية في وسطه تفجرت السفن واحدة تلو الواحدة. وليتك شاطرتني المشهد الرائع، مشهد المدمرات وحاملات الطائرات المشتعلة الغائصة في اعماق البحر مثل اسماك القرش الممزقة بقذائف الآر. بي. جي.

وبعد الاعتداء الامريكي على ليبيا استدعيتُ رونالد ريغان (رونالد او رولاند؟ لا اذكر) استدعيته الى مكتبي في وادي النسناس فحضر على الفور ولم اسمح له بالجلوس قبل ان افرغ من كلامي. وقد وبخته وفركت اذنه وأنذرته بالفلقة اذا هو عاد وكرر اعمال الزعرنة.

وبأحلام اليقظة أعدت الوحدة الى صفوف منظمة التحرير وفرضت الوحدة العربية الشاملة وفقست الكرة الارضية مثل بيضة وأعدت بناءها من جديد وفق هندستي الخاصة ووزعت غاباتها وانهارها وصحاريها بالشكل المناسب. وبأحلام اليقظة أبكي وبأحلام اليقظة اضحك، واعيدك الى الوطن لنصل ما انقطع ولنكمل نشيدنا الناقص.

ثمة مصادر اخرى للتماسك ولتحقيق السلام مع النفس، فبعض الناس يتخففون من اوزارهم بالقائها جزافاً على عاتق الله سبحانه وتعالى وكأنه موظف صغير في حوانيت آبائهم او حراث مياوم في حقول اجدادهم. وتراهم يخلطون بين فريضة الزكاة والملايين التي يبذرونها على موائد القمار وارداف الراقصات في نوادي اوروبا الليلية. هي البلادة بعينها الا انها على اية حال ضرب من ضروب التماسك والسلام مغ النفس. وحين ترى الى الواحد من هؤلاء فانك تحس برغبة شديدة في اطلاق رصاصة بين عينيه مباشرة، بيد انك تتراجع على الفور لانك لا تستطيع التأكد من ان الرصاص وحده قادر على ازهاق مثل هذه القاذورات البشرية.

وفي الحالات كلها يظل ماثلاً امامنا ذلك المصدر الانبل والارقى للتماسك وللسلام مع النفس: «فهم الضرورة».

فهذا التعبير المتحول مع الحياة من مقولة ماركسية علمية محددة الى موقف حضاري ومسلك وجودي، يختزن قدراً هائلاً من مبررات استمرارية الحياة على علاتها.

لا اريد ايها الاخ العزيز ان أُسيء الى احد. ذلك ان الاساءة الى الآخرين تؤلمني اضعاف ما تؤلمهم (هذه احدى نقاط ضعفي.. او قوتي.. لست ادري!).

لا اريد الاساءة الى احد، غير انني على يقين من ان ماياكوفسكي لم يدرك جوهر «فهم الضرورة» ولذلك اقدم على الانتحار. ولعل ملاك «فهم الضرورة» رفع جناحه

عن «يسينين» فرفع يده على روحه وخسر مرتين: خسر المعرفة وخسر الحياة.

ايها العزيز محمود.

بيت من حجر؟ هذا صحيح

بيت من هواء؟ وهذا صحيح.

الا ان بيتنا نحن المنذورين المقربين بمشيئة الدنيا والآخرة، هو البيت الآخر؟ تحت الحجر وفوق الهواء، بين الظلمة والنور على حدود النار والثلج، ذلك البيت الذي لا يلج اعتابه بشر سوانا، الضيق الرحب المعتم المضيء الدافىء الرطب البارد الجاف. ذلك هو بيتنا الاول والاخير. اما كل ما عداه فليس سوى محطات على الطريق. وكما اخبرتك ذات يوم فمنذ تزوجت تزوجني التفكير بضرورة بناء بيت جديد للاسرة القادمة. ليس لي بل لأسرتي التي لا تستطيع مشاطرتي نعمة الاقامة في بيت الشعر المدهش. كنت سأكتفي بالعقد القديم في المنزل الذي تعرفُهُ وكنت سأبتهج بكهف على سفوح «حيدر» او خيمة على كثبان «النقب». وكيف يؤاخي المرء بين طموحه الخاص و «حركة الواقع الانقلابية» التي تشير اليها في رسالتك؟ هنا يُقبل الملاك المخلص. ملاك «فهم الضرورة».. مُتوجاً بهالة من حكمتنا العربية القديمة: «للضرورة احكام».

أنذا أرى نفسي الآن بصورة اوضح من صورة الأمس. كيف ترى صورة نفسك؟

أكتب إليّ. أكتب إليك.

أخوك سميح القاسم

(حيفا ـ ١٩٨٦/٩/٢)

... والدكتاتور

● عزيزي سميح،

ساعات ما بعد الظهر. ضوء. سماء زرقاء. ضوء يتلألأ على اوراق الشجر. ضوء يتسرب الى النفس. ضوء من ضوء، لا من موسيقى موزارت ولا من رواية فوكنر. ضوء ضوء...

لعل اول الخريف هو احد هبات الطبيعة الجديرة بالمدائح. تشدُّ الشجرة قامتها لتشكر هذا البهاء كامرأة تشكر الرجل. شجرة، امرأة، قصيدة يونانية صافية. وفي وسع الحمام، المصاب صوته بالربو والزكام، ان يطير على هذا الضوء الثابت، وان يطمئن الى سماء العودة، في وسعه ان يكف عن الهديل.. ضوء.

واحسُّ برغبة في التعبير عن فرح طارىء، مجاني، غامض. ما أشد سعادة المرء حين لا يودع احداً، ولا ينتظر احداً. كأنه لا يصحح بروفات كتاب. أمن مثل هذه العناصر البسيطة تتكـون السعادة؟.. وجرس الهاتف لا يرن، فما اجمل هذا الكسل! اغلق رواية «اسم الوردة» للايطالي إيكو، واترك نفسي لفراغ لذيذ.

لا افكر بشيء يُخرب القلب. واغبطك وانت جالس على صخرة البداية ـ الى متى تبقى البداية بداية؟ ـ سعيداً بشوكة اوسكار وايلد التي تحيل دم العندليب الى وردة، هارباً من «سالومي» ومن اضطراب مؤلف «صورة دوريان جراي»، وقابضاً على التعريف المادي الاولي للحرية: «هي وعي الضرورة»، ومسلّطاً احلام اليقظة على اساطيل البحر الابيض المتوسط... والى متى تبقى البداية بداية؟

ولكن هل استطاع امرؤ القيس فينا ـ يا عزيزي ـ امرؤ القيس الذي لا تحبه ان يوقف المذبحة وان يسقط الطائرات؟ او هل استطاع، على الاقل، ان يمنع سواه، ممن ساروا على دربه، من اللحاق بقيصر، على الرغم من انه ادرك الخيبة منذ البداية ونبّه السائرين الى ان صاحبه قد بكى...! لا تظلم امرأ القيس، يا صاحبي، وان وضعه المستشرقون مع السموأل الركيك لاسباب لا تعنيه!

رتِّب العالم على هواك، ايها الشاعر القادر على الاحتفاظ بكل بداية، ومنها وهم

الشـاعـر ـ أعني قوتـه ومبرره ـ في تغيير العالم واستبدال فوضاه بنظام الصورة والايقاع. واسلم من الثلج القادم من النافذة. نعم، هناك ثلج لا يراه فتى وجهت اليه السؤال. هناك ثلج.. ثلج نحسُّ به ولا نريد ان نراه..

وهذا حسن. هذا افضل من الدفء الرخيص، المبتذل الى حـد وصف الثلج بأنه دافىء، ساخن، لاهب. فالثلج ثلج يستمتع بمشهده العباد، عبر الزجاج، وهم جالسون في بيوت دافئـة، الا يشبـه هذا اللؤم المنـافق لؤم المتفـرجـين علينا، عبر الزجاج والنـظريات، وهم يستمتعـون بالـدفـء والنصـر؟ ونحن.. او بعضنا يتلقف الآهة الضرورية لتحسين الصورة، ونبني عليها، او منها، تخطيطاً أولياً لتأسيس جمهورية افلاطونية!

هل أسخـر؟ أسخـر كثـيراً. فالسخـرية وهي البكـاء المُبـطن خير من دمـوع الاستعطاف، لان الاجل قد امتد بنا الى ما دون أرذل العمر، الى يوم نهبُّ فيه لمواساة القاتل بما حلَّ بـه من مصاب، هو تأنيب الضمير، حين اتقن لعبة البكاء الالكتروني على ضحايانا، فكدنا نقول له: اغفر لنا موتنا على يديك.. اغفر لنا اننا سببنا لك بعض الازعاج!..

اضحك، يا ولدي، اضحك. فليس في وسعنا ان ننساق في لغة الحزن اكثر مما انسقنا، فلنوقفها بالسخرية، لا لأن السخرية هي «اليأس وقد تهذب» كما يقولون، بل لانها لا تثـير الشفقـة، ولانها تنزل القاتل من منزلة الفكرة المجردة، السلطة المـطلقة، الى «انسانية» تتعارض مع انسانية البشر ومع الطبيعة الانسانية، الى «انسانية» مضحكة بقدر ما هي مرعبة...

هل تعرف ماذا يُشغلني في هذه الايام؟ انه الدكتاتور، نقيضُ ملاكك.. الدكتاتور.

اني مشغول بالدكتاتور الى درجة عيَّنتُ معها نفسي كاتباً لخطب الدكتاتور!!. ما اصعب هذه المهمة، وما أشدُّ ما تثيره من متعة حين نعي انها لعبة أدبية. سأواصل كتابة خطب الدكتاتور، أليس هذا مسلياً؟

هل تساءلت يوماً عن خلو الادب العربي الحديث من شخصية الدكتاتور؟ ألأن ملامحه لم تتبلور، بعد، في وعينا، ام لاننا نخلو من طفل اندرسوني البراءة يشير الى عُرْي الملك؟. لقد فسر الكولومبي غارسيا ماركيز اهتمام الرواية الامريكية اللاتينية بشخصية الدكتاتور بقوله «ان الدكتاتور هو الشخصية الاسطورية الوحيدة التي انتجتهـا امـريكـا الـلاتينية». أمن الضروري ان يتحول الدكتاتور العربي الى شخصية أسطورية لتنتبه اليه الرواية العربية الحديثة، ام اننا نحتاج الى شروط اخرى لتعامل اكثر واقعية واقل تجريدية مع سؤال السلطة؟

الدكتاتور فينا حد التماهي، شخصاً وفكرة. الدكتاتور في نسيج حياتنا، بأسلوب آسيوي كما يقـول الاستشـراق، سواء كان الدكتاتور «معبود الجماهير» ام «عدو الجماهير» ولكنه ما زال مغلفاً بالتجريد، لا احد يعرفه، لا احد يراه، مخبأ بأغلفة سميكة من الكوادر والمصالح والاقنعة، لانه مشغول بتأمين مستقبل مزدهر للامة تارة، ولانه مشغول بتفكيك الامة واعادتها الى مصادر تكونها الاولى تارة اخرى، ولانه دائماً متأرجح بين المصطلحات الايديولوجية المرنة وتوزعنا التلقائي والقسري على خنادق اوهامنا. الدكتاتور حولنا، بيننا، فينا.

حين انتهيت من قراءة رواية الغواتيمالي العظيم استورياس «السيد الرئيس» انتـابني شعـور غريب وملتبس: شعـرت انني انتهيت من كتابتها لا قراءتها. كم تسحرني هذه الرواية المدمرة التي لا تُظهر الدكتاتور في اكثر من صفحتين. ولكنه منتشر في نسيج الخراب النفسي، والتدمير الذاتي، والموت الاخلاقي، الذي أشاعه في من يعملون معه، وفي تغييب الحد الادنى من العلاقات الانسانية حتى بين افراد حاشيته، وفي تحويل القلب البشري الى خِرقة..

وبالمناسبة، لم افهم لماذا استُدرج صديقنا ماركيز الى القول ان هذه الرواية «رديئة جداً» رداً على قول استورياس ان ماركيز «مجرد كاتب امثال». لعل هذا التراشق بالانكـار والضغينة هو احد آثار التخريب النفسي التي اشاعتها الدكتاتورية في امـريكـا الـلاتينية حتى على مستوى العلاقات بين الادباء الذين تفشت فيهم الدكتاتورية الادبية وهم يقاومون الدكتاتورية العسكرية.

الـدكتاتور يتلاعب بمصائرنا، فلم لا نلعب بشخصية الدكتاتور بتحويله الى مضحك، كما كنا نسخر من الحاكم العسكري الاسرائيلي بتحويله الى مجرد خواجه في مطلع حياتنا الادبية والسياسية. هل تذكر تلك الايام؟ هل تذكر زاوية «من وحـي الايام» في جريدة «الاتحـاد»، التي تألب على كتـابة قصائدها الساخرة حنا ابو حنا وتوفيق زياد وسالم جبران؟ لماذا توقفتم عن السخرية، واحتكرها شيخ شبابنا اميل حبيبي؟. وانت.. انت ألم تكن لاذعاً ورائعاً حين دفعت قرقاش الى تعيين وزير للفرح ووزير للحزن لا تفرح الناس ولا تبكي الا بأمر منهما، او لعلهما هما اللذان يفرحان ويبكيان نيابة عن الشعب!

... والدكتاتور يعيش في حياتنا، ويصوغ اسطورته التدريجية. هل خطر لحاكم امريكي لاتيني ان يُسلّط صورته على القمر بالاشعة ليؤمن الناس بنبوءته عندما يرون وجهـه طالعاً من القمر. كما قد يفعل حاكم عربي؟ أفي وسعنا ان نواجه هذه الظواهر الساخرة بغير السخرية؟

حين باشرتُ كتابة خطاب الدكتاتور الاول «خطاب الجلوس» كنتُ أنوي كتابته نثـراً. ولكن امتلائي بالسخرية جرني الى الايقاع. ورغبتي في الضحك جرتني الى القافية. لماذا تثير القافية الضحك الى هذا الحد؟ ألأنها تسلط الحواس على النتوء، ولأن الدكتاتور نتوء في الطبيعة؟ لا اعرف تماماً. ولكن الانسجام في غير موضعه يثير السخرية. والانضباط في موقف فوضوي يثير الضحك. أليست القافية هي اعـلى تجليات الانضباط؟. وهكذا رأيت ان من المضحك اكثر ان استخدم قافية واحدة لكل «خطاب الضجر» وهو الخطاب الثاني من سلسلة خطب الدكتاتور التي لا اعتبرها، ولا اريد لاحد ان يعتبرها قصائد، بل خطباً موزونة!..

من هو دكتـاتـوري؟. انـه مجمل خصائص الحكم العربي الفردي الاستبدادي المجافي للطبيعة، والمتجسد في حكام يتداخلون في بعضهم تداخل الصفات العامة المشتركة في فرد، دون ان احدد ملامحه الشخصية المميزة، لان ذلك قد يعرضني الى خطر استثناء آخرين، وقد يعرضني ايضاً الى مخاطر الهجاء.

وقد تسألني عن مصادر «انسانية» الدكتاتور: هل هي تعاطف خفيّ مع ما يعانيه الـدكتـاتور من اغتراب وعزلة وحرمان انساني؟ ام هي تضخيم عنصر تشابه مع الذات لحظة تضخمها؟ ام هي افتتان خجول بسلطة تتقاطع مع سلطة الكتابة؟

لعل مصدر الالتباس الذي تبعثه هذه الاسئلة هو ان على الكاتب ان يتقمص شخصية موضوعه. ومن شروط هذا التقمص الا يُحوِّل الدكتاتور المخلوق من لحم ودم الى آلة، فهذه الآلة تصلح لعمل الكاريكاتور لا للادب الساخر الذي يشترط مستوى انسانياً. ولعل انسانية الدكتاتور هي نتاج تدخلنا وشرطها لاعادة انتاجه أدباً من ناحية، ومن ناحية اجتماعية ـ فان الدكتاتور هو من نتاج البشر، ولو كان تشويهاً لطبيعتهم البشرية!

امـا الجانب الشخصي الذي لاحظته، يا عزيزي، وهو المشترك الضروري بين المؤلِّف والمؤلَّف، فان هنري برجسون يفسره في دراسته الشهيرة عن الضحك بقوله: «مهما يكن الشاعر الهزلي قوي الرغبة في استجلاء مضحكات الطبيعة الانسانية، فما احسبـه يمضي الى البحث عن مضحكـاته هو. ولنفترض انه اراد ذلك، فلن يستطيع الوصول اليها، اذ لا يُضحِكُ في المرء الا الجانب المحتجب عن وعيه من شخصيتـه. ولـذلك فان الملاحظة في الملهاة تجري على الآخرين، ومن هنا تتصف بالعمـومية. وهـذا ما لا يتوفر لها حين تجري على الذات. لانها وقد استقرت على السطح لن تبلغ من الاشخاص الا غلافهم. وعند الغلاف يتماس الناس، ويكون من الممكن ان يتشابهوا»..

لنضحك قليلاً مع الدكتاتور وعلى الدكتاتور. ومهما كان الاختلاف الايديولوجي بين انواع الدكتاتورية صحيحاً فإن الدكتاتور ـ في علاقته بالناس وفي عزلته ـ هو الدكتاتور. والدكتاتور يُثير الرعب والسخرية معاً. وساعات ما بعد الظهر هي وقت السخرية. سأودعك الآن لاكتب احدى خطب الدكتاتور، فقد اطلقت عليه قافيتي، كما اطلق هو عليّ نباح كلابه.. وكُتابه.

اخوك محمود درويش
(باريس ـ ١٩٨٦/٩/٩)

إضحك إبك!

● أخـي محمود،

بين تكتكة الآلة الكاتبة في الغرفة المجاورة وهمهمة المروحة الكهربائية لصق مكتبي وهدير محرك الديزل على الشارع المحاذي وخشخشة الاوراق المضطربة على حامل التلفون ودعاء جارتنا الساخطة على ابنها العفريت بانقصاف العمر فوراً وحالاً وبـلا فرصـة لأمنية اخيرة.. بين كل هذا وفي غمرة سمفونية كاملة من الضجيج العصري تأتي رسالتك. احزم كل هذه المنغصات بهدوء ونظام وأضعها جانباً، طامحاً الى شيء من التفرغ لقراءتك.

قبـل الـرد على رسـالتك اود تنبيهك الى اننا لسنا وحيدين في حديقة الأسى والتراشق بالياسمين هذه، التي امتشقناها من اضلعنا مثل آدم في طفرته الابداعية الـرائعة. ان حشداً كبيراً من الناس يزيح الستائر ويطل من النوافذ المحيطة بنا منتظراً ساعي بريدنا الخاص. ومن المدهش ان بعض القراء يكتشفون في رسائلنا ويستشفّون منها أموراً لا أشك في انها لم تخطر لنا على بال، ولا بأس في ذلك.

يوم الاثنين الماضي كنت جالساً بمنتهى الوقار على كرسي الاعدام الكهربائي في عيادة طبيب الاسنـان. وبينـما انـا اغـلي وأنضح في ألم الاسنان كان الطبيب ومسـاعداته ومرضاه ذكوراً واناثاً، طوالاً وقصاراً، شقراً وسمراً، مدنيين وقرويين، كانوا جميعاً اشبه بجوقة إنشاد مدرسية او بكورس كنسي يحدثونني باهتمام اكيد وبلهفة منقطعة النظير عن انطباعاتهم الخاصة بشأن هذه الرسالة او تلك ويسألون ويعقبّـون ويحتارون، وانا اواصل الجلوس بوقار على كرسي الاعدام علاجاً حتى المـوت، محدقاً في وجهك الهيتشكوكي لاعناً اجداد اجدادك على هذه الورطة: ولا بأس. ثم انني اوصلت هديتك الى تلك الفتاة التي ما زالت تحلم بأنها عدلت صورتها على جواز السفر بحيث اصبحت مطابقة لصورتك، وبعملية التزوير البريئة هذه اتاحت لك العودة الى الوطن وبقيت هي في بلاد الغربة منتظرة الفرج.. من مؤتمر القمة: (مورفي ـ بيريس ـ مبارك؟!).

وماذا اقول؟ نحن يا صديقي لا نُحسن التمثيل، ولا نملك قوة المهرج الحقيقي. ولئن صعدنا خشبة المسرح فلن نجد هناك سوى بيدائنا الشاسعة، نتوسط فضاءها ونتشظى على مشهد من النظارة المأخوذين بانفجار الشرايين وانتصاب اصابع اليدين مثل شجرة عارية.

لا يا صديقي، نحن لا نُحسن التمثيل، ورسالتك الاخيرة تسجل هذه الحقيقة المبهجة في نهاية الامر. نحن مزجوج بنا في مساحة ما بين الملاك والدكتاتور، نقترب من هذا فيشتتنا ذاك، نضطرب قليلاً وقد نضيع قليلاً، ولا نعثر على انفسنا الا في القصيدة. ولماذا تنفي صفة القصيدة عن «خطاب الجلوس»؟ لماذا تعطي متنفساً غير مبرر لخصوم الشعر؟ لماذا تتيح لهم الوهم بأنهم يحاصروننا بينما هم يزحفون حائرين على اطراف الغابة عاجزين عن اقتحام مغاليقها العصية الا علينا؟ وهل ننسى ان نظرياتهم الشعرية ليست سوى سيور في حذاء الدكتاتور؟

اعجبتني مهنتك الجديدة، كاتباً لخطابات صاحب السيادة والجلالة والسمو. «اضحك يا ولدي اضحك». ما اجمل ان يصادق المرء احزانه ويؤاخي سخريته، في هذا الزمن الذي ما كنا نؤثر ان يمتد بنا، الا انه يمتد ويمتد، ولا حياة تنصف ولا موت يُسعف.

هـا أنذا اتأبط ملاكي فتأبّط دكتاتورك وتعال معي نتفرج على النفس البشرية.

ان تعبيراً مثل «النفس البشرية» يوحي تلقائياً بالمغازي الايجابية التي تنسجم اصلاً مع اللفظتين في حالة الانفصال: «النفس» و «البشرية». وفي هذا الايحاء دليل على فاعلية التراكم التربوي والتثقيفي لصالح هذا المفهوم العام. ومما يلفت النظر حقاً ان هذه الفاعلية لم تتأثر كثيراً بالأدلة المناقضة المتوافرة على امتداد التاريخ، وفي التاريخ الحديث حصراً. وحتى لا أؤخذ بالانانية والاقليمية.. فإنني انصرف قليلاً عن تجربتنا نحن الفلسطينيين، التجربة الساخنة سخونة الدم الطازج، والتي اثبتت الآن في هذا الوقت، في هذه اللحظة، ان «النفس البشرية» تستطيع الخروج في تظاهرة من مليون انسان الى شوارع مدينة ما جراء لعبة كرة قدم، بينما تنهال شرطة «النفس البشرية» في المدينة ذاتها بالهراوات وبالغاز المسيل للدموع على بضع نساء يتظاهرن احتجاجاً على مذبحة صبرا وشاتيلا.

منذ عشرين عاماً، على وجه التقريب، قرأت كتاباً عن الأرمن. ومن المفارقات التي تميز حياتنا ان الكتاب كان باللغة العبرية وقد ترجمت منه بعض القطع الشعرية الأرمنية الى اللغة العربية ونشرتها آنذاك في احدى الصحف المحلية.

وأمس مساءً فرغت من قراءة كتاب جديد عن المأساة الأرمنية لكاتب عربي فلسطيني اسمه الياس زنانيري. وازاء الشهادات المقشعرة الواردة في الكتاب والتي رواها شهود عيان وبعض الناجين من المذبحة، وجدتني متورطاً مرة اخرى في مسألة «النفس البشرية» هذه والايحاء التلقائي بمغزاها الايجابي. ان تلهي الجنود بقذف طفل الى الاعلى واستقباله برؤوس سنجاتهم، وبقر بطون الحبالى، واغتصاب امرأة نفساء، حتى الموت، واصطياد الشعراء وسحل المفكرين، كل هذه الفنون الكامنة في النفس البشرية لم تبدأ عند جنكيز خان وتيمورلنك ولم تنته عند طلعت بك وأدولف هتلر.

و «النسيان» الذي نعتبره، بحق، نعمة من الطبيعة على الانسان، ينبغي ان نعتبره، وبحق، نقمة على الانسان ومن الطبيعة نفسها، وقد ادرك السفاح المحترف ادولف هتلر هذا السر، فحين اصدر اوامره الى فرق الموت بإبادة جميع الناطقين باللغة البولونية، اختتم أوامره هذه بعبارة ذكية: «على اية حال، من يتذكر اليوم تصفية الأرمن؟».

«اضحك يا ولدي اضحك»... وانظر اي مطبّ هو النسيان هذا؟ وكيف أنه قابل للتكيف ومهيّأ لان يصبح ستاراً من الدخان يُخفي وراءه نيازك الجنون المنفجرة في اعماق النفس البشرية؟

الا ان الذكاء ليس وقفاً على الجزار. انه في متناول الضحية ايضاً. واليهودي الذي رفع شعار «لو نشكاح فلو نسلاح» (لن ننسى ولن نصفح) كان يدرك انه يمارس الانتقام بمجرد طرح الشعار ذاته، لانه يفوّت على الجزار فرصة التمتع بنعمة النسيان ـ نقمة النسيان. ولم يكن الفلسطيني اقل ذكاءً فقد سارع هو ايضاً الى رفع شعار «لا نسيان ولا غفران»، غامزاً لامزاً، مطيحاً بتنينين في ضربة واحدة.

هكذا اذن. يتداخل الارمني في التركي واليهودي في الارمني والفلسطيني في اليهودي واليهودي في الالماني والالماني في الارمني... تتداخل الفصول، تختلط المقاييس، يمتزج الدم بالسخرية، تتشابه الدمعة والوردة. ويتطابق الموت والحياة في اورجيا صاخبة متفجرة، وننبجس من كل هذا مصعوقين مبهورين مشحونين بالسخط المتردد كالارجوحة بين ضفاف النور والظلام. فما الذي اصابنا ايها العزيز محمود، ما الذي اصابنا في هذه الايام؟ لماذا اصبحنا فرائس سهلة للهواجس التي نتشبث بها مثل قشة الغريق؟ هل تذكر هاجس البحر عندك وعند حبيبنا معين؟ هل

تذكر هاجس الصحراء عندي؟ الم تلمس هاجس الصليبيين عند اميل حبيبي؟ وها انت اليوم مسكون بهاجس الدكتاتور كما يتلبّسني هاجس السقوط. ماذا أصابنا؟ أهو الخوف ام هي الجرأة؟ اهي الرؤية ام انها الرؤيا؟

ماذا أصابنا؟ إضحك يا ولدي إضحك... إبـكِ يا بُني إبـكِ!

أخوك سميح القاسم
(حيفا ـ ١٦/٩/١٩٨٦)

حاضر سابق...

● عزيزي سميح،

الى اين تأخذنا هذه الرسائل، هذا النص المفتوح على البداية والنهاية. ما البداية وما النهاية؟ وما قيمة هذا السؤال؟ انها سجل سيرة عفوية، على مرأى من الناس.. كتابة على الارصفة والحيطان.. شكوى النفس لاختها النفس. لا تخطيط لها ولا منهج، وان كنت اتدربُ فيها على اختبار ما بلغتُ من فطام.

هل هي شبه ورطة جميلة؟ لا أغبطك على ما انت فيه، من طبيب اسنان لا يمل حفـر الاعصاب، الى قارئات لا يضجرن من التأويل. ولكن، حين ينتهي مفعول المخدر، وتعود الى بياض ورق لا ينتهي كأنه سفر العدم، فانك ستعثر لا محالة على جدوى هذا العبث، اعني على جمال هذا العذاب المتحول الى سعادة لدى من لا تعرفهم...

لا يُنقذنا غير من لا نعرف. ولسنا ضروريين الا للمجهولين. ما هذه المفارقة؟

لم يخطر على بال آرثر ميللر، عندما صبَّ عذابه الشخصي في مسرحية «ما بعد السقوط»، انه سينقذ كاتباً مصرياً من السقوط هو صديقنا الكبير يوسف ادريس الذي قال لآرثر ميللر وقال لي، ان تلك المسرحية كانت طوق نجاته الوحيد من أزمـة غـم قاتلة...

ومن حق آرثـر ميللر الا يفهم الحـاج يوسف ادريس عليه بالتماسك والايمان بجدوى الكتابة، ففي وسع المريض ان يطالب الطبيب بالشفاء، بالافادة من طاقة العافية المتحولة، كما حدث لمريض القلب حين طال تنصُّت الطبيب على دقات قلبه.. طال الى درجة صرخ معها المريض بالطبيب: كفى، ارفع سماعتك عن صدري! ثم ادرك ان طبيب القلب قد مات بالسكتة القلبية. ألهذا قال الشاعر: طبيبٌ يداوي والطبيبُ مريض...؟

ولم لا؟ نحن نعرف أسماء من انقذونا. ولكننا لا نعرف اسماء من انقذناهم.

وحين سألتقي في الآخرة مع السيد ميغيل سرفانتيس سابدرا، سأعترف له بان

رحلتي الثالثة مع دون كيشوته قد انقذتني من الانهيار النهائي قبل سبع سنين حين اختلفت احلامي مع ادوات تحقيقها.. واختفيت في باريس.

كما أنقذتني راهبة لبنانية في زغرتا من عبثية الكتابة حين روت لي، وفي عينيها دمـوع، انها شهدت سقوط القدس في حزيران الشهير، وانها عالجت مقاتلاً جريحاً كانت وصيته الاخيرة، قبل استشهاده، ان يحصل على مجموعة من قصائدنا!!

واليوم... اليوم، اصبت بالكآبة من وحشية ما يكتبه عني بعض «مواطني» مقاهي دمشق، المهاجرين من مقاهي بغداد وبيروت، فأسعفتني رسالة من قارىء مجهول يخبرني ان رسائلنا المتبادلة قد امدته بحافز جديد للحياة. ومكالمة هاتفية من زميلة في المدرسة، لم اسمع منها وعنها منذ سبع وعشرين سنة، تطالبنا بأن نواصل صيانة سعادتها.

أليس في هذه الطاقة المتحولة ما يزودنا بالطاقة؟ فلتبعد عنك، يا عزيزي، هاجس السقوط، لان هنالك من ينتظرك ويشعرك بأنك ضروري، ضروري، ضروري.

ولكن، ما هي رسالة هذه الرسائل، والى أين تأخذنا؟

اما رسالتها فلم احسب لها حساباً ما دامت تُشبع هذا التوق الجميل الى نداء شطري الـبرتقالة، وتحك حميميّة تفتقدها الناس في خطاب هذه الايام. وما دامت قادرة على طرد الـذباب عن طعام روحينا فهي مفيدة... فأنا لم اعرف، مثلاً، ان قصيدتك الجميلة «اليك هناك في بيروت» كانت تستخدم سلاحاً لقطع رأسي، حين روج البعض شائعة تقول ان القصيدة تخاطبني، حتى اوضحت في احدى رسائلك لهم، لا لي، انها كُتبت في اثناء اقامتنا المشتركة في حيفا..

هل ترى الى اي حد كنت صادقـاً حين اشهـرت حيرتك الباكية ازاء مصطلح «النفس البشرية» التي تحمل في نسيج غاباتها الداخلية ما يحتاج دائماً الى تهذيب، والى مناخ أفضل عافية من مناخ القيم السـائدة المفتقرة الى الحد الادنى مما اصطلحنا على تسميته القيم الانسانية بمعناها الايجابي؟ وما يجعل الملاحظة اشد ايذاء هو ان هذا المناخ ليس نتاجاً لجهد الاعداء بقدر ما هو انجاز اصدقاء...

«قل شائعتك وامش» ـ هذا هو شعار العاطلين عن التعايش مع زمن احلامنا المغـدورة. هل تذكـر تلك الفـرية الدموية التي روجها خصومُ فكرنا وشعرنا، قبل عشرين عاماً، يوم سافرنا الى صوفيا لملاقاة الاخوة الذين انتظرناهم ثلاث حروب فازدادوا بعداً؟ هل تذكر كيف كتبوا انهم شاهدونا ـ انت وانا ـ نرفع العلم الاسرائيلي في شوارع صوفيا؟ لقد ضحكنا في البداية من سماجة النكتة، ثم بكينا حين ادركنا ان تلك الفرية السوداء، ما زالت تلاحقنا الى الآن.. وتجد من يصدقها!

ولكن، ما العمل غير العمل. ولا عمل لنا غير تحويل الوجع الى طاقة قد تصل، وقد لا تصل، الى القادرين اليوم وغداً على تحويل القصيدة الى قبضة وخطوة. وما علينا الا·ان نتحمل ما يطالبنا به بعض الناس من تعويض عن الانهيارات لا نقدر عليه، وكأننا اكثر من شاعرين! قل: هو الحب الذي يطالبك، ولا تُصغ الى مرضى الروح. فهل يستطيع احدُ منا حقاً ان يرتدي زيّ الدكتاتور او الملاك، بينما لا نملك ان نكون لا هذا ولا ذاك، فلسنا سوى ضحية مقسومة الى اثنين، ضحية تشير الى حدود المشهد، وترفض الدفن والنسيان...

نعم، يا عزيزي، لن ننسى ولن نغفـر.. لا غفران ولا نسيان. نعم، يا عزيزي، سننسى وسنغفر حين نصبح مؤهلين للمغفرة والنسيان. فالنسيان هو نعمة المنتصر. والغفران هو رحمة المقتدر. اما الآن؛ فلا غفران ولا نسيان.

ومن النسيان ما ينتشلك من قاع الهاوية، ما يصعد بك الى فمها. ومن النسيان ما يوقعك في الهاوية. وحين نتوغل اكثر في جدلية الكتابة نعرف الى اي حـد يجري تبادل الأدوار المختلطة بين الذاكرة والنسيان. ونلاحظ ان ابتعاداً ما عن المشهد، وانفصالاً ما عن العاطفة يزودان الكتابة بأحد عناصر عَملها وهي الذاكرة التي تختار المـاضي مرجعـاً لتوثبها وارضاً للامتداد والحنين. أليس في هذا التذكر شيء من نقيضه؟ فماذا بعد أن نتذكر... ماذا بعدما نفرغ الذاكرة من مخزونها؟

لا أتكلم، هنا، عن الذاكرة الجماعية، بل عن الذاكرة الفردية الساعية الى انتقاء ماضيها لتستوعب تاريخها في لحظة السؤال الكبير عن المصير..

هل كبرتُ كثيراً، ام ارتطمتُ بجدار الافق المسدود، لاعيش في هذه الفترة من حياتي ماضيَّ كله الى درجة اصغي معها بكل خلاياي الى ما نسيت، او اوهمني ايقاع الحاضر السابق ـ اذا جاز القول ـ بأنني قد نسيت. لم اكفُ البارحة عن محاولة شاقة لتذكر اسماء النباتات والاعشاب والزهور البرية التي زوجت لغتي بالطبيعة. وحين نُبش اسمٌ ما، كامن فيَّ، تدفقت نافورة التفاصيل مني لأدرك انني ثرثار حتى مطلع الفجر. ما سرُّ انبثاق هذا الماضي؟ أهو البحث عن طفولة المكان، ام هو الشبق لملاقاة مكان الطفولة، ام هو الاقتراب من سؤال سابق: ما البداية.. ما النهاية؟

ربما كان ذلك هو السبب الذي يؤجج فيَّ حافز الكتابة اليك. الحافز. الحافز. إذا أنّ الحافز الان الصخر وامتثل لريشة عصفور، فكيف لا يلين امام انين الحديد. معك، على جسرك، التقي بما افتقد، اسيطرُ على الغياب، واستولي على البعيد. وفي هذه العادة التي اورطك فيها كما تقول اخاطب ما لا يخاطب الا بالجنون، فليس من حق الانسان ان يكتب رسائل الى نفسه الا اذا تواطأ مع احد. وانت تتواطأ معي لترتاح

من وهم الخارج، فقد حملتُ عنك الحقيبة والخيبة. ولتحتمل عذاب الداخل، فقد حملتَ عني السجن وأمسكتَ بنافذة الافق، دون ان يتمكن احدنا من ردع الثاني.

فهل اجد فيك الماضي؟ لا تظن ذلك تماماً، فلست بمرآتي بقدر ما انت مرجعيةُ قلب لم يتكيف مع بلد او مع احد. لذلك تأخذني الرسائل الى ما كان، وربما الى ما سيكون. ما البداية.. ما النهاية؟ تكلما عن ماضيكما فقد صار ذلك ضرورياً ـ هكذا يطالبنا الكثيرون. لا اعرف ان كانوا يعنون الماضي أم يعنون شكل الحياة هناك. فقد ترابطت المفردتان ـ الماضي وهناك ـ لتشيرا الى مسار واحد هو استحضار طبيعة ارض ومجتمع من خلال تكوين شخصي. كيف يطل الخارج من الداخل على الداخل. وكيف يطل الداخل على الخارج الذي لم يخرج.

اكتب عن الماضي، اكتب لي عما تكتب الآن...

اما انا، فقد فرغت هذا الاسبوع من كتابة الصياغة الاولى لكتاب مجنون، نثر وجنون، شعر وجنون، سرد وكوابيس وبطولة وجنون، وهو تاريخ يوم واحد من ايام آب ١٩٨٢ في بيروت، وسأبدأ في هذا الخريف بكتابة الكتاب الذي يلاحقني هاجسه منذ اربع سنوات، كتاب البيوت التي عشت فيها، في الوطن والمنفى، منذ البيت الاول الى الآن. هو شيء من سيرة البيوت الذاتية، اكثر من خمسة وعشرين بيتاً، ولا بيت لي، لا عنوان لي. هل تعلم، يا صاحبي، ان العبرانيين قد تعلموا بناء البيوت من اجدادنا الكنعانيين؟ يا للمفارقات الساخرة! وهل تثير فيك هذه الملاحظة شيئاً من التأمل المرّ.

هل هو، مرة اخرى، بحث عن الماضي، عن مكان الماضي باعتباره وطن الحلم؟
لا اعرف. ولكنني سأكتب... سأكتب.. وسأكتب..

اخوك محمود درويش
(باريس ـ ١٩٨٦/٩/٢٢)

أخطاء وخطايا

● اخي محمود،

وعلى ذكر رسائلنا، فانني اتساءل احياناً عن طير اسود يخترق جبهة القارىء حين يعترضه حاجز الخطأ المطبعي. تتحدث في احدى رسائلك عن «الكتابة الحرون» فيقف القارىء ازاء «الكتابة الحروف».. ولانه يتوسم فيك العمق والجدية فانه يحار في امر السر الكامن وراء تصريحك الهام والفلسفي: «الكتابة حروف»!

واحدثك في احدى رسائلي عن تاييس وراهب توبتها، فيلتقي القارىء بتاييس وراهب تربتها.. واتصور القارىء التعيس عاجزاً مكموداً حيال اكتشافه مدى الجهل الذي يتخبط فيه فلا يعلم ان تاييس هذه كانت تملك تربة ما، وان لهذه التربة كاهناً للاعتراف.

وتعود بي الاخطاء المطبعية الى ايام زمان، ايام كنا نحرر الجريدة ونراقبها ونصححها ونبيعها دون ان نقبض اثمانها من القراء الكرام فتتراكم علينا الديون وتحسم من مرتباتنا الزهيدة اصلاً. فلا نعرف كيف نبدأ الشهر وكيف ينتهي بنا.

واقول لك في احدى رسائلي السابقة: أُكتب الي... أُكتب اليك! بضم الهمزتين وبمعنى ان الكتابة الى صديق، والكتابة بحد ذاتها، تشكل في خلاصتها نوعاً من مخاطبة الذات، تساعدنا على اكتشاف انفسنا من خلال اكتشاف الآخرين والكشف عن الاشياء التي تتناولها هذه الكتابة.

وصلتك الدعوة، الا انها وصلتك بتعديل ما، بتعديل طفيف وغير مخيف. وصلت بضم الهمزة الاولى وبفتح الهمزة الثانية، وبمعنى الاشتراط «أُكتب الي.. أَكتب اليك! ولا اشتراط ولا يحزنون، فنحن في عصر المفاوضات المباشرة بلا قيد وبلا شروط مسبقة، وكان الرب في عون المؤتمر الدولي!

تذكرني في رسالتك الاخيرة بما كنت اؤثر ان انساه، بتلك الحملة القذرة التي شنتها علينا عناصر مشبوهة في العام ١٩٦٨ يوم خرجنا الى صوفيا مفعمين بشهوة العناق فعدنا وفي ظهرنا سكين الشائعة الدامية. وما دمنا نذكر فسنذكر دائماً وابداً تلك

الوقفة النبيلة التي امتشقها آنذاك رفيقنا وحبيب شعبنا وشهيد قضيتنا غسان كنفاني، الذي لم ينتظر التفاصيل بل ادركها بحسه الوطني السليم فهبَّ مدافعاً عن «جناحي الشعر المقاوم» كما لقبنا، مشكوراً الى دهر الداهرين.

وماذا اقول لك ايها العزيز محمود؟ الشائعة سلاح خطر وحقيقي، يكاد المرء يقف عاجزاً ازاءه. وقد اكتويت بـه شخصياً على جلدي ونخاعي وروحي.

وأدرك خطورة هذا السلاح عدد من عتاة الدعاية والتحريض، حتى ان غوبلز وزير الاعلام الهتلري كان مؤمناً كل الايمان بأن تكرار الشائعة يحولها الى حقيقة ذات اثر مادي لا يقهر!

وتشكل الشائعة عنصراً جوهرياً في المذهب الديماغوجي الذي تعتمده مجتمعات الاستغلال والقهر والبطش. ففي الولايات المتحدة الامريكية يمارسون التهديد بالشائعات على النحو التالي: «سأقول للعالم ان اختك عاهرة، واذهب انت لتقنع العالم بأن لا اخت لك!».

ومما يزيد من خطورة الشائعة ايمان الناس بتلك الحكمة القديمة «لا دخان بدون نار!» فماذا يبقى لنا بعد ذلك غير محاولة الاحتراس ومحاولة الدفاع ومحاولة الاقناع ومحاولة العزاء؟

انا شخصياً تعلمت درساً في العزاء ذات يوم من ايام العام ١٩٦٦. كنت واقفاً مع الشـاعـر جورج نجيب خليل في شارع هنفيئيم (الانبياء) في حيفا، نسلم ونسأل ونتساءل، حين انفجرت على مقربة منا مشادة كلامية حامية بين رجل يهودي يحرس «مكتب مطاردة النازيين» القائم في العمارة المجاورة وبين فتى عربي يبيع التين في اكياس بُنية تميل الى الكاكي.

فجأة صاح الحارس اليهودي: انصرف من هنا ايها العربي القذر! ولما كنت آنذاك في عـز الشباب لم اتمالك حميتي فتدخلت شاتماً لاعناً مهدداً.. وتجمهر المارة، بعضهم بقوة حب الاستطلاع، وآخرون بدافع المحاولة لاصلاح ذات البين، كما يقال، وكانت هنـاك سيدة عجوز تحمل سلاً من البلاستيك الازرق مملوءاً بالخضار، فدنت مني وسألتني بالعربية وباللهجة المصرية اللطيفة: «ايه جرى؟ فيه ايه يا ابني؟» فأجبتها محتداً حانقاً: «هذا الحيوان يشتم الفتى بعربي قذر!» فما كان من تلك السيدة العجوز الا ان ربتت على كتفي بحنان وهي تقول: «آل له ايه؟ آل له عربي قذر؟ معلش يا ابني، كله بيروح في الغسيل!!» وتلاشت عن عيني سحابة الغيظ.. وابتسمت لها: شكراً يا سيدتي شكراً.. لا بأس، كله بيروح في الغسيل!

وانفضت الجمهرة وانفضضت حاملاً في قلبي وعقلي حكمة تلك السيدة العجوز

بسـلّ خضارها البلاستيكي الازرق..

ماذا اقرأ في هذه الايام؟ وماذا اكتب؟

اقـرأ عن الارمن والقضية الارمنية، لاصـون ايماني بوحـدة الانسان وشمولية التاريخ، ولاكتشف كتفاً اخرى اريح عليها رأسي ولاستحضر رأساً اخرى اريحها على كتفي..

واقرأ كتاباً عبرياً رديئاً اسمه «عربي جيد»، وهو في خلاصته تسجيل لتخبطات مثقف يهودي يحاول التملص من مواجهة الحقائق التاريخية في بلادنا ويعثر على خلاصه الموهوم في غرفة ما في باريس، لا من منطلق الجرأة الادبية والسياسية بل بدافع العجز عن الاعتراف وتسمية الاشياء بأسمائها الحقيقية.

ورغم نصيحتك الاخوية الطيبة بالتخلص من هاجس السقوط، فانني منغمس في مطاردة هذا الهاجس الذي يطاردني، وفي هذه الاثناء اتابع الكتابة التي ستكتمل كما اعتقد في شكل سربيّة.

وقبل ذلك تورطت في عمل قد يكون في المستقبل عملاً روائياً.

ولأنني لست روائياً محترفاً فسأقدم في نهاية المطاف شبه اوتوبيوغرافيا تحكي جانباً من تجاربي الشخصية في هذه الحياة التي تشبه تناول ملعقة سم صغيرة ثلاث مرات يومياً. وعلى غير عادة، او على غير عادتي فقد بدأت بعنوان هذه المحاولة الجديدة: ملعقة سم صغيرة، ثلاث مرات يومياً.

زرت أهلك بعد عودتي، وقابلت البنتين اللتين كنت تحصيهما كل يوم عدة مرات. لقد سعدتا جداً بزيارتك وهما مع الاهل جميعاً بخير. نصوحي متحمس هذه الايام لزيارتك والله اعلم.

ما اخبارك انت؟ كيف الاصدقاء واحداً واحدة بلا استثناء؟ أكتب الي. أكتب اليك!

اخوك سميح القاسم
(الرامة ـ ١٩٨٦/٩/٢٧)

هـو.. أو هو

● عزيزي سميح،

السيدة شيرلي هوفمان امريكية ـ اسرائيلية تعيش في مدينة القدس. التقيتُ بها، منذ اسابيع، في مهرجان الشعر العالمي في روتردام. قرأتُ شعراً عن أزقة القدس، وهي قرأت شعراً عن حجارة القدس. قرأتُ عن تيهنا الجديد، وهي قرأت عن تيهها القديم. ولكنها عرفت ما لم اعرف. قالت ان اسباب الحروب الدائمة في الشرق الاوسط هي غيرة النساء، الغيرة التي اندلعت نارها بين جدتهم سارة وجدتنا هاجر..

ضحك الجمهور الهولندي، واشتد ضحكه حين تصافحنا على المنصة، وقلت لها: اللعنة على جدتك وعلى جدتي ايضاً.

لم تكن مشكلة السيدة هوفمان الوحيدة هي انها جاءت لتمثل الشعر العبري الحديث دون أن تفقه شيئاً في اللغة العبرية، اذ في وسع الشعر العبري ان يكون شعراً انجليزياً!

ولكن مشكلتها التي لا يعرفها الجمهور الهولندي هي ان ابنتها، اليهودية الامريكية، متزوجة من شاب هولندي مسيحي. وحين سافر العروسان الى القدس تعرفا على شيخ مسلم سرعان ما ادخلهما في الدين الاسلامي. وهكذا فإن احفاد السيدة هوفمان اليهودية سيكونون مسلمين هولنديين امريكيين اسرائيليين.

قلت لها مواسياً: هذه هي الحياة، وتلك هي القدس!

قالت: هذه هي الحياة. وماذا في وسعنا ان نفعل سوى الدفاع عن موضوع السلام!..

تذكرت السيدة هوفمان، يا عزيزي، بعدما انتهيتُ من قراءة الكتاب العبري الذي أشارت اليه رسالتك «عربي جيّد». وهو كتاب محير، لانه يلعب بالجرح الانساني بشفرات حلاقة صدئة، ويقدم المأساة في صورة «البورنو». انه محير على الرغم من صحة تقويمك العام له، فليس من الضروري ان يكون ادباً جيداً ليحرك الاسئلة التي يثيرها عبء هاتين الهويتين في شخص مشطور الى: عربي ويهودي، دون ان

يكون عربياً ودون ان يكون يهودياً..

الكـاتب يوسف شرارة ليس يوسف شرارة. انـه اسم مستعار لمثقف اسرائيلي منبوذ، ولد من ام يهودية ومن أب عربي ـ هكذا يقول ـ انتهت به رحلة البحث عن اسم وعن هوية الى غرفة باريسية كتب فيها هذا الكتاب ـ الاعترافات بلغة عبرية طليقة العبارة وصريحة البذاءة معاً. فلماذا اختار اللغة العبرية ليكتب سيرة حلمه المكســور اذا كان نصفـه العـربي عربي الثقافة؟ هذا السؤال اياه سيصير سؤالاً معكوساً لو كتب المؤلف سيرته باللغة العربية: لماذا كتبها بالعربية ما دام نصفه اليهودي عبري الثقافة؟

لن ننتهي من هذا اللغز. ولكنني اشير اليه لان اختلاط هويته وانقسامها ناجمان عن اقصاء واعٍ للوعي من عملية البحث عن الذات. ولانه لا يقدم سؤال الهوية على مستـوى سؤال الانتـماء الثقافي، بل يُحيله الى سؤال العرق ليسمح لتخبطه بأن يواصل متعة التخبط. فهو عربي لانٍ دم ابيه العربي يسري في عروقه. وهو يهودي لان امه يهودية. ولكنه اسرائيلي دائماً. اسرائيلي بلا تردد.

لم يقنعني عذاب يوسف شرارة بأنـه ضائـع الى هذا الحد بين هويتين متوازيتي التجاذب. فالعربي فيه لا يتقدم بأكثر من سؤال الضمير اليهودي الشاهد على إثم ولادة كان ضحيتها الآخر. العربي فيه هو غموض الموقف اليهودي الاخلاقي تجاه «آخـر» ليس من الضـروري ان يتحـدد من سلالتـه العرقية. لذلك حفلت سيرة المفارقات والتناقضات بترميز نمطي لا ادري الى أي حـد يصلح لتقديم الشهادة او الرواية. وما دام المؤلف قد اختار الاختفاء وراء نص أدبي، فلم يعد من واجبه ان يطالب القارىء بمعرفة الحقيقة عنه وعن أمه وأبيه الا كما تقدمها «الحقيقة الادبية»..

هذه الحقيقة الادبية تقول ان يوسف شرارة هو يوسف روزنسفايغ الغاضب على مجتمعه ومن عدل مفقود على أرض شهدت دولاً وغزاة وشعوباً وبقيت هي الارض. حين بلغ سن التجنيد الاجباري في الجيش الاسرائيلي المكلف بالدفاع عن الدولة اليهودية رفضوا أن يقوم بواجبه تجاه الوطن لان أباه عربي. وامام توسلاته الباكية قاله له الضابط: «نحن لا نجندك في الجيش، وذلك لمصلحتك... فأبوك عربي له أسرة كبيرة في العالم العربي، فهل تستطيع أن تحارب أقاربك وأن تقتلهم؟».

لقد دفعت المؤسسة الاسرائيلية يوسف خارجها، وذكرته بأن أباه عربي، فانخرط في حزب يرفع شعار «الاخوة العربية ـ اليهودية» لكنه «اشمأز» من «مثالية» الحزب و«سطحية» شعاراته، فخرج من اداة العمل السياسية الساعية الى الاصلاح، خرج

الى ذاتـه المضـطربـة، فخـرج من التـاريخ... كدس الحقائق والوقائع والثقافات والحضارات. خلط تاريخ العرب وتاريخ اليهود والسلالات والمذابح والحروب في طبيخ بشري ليكتشف انه «وليد التاريخين المتصارعين، هنا والآن، وضحيتهما في آن، على ارض يخوض شعبي حرباً دائمة ضد شعبي الثاني، ضد دولتي وضد دُولي. ان عكا فيَّ. والمانيا فيَّ. وارض اسرائيل وفلسطين. وانا في كل هذه الامكنة ولستُ في أي مكان».

لقد جعلوا منه عربيَّ اليهود... وحين انتقل من تل ابيب الى حيفا مُتخلياً عن صديقته اليهودية دينا ليعيش مع ليلى العربية، يحوله العرب الى يهودي العرب. يقول ان عربه قد خيبوا أمله، اذ قال له قاسم: «ماذا نتوقع من يهودي؟ ان تكون أمـك قد ضاجعت عزوري لا يجعلك جزءاً من قصتنا». ولكنه لم يبحث عن حـل لاسئلته الا في مكان واحد. قال له صديقه: «لا في سرير دينا ولا في سرير ليلى ستجد حلاً للمشكلة اليهودية العربية».

ويلخص حواره مع عربيتـه ليلى مفهـومـه القـاصـر «لصراع الحقين» العربي واليهودي: «أنتِ على الاقل تجدين مكاناً تهربين اليه، لك أم أخرى، أما أنا فلا. لك اثنتان وعشرون دولة عربية. تنازلي قليلاً: لماذا تريدين قطعة الارض هذه، الارض الصغيرة الحقيرة؟ أنت تنتمين الى الامة العربية الكبيرة. لقد دُستِ على اليهود ألفي سنة. فلتعطي شيئاً من أرضك لأمي».. قالت ليلى: يظنون انك يهودي. قال: اذن، من أنا؟

لم يكن غير ما كان. وهكذا فهم الانتصار العسكري الاسرائيلي «كان على احدكما ان ينتصر: انت او انت؟»! فهل استطاع يوسف ان يفتح للآخر فيه خطاب الدفاع عن حقـه خارج المنـبر الصهيوني الـذي يُرسل العرب الفلسطينيين الى ذويهم في الخارج؟ وماذا لو كانت أمه يهودية، اين قوانين هذه القربى التي تجر الوليد الى الحيرة امـام الاختيار الصهيوني، كأنـه يقول ما كـفَّ العرب عن قوله: ان كل يهودي صهيوني! لان الصهيونية ليست وراثـة، بل هي اختيار فكـري وسياسي، فلماذا رفعها الى مستوى السلالة، واذا كان قد رفعها الى هذا المستوى، فلماذا يدعونا الى البكاء على حيرته!

وحين قرر الهروب من لعبة اليهودي والعربي، من دخول اليهودي عربياً في فمه ليخرج يهودياً من قفاه والعكس صحيح ايضاً، ليختار الهوية الثورية الفلسطينية في بيروت، لم يشاهد في بيروت غير ما يبرر عودته الى جلده الحقيقي، فقد قال له عمه هناك: سنقضي على هؤلاء الفلسطينيين. سأل عمه: وانت، ألست فلسطينيا؟

فأجاب: تركت عكا قبل اربعين عاماً. أنا مسيحي لبناني. وعندما هاجرت لم تكن هناك فلسطين. هل تعلم اننا ننتظر الجيش الاسرائيلي لينقذنا!.. وهكذا اقتنع يوسف بأن الفلسطينيين ليسوا مقاتلين من اجل الحرية، ولكنهم قتلة. وهرب من بيروت الى باريس. وهكذا استطاع ان يخلص من العربي فيه دون ان يخلص من اليهودي فيه. لقد عجز عن ان يكون عربياً جيداً، وعجز ان يكون يهودياً جيداً. ونجح في ان يكون شخصية سيئة!

من هو العربي، يا عزيزي سميح، في الوعي الاسرائيلي العام؟ انت ادرى مني بهذا الفولكلور العنصري. ولكنني جمعت لك هذه التعريفات: العربي الجيد هو العربي الميت، العربي هو الماكر المخادع الكذوب. العربي لا يفكر الا بنهود اليهوديات. العربي هو الذي يهين المرأة. العربي هو الذي يحلم بمضاجعة الجندية الاسرائيلية، وبمضاجعة بدلتها العسكرية. العربي ماهية قومية لا انسان. العربي لا يفهم غير لغة القوة. للعربي دموع كبيرة. والعربي الجيد لا يتكلم الا اذا طلبوا منه الكلام. والعربي الجيد من له حاسة فكاهة يهودية.

ان يوسف شرارة بريء من هذه التعريفات، فماذا يبقى من كتابه ومن لعبته المليئة بالدموع؟ انها شهادة مثقف اسرائيلي على ميوعته ورخاوته وعلى عنصرية مجتمعه. وبعيداً عما يخصنا، ففي الكتاب عذاب انساني يسمح للتداعي بأن يتداعى، وللمفارقات بأن تعيد تشييد مسرحها المنهار. ولكنه يقنعنا بأنه ليس في وسع احد، الآن، ان يحمل الاثنين، العربي واليهودي، في كيان واحد. كما لم يتمكن غسان كنفاني من هذا العبء في «عائد الى حيفا».. لماذا... لماذا؟؟

ألأن كتابة هذه الازدواجية، المتحاورة على زمن صراع وعلى مكان حرب، تحتاج الى زمن آخر وشرط آخر يفتحان للانساني مدى التعبير الحر بعدما يكون جرح الهوية قد التأم، ويصير من «حق» الواحد أن يكون عربياً ويهودياً بلا رموز، وبلا خيانة، وبلا هزيمة؟

ان اليهودي في العربي الآن هو الخيانة. وان العربي في اليهودي الآن هو الهزيمة. وما بين الهزيمة والخيانة لا يتقدم التعبير الادبي الا بوصفه عبثاً او كوميديا سوداء.

يا للمأساة العاجزة عن ان تكون مأساة الا في الملهاة. ويا للحق العاجز عن صياغة لغته الا خارج لغته.. ويا للضمير العاجز عن التحقق الا في قناع الضحية.

ويا عزيزي،

أمن نكد الدنيا علينا أن من واجبنا ان نقرأ ما يعنينا في الادب العبري الحديث الذي تعنينا حيرته وتخبطه، لنزداد اقتناعاً بأننا ندافع عن قضية عادلة وعن هوية

وطنية وانسانية واضحة؟ ربما... وربما. ولكن اذا قابلت ليلى التي قال لها يوسف شرارة انها «تضاجع كمومس من مستوى رفيع»، قل لها ان عندي ما افعله في أي مكان... هنا او هناك... وانني لم اقابل يوسفها في بيروت. ولم اكتب للقتلة!

واذا قابلت السيدة شيرلي هوفمان في القدس، سلم عليها وقل لها: لعنة الله على سارة وعلى هاجر!

اخوك محمود درويش
(باريس ـ ١٩٨٦/١٠/٧)

نحن أم ابن زريق؟

● اخي محمود،

كان مطراً رائعاً ذلك الذي فاجأنا قبل ايام. ازحت ستارة النافذة في ساعة متأخرة من الليل لاستلهم الطبيعة شيئاً من الفرح النظيف تعويضاً عن الكدرة العفنة التي اشاعها في نفسي كتاب هنري ميللر «رامبو وزمن القتلة»، بترجمة صديقنا العزيز سعدي يوسف.

وكأنما بشهوة مازوكية، اغفلت الكتاب وتجاهلت المطر، عائداً الى شهقات ألبينوني المتهدجة في قلعة الالم منذ مطالع القرن الثامن عشر.

يزهد المرء احياناً في ما يبدو للآخرين كنزاً نادراً. «ان ظلت روحي، منذ هذه اللحظة يقظة، فاننا سنصل سريعاً الى الحقيقة».. هكذا يتكلم رامبو.. وتلح عليه الفكرة فيلحّ في القول: «لو انها كانت مستيقظة دوماً لأبحرت بكامل الحكمة!».. اهو كنز نادر، هذا الذي يعرضه علينا ذلك الصعلوك الفرنسي المدهش؟ قد يكون.. قد يكون كنزاً نادراً الا انني زاهد فيه. اذا كانت يقظة الروح هي فردوس رامبو المنشود، فهي بلا جدال جحيمنا الموجود. لقد كان اخونا رامبو مرفهاً الى حد البحث عن يقظة روحه فماذا نقول نحن الموصومين بيقظة روحنا المعصومين عن ابسط مقومات الفرح: الوطن، الهواء الطلق، الشمس المشرقة حقاً، البحر الذي لنا، شجرتنا الاكيدة، بيتنا الواضح وهلمجراً...

وفوق طينتنا نبتل بالخرافات وبالسيدة شيرلي هوفمان هذه التي تتحدث عنها في رسالتك.

اما بشأن «هاجر» فانني اكتفي بالرمز. ولعلك تعلم انني اطلقت هذا الاسم على طفلتي التي لم تولد بعد. سارة شيء آخر. واكتفي بالرمز مرة اخرى: انا لا أحب السيدات المستهترات اللواتي يلعبن بأفئدة الرجال الشيوخ فيدمّرن الاسر ويشردن الامهات والاطفال. اكثر من ذلك، فانني احتقر هذا النوع من السيدات وأومن بأنهنّ في جوهرهن نساء تعيسات منكوبات بعقدة الشعور بالنقص والسادية.

يوسف شرارة هو اسم مستعار ـ قناع ـ متراس ـ ملجأ، لكاتب اسرائيلي تعرفه وأعرفه. شاركنا ذات يوم لقاءات «التعارف والتفاهم» التي زخرت، كما تذكر، بالاحابيل والمناورات وتلخصت في ما يشبه حوار الطرشان. لقد غضبنا ذات يوم على الشاعرة داليا رابيكوفيتش لانها صرحت للصحف العبرية: «ذهبت الى لقاء من اجل الاخوة فعدت فاشستية!» كنا خائفين لا على الاخوة بل على لعبتنا المستمرة، حيث كان كل طرف يحاول جاهداً البرهنة على صحة وجهة نظره وعدالة قضيته، وليذهب الطرف الآخر الى الجحيم... وعلى العموم، كنا نحن الذين نذهب الى الجحيم.

ويوسف شرارة هذا رجل مرفه هو الآخر بالحرمان من «يقظة الروح».. يفلسف جبنه ويبرر جهله تارة بافتعال المثالية وطوراً باختلاق العواقب التاريخية. وما قلته في رسالتك صحيح. كان صحيحاً أمس. وهو صحيح اليوم. واخشى انه سيظل صحيحاً ردحاً من الزمن.

اخـي محمود.

لم اتمكن من السفر الى كوبنهاغن للمشاركة في مؤتمر السلام «لا لأنني احب قيصر اقل بل لأنني احب روما اكثر!» فغداً نفتتح مهرجان الفن القطري الثاني في ام الفحم التي اصبحت رسمياً مدينة، وما زالت في الواقع قرية كبيرة. ولشدة الاهمال الرسمي المتعمد فقد تدفقت المجاري في أزقة «المدينة» وحولتها المياه الآسنة الى فينيسيا على النسق الاسرائيلي، فينيسيا، انها بلا ألبينوني!

آمل ان نلتقي في غرينوبل الشهر القادم، لن اتمكن من السفر الى المغرب لسببين احدهما وجيه جداً: اولاً، سأكون مضطراً للسفر الى صوفيا للمشاركة في لقاء ادبي دولي هناك. وثانياً، لأنني لا اريد السير على خطى شمعون بيريس، علماً بانني مريض بالحنين الى كل شجرة والى كل كثيب في وطني العربي، قارتي التي لا موطىء قدم لي فيها ولا صخرة ذكريات، وانني لاتساءل احياناً عما يمكن ان يكون لو انني طالبت باستعادة حقي الشرعي في ملك اجدادي القرامطة. ألن يكون اجدى للعرب وللمسلمين ان يستبدلوا جنرالاً بشاعر؟! ام ان هناك خطراً بأن يرتدي الشاعر بزة الجنرال فور تسنمه السلطة؟!

وعلى ذكر السفر، ايها العزيز محمود، فقد تعبت. تعبت من التذاكر وحواجز التفتيش. تعبت من المطارات والفنادق. تعبت من الترانزيت والحقائب. تعبت من لوعة اللقاء الخاطف ويتم الفراق على شفير المجهول..

ومزيداً على مزيد، فقد اصبحت مسكوناً بالخوف. انا الذي كنت اتسلق سلالم الطائرات والسفن مثلما اتسلق درجات منزلي، يتسلقني اليوم انقباض خائف كلما

ازمعت سفراً.. يعتبرني بعضهم سفيراً متجولاً او سائحاً محترفاً في «الفيرست كلاس»، ولا أتمنى لهم ما اكابده من غصص الروح كلما ودعت اطفالي النيام وكلما ابصرت الدموع المنزلقة بصمت من عيني نوال.

ومن كان مثلنا فانه يدرك لوعة رفيقنا ابن زريق البغدادي. ولئن كان ابن زريق قد استودع الله قمراً له في بغداد، جاداً في طلب الرزق لأطفال ضاق العراق عن كسرة خبزهم، فإنني استودع الله قمراً لي في الرامة، جاداً في طلب وطن ضاقت بـه الاوطان... فمن منا الاشد رزءاً والأفدح عبئاً: ابن زريق ام انا؟ انت ام ابن زريق؟

اخـي يـا محمود،

نسـافر ونسافر.. تنثرنا الدروب وتجمعنا المفارق، نشقى في الفرح ونشقى في الشقـاء. لا اخترنا ولا خيرنا.. وكل ما في الامر اننا لم نفقد الايمان بأن طريقاً ما سيفضي، لا محالة، الى نهاية ما... وابداً على هذا الطريق...

اخوك سميح القاسم
(الرامة ـ ١٩٨٦/١٠/١٥)

احصدوهم...

● عزيزي سميح،

ماذا ستقول في آخر هذا الشهر عندما تذهب الى كفرقاسم؟

لقد حلت الذكرى الثلاثون لاحدى مذابح هذا العصر المليء بالمذابح.. كفرقاسم، اسمٌ من دمنا، احد اسماء دمنا.. كفرقاسم، تُحَرِّكُ في النفس غابات «الآخر»، حوار السيف والرغيف، خطاب الوحش الى طفلة مهجورة هي احدى حفيدات هاجر، اسم تتنازعه هويتان: «انا اقتل، اذن انا موجود».. و «انا احيا اذن انا موجود»..

كفرقاسم، بعد ثلاثين عاماً من انتصار حبة القمح على البندقية، لا تتذكر الا نفسها، فلاحين وتاريخ ارض، ويرتد الدم الى وجـه القاتل هوية وحيدة، وشكل حياة مشروطاً بالموت. كفرقاسم لا تحتفل الا بنشوة البقاء.

لا اتمنى ان اكون معك هذه المرة، على مقبرة بلغت من العمر ثلاثين عاماً. طالت نباتات الشوك وكبرت اشجار النخيل، واشتعلت زهرة الخبيزة ثلاثين مرة. للمقابر ايضاً عمر وتاريخ... وازهار.

وعلى جانبي الطريق المؤدي الى مسرح دمنا المرفوع على اسمنا، تصطف البنادق والحـواجـز لحراسة النسيان. كان في وسع حرس الحدود ان يضعوا حدوداً للذاكرة وجدوداً للنسيان. فقد قطعت ذلك الطريق من قبل، اكثر من مرة، لأجد النسيان عاجزاً عن النمو، ولأعرف الى اي حد يتذكر القاتل انه لا يستطيع ان ينسى، فكيف ننسى، كيف نغفر؟

كنا فتياناً حين انتزع توفيق طوبي اسماء قتلانا التسعة والاربعين من انياب النسـر الحكـومي المضروب عليهم... اسماء الرجال والنساء والاطفال الذين كانوا عائدين من الحقل والمحجر الى وداعة البيوت. لم يسمعوا آذان العشاء على مدخل القرية، بل سمعوا كلمة واحدة تشبه صراع الحنطة والمنجل، كلمة واحدة الفوا ايقاع بحثها الدموي عن الخبز، كلمة واحدة: احصدوهم...

لم تسلم روحنا ولغتنا من جرح ذلك المساء. ولن تسلما مما يضُخُّه الجرح فينا من

قوة، قوة السير الابدي، منذ بدء الخليقة والى الابد. على طريق هذا الوطن..

لم نتكوّن الا لنكون. ولم نكن الا لنتكوّن. اما الذين اشترطوا كينونتهم باشباع «الرغبة الجارفة المكبوتة في الانتقام» منا، ليحققوا مشروع حضورهم بتغييبنا، فلم يتمكنوا من القضاء، على رغبتنا الجارفة في البقاء. لهم ان يتجادلوا على ثنائية السيف والكتاب «ان الفترة التي يعيشها اليهودي هي فترة عصيبة، وفي مثل هذه الفترات تعيش الامم بالسيف لا بالكتاب، لان السيف هو التجسيد المادي للحياة في أنقى معانيها».. ولنا ان نبقى بما نملك من قوى البقاء المتوفرة في شرطنا البسيط، البريء، الشرس.

ويا صديقي، ليس من حق من ليس يهودياً، والعربي بخاصة، ان يقارن ما يفعله اليهودي، فرداً ومجتمعاً، بأيّ فعل آخر يفعله غير اليهودي. لقد تم الاعتراف الغربي بهذا «التابو» الذي يعني تجاوزه ارتكاب جريمة ضد الانسانية. من هي الانسانية؟ ومن هو الوصي على تعريف حدودها؟ لا احد يعرف غير من يحق له، وحده، ان يعرف..

ليس شعار «لن ننسى ولن نغفر» من ابتكارنا نحن ضحايا من احتكر دور الضحية، وخوله حادث كان فيه الضحية بأن يتحول الى قاتلنا الذي لا يُحاكم. ليس ذلك الشعار من صياغتنا؛ والا لانهالت علينا التهمة الكونية بالرغبة المكبوتة في الانتقام. فما زال هناك دم رخيص ودم ثمين. وهنالك قاتل عادل وقاتل ظالم. وهناك ضحية ممتازة وضحية بخسة، تحصل فيها الاولى على تعويض بدولة مسيجة «بحق النقض» الاخلاقي، وتحصل الثانية على قبر لا شاهدة له، وتكافأ بالنسيان..

ان الخطاب الصهيوني، والغربي المتواطىء حتى التماهي الجبان، يطالبنا بان نُهيل النسيان على ضحايانا وعلى ماضينا وحاضرنا قبل ان نهيل التراب، وقبل الشروع في قراءة الفاتحة. بينما هو يُطور فيها قوة الذاكرة «لن ننسى ولن نغفر» لا لينتقم ممن كان عليه ان ينتقم منهم، من غربه الذي أنتج نازيته ولاساميته وعنصريته فأنتجه، بل من شرق ساميّ، منا.. وليصوغ اطاراً مرجعياً وحيداً للشر وللخير ولمفهوم الانسانية ونظام الحقوق.. هو اطاره المرجعي الخاص، الوحيد، المطلق، الابدي، والكوني..

لذلك، كان من حق ايلي فيزل ان يكافأ بجائزة نوبل للسلام، لان مفهوم السلام ايضاً يفتقر الى تعريف واحد، عالمي، وواضح، وحوصر معناه في معنى واحد هو الدفاع عن قضية مقدسة، هي الدفاع عن سلامة الذاكرة اليهودية من خطر وهمي او واقعيّ هو: خطر النسيان!

ان من يكافأ على قوة الذاكرة، في هذا الاطار المرجعي، عليه ان يُنتج نقيضه الناسي، حين يُشهر هذا النقيض ذاكرة مضادة تشير الى ان في امكان من يتذكر ان يقتل آخر يتذكر. الا تتسع ذاكرة هذا المتذكر الكبير الى ما ارتكبه بعض المعبرين عن موضوعه من جرائم ضد الانسانية، على الارض المقدسة، من ديرياسين الى صبرا وشاتيلا؟ الا يعترف بحق هؤلاء القتلى في خلق ذاكرة تستعير مصداقية شعاره: «لن ننسى ولن نغفر»، في براءة دفاع بسيط عن وجود بسيط؟!

كلا... لان شروط توازن هذا الخطاب ليس تعميمه للانسانية، بل صيانة ما ينجزه من «جيتو» له و «فيتو» على الآخر. من شروط توازنه ان ينصاع «الآخر» الى نسيان هو شرطه لصيانة ذاكرة الخطاب. معنى هذا الانصياع هو ان المجازر المرتكبة ضدنا ليست مجازر ضد انسانية. انها عمليات مشروعة ضد عائق انساني. وهكذا، فان تجريد الضحية، ضحيتنا، من الهوية الانسانية هو شرط صلاحية «الذاكرة» اليهودية للعمل، ولحقها الوحيد في مراعاة «الفترة العصيبة» التي ارتكب فيها اليهودي الاخطاء.. الاخطاء لا المجازر!

ان «الفترة العصيبة» التي كانت تجتازها دولة «الذاكرة اليهودية» في عام ١٩٥٦ كانت مبرراً سياسياً للاخلاقية قتل ٤٩ عربياً في كفرقاسم، ولمحكمة انتهت بقرش شدمي الشهير!

وهذه «الفترة العصيبة» هي التي جعلت طفلاً يهودياً في التاسعة من عمره يقول لمجلة «هعولام هزه»: «يجب قتل العرب جميعاً. يجب وضعهم في كيس واحد والقاؤهم في البحر»... وجعلت طفلاً في السابعة من عمره يحل مشكلة العرب بطريقة أخرى: «يجب حشو العرب بالقنابل وحرقهم»...

فلمن الذاكرة؟ ولمن النسيان؟

روى احد الناجين من مجزرة كفرقاسم، قصته لملحق صحيفة «هآرتس»: قال انه يخلع ساقه كل ليلة ويمددها تحت السرير. وفي كل ليلة تسأله طفلته البالغة السابعة من العمر: ما هذا يا أبي؟ فيقول لها: عندما تكبرين، يا ريم، ستعرفين. ستعرف ريم ما يلي: في تمام الساعة الخامسة بعد ظهر التاسع والعشرين من اكتوبر ١٩٥٦، فرض امر منع التجول على قرى المثلث الفلسطيني. كانت حرب سيناء قد اندلعت منذ دقيقة واحدة فقط. كان ابوها اسماعيل بدر عائداً من العمل الى قريته. أوقف «حرس الحدود» عربته الى جانب الطريق، هو وثلاثة عمال. سألهم الجندي: من اين انتم؟ قالوا: من كفرقاسم. تراجع الجندي وصاح: احصدوهم!!!

ويضيف اسماعيل بدر: فجأة سقطت عليّ ثلاث جثث. ثم تقدم الجنود، وسحبونا

عبر السياج. صرخ ابن عمي: اولادي، اولادي.. فهشم الجندي جمجمته. حاولت ان أزحف فلم اتمكن. لقد اصيبت ساقي. طارت ساقي. حاولت ان احبو على يدي. رأيت بئراً. أردت ان القي بنفسي في البئر. ولكن لا ادري من اين جاءتني القوة، فتسلقت شجرة زيتون، واختبأت بين الاغصان. كنت اسمع الرصاص والصرخات، وجهاز اللاسلكي: قتلنا عشرة، هل نقتل المزيد؟ بقيتُ على الشجرة. وصلت الى الحاجز سيارة شحن تحمل ثلاثة وعشرين راكباً. أذنوا لهم بالمرور. وصلت شاحنة أخرى.. اذنوا لها بالمرور. ولكن ما ان ابتعدت قليلاً حتى فتحوا عليها نيران البنادق. بقيت ثلاثة ايام على الشجرة الى ان سقطت، وعثر عليّ احد اقاربي بالمصادفة.

عندما تكبرين، يا ريـم، ستفهمين...

اما الآن، فهل تنسى الساق الخشبية الساق البشرية؟

ويقول خضر محمود: كنا عائدين من المحجر. رأينا القتلى والجرحى على الطريق. كان هنـاك رجـل طاعن في السن. سأل الجندي الضابط: هل نقتل العجوز؟ قال الضابط: لماذا نخسر رصاصة؟ انه لا يساوي ثمن رصاصة! ثم توجه الضابط الى سيارة جيب وتكلم باللاسلكي: لقد وصلت شاحنة اخرى ملأى بالركاب... واريد ان اقتلهم جميعاً. اجابوه: خذوهم الى الحدود، اقتلوهم هناك، وقولوا: هربوا فقتلناهم.

لمن الذاكرة؟ ولمن النسيان؟

سيُسدل الاعـلام الغـربي ـ ماكنـة الذاكرة ـ ستار النسيان مرة اخرى على كفـرقاسم، كما يُسدلها على ذكرى مجازر صبرا وشاتيلا... سيسدلها علينا ليتعقب اخبـار اي يهودي مُصـاب بالزكام بسبب سوء الطب الاشتراكي! لتبقى الذاكرة اليهـودية حية، فهي شرط نسيان العـرب. وعـلى العرب ان يتخلوا عن الارض والحقوق... والذاكرة. ألم يكافأ انور السادات بجائزة النسيان:

جائزة نوبل للنسيان ـ للسادات...

وجائزة نوبل للذاكرة ـ لفيزل...

ولكن دمنا ما زال طازجاً. لن ننسى ولن نغفر..

وكفـرقاسم ترفع ذاكرتها، وتبقى في مكانها... تبقى في نشوة البقاء.. وفي نشوة الانتصار على الموت وعلى النسيان.. فمن ينسى هذه الكلمة: احـصـدوهــم...؟؟؟

اخوك محمود درويش

(باريس ـ ١٩٨٦/١٠/٢١)

..يهطل المطر وتنبت الحقيقة

● اخـي محمود،

حين وصلت رسالتك كنت قد حزمت حقيبة السفر. قلت في نفسي: حسناً. فلنسافر معاً. نتسلى على الطريق ونضحك على المطبات الجوية ما دمنا عاجزين عن الضحك على المطبات الارضية. وقلت في نفسي: من مكان ما في الشرق الاوروبي اكتب اليك.

كانت اثينا محطتي الاولى. وكان من المفروض ان أتسلّم هناك «فيزا» الدخول الى بلغاريا والمقعد المحجوز لي سلفاً على طائرة شركة «البلقان».

وهناك. فقط، اكتشفت انه ما من «فيزا» وما من مقعد على طائرة. كان عليّ ان اتحرك بسرعة لان عداد الحياة يتحرك بسرعة، وخشيت الا يكفي ما معي من نقود لتغطية نفقات الفندق والمطعم والتكسي و... «المسابح»، التي اشتريتها من اثينا بكثرة. لأن لديّ في الوطن وفي المنفى اصدقاء لا يطلبون من اوروبا سوى ان تتيح لهم امكانية التسبيح بهدوء!

ولمعـرفتي السـابقـة بدهاليز القلعة الكافكاوية وسراديبها المهلكة، فقد تدبرت أمري، وهبطت اخيراً في صوفيا للمشاركة في لقاء الادباء العالمي تحت شعار «السلام ـ أمـل الكوكب الارضي». وعلى امتداد ثلاثة ايام بلياليها طبخني السلام على نار الادب الضئيلة في ذلك اللقاء. وكان الحضور العربي ضئيلاً هو الآخر وارتجالياً الى درجة ان اللغة العربية لم تجد لها مكاناً الى جانب اللغات الست التي تقرر اعتبارها لغات رسمية. ومع نهاية اللقاء كانت قد انتهت لدي الرغبة في لقاء قريب آخر.

لا يعني هذا الكلام ان مشقة السفر ضاعت سدى، فقد ألقيت كلمة اغضبت الاغلبية الساحقة من هؤلاء السادة الادباء. وتشاجرت مع عدد منهم، احدهم ذلك

اليهودي الذي جاء ممثلاً لفرنسا وأبدى دهشته لانني امثل اسرائيل!. وقد تساءل بمنتهى الصفاقة: «أليس هناك شعراء يهود يستطيعون تمثيل اسرائيل»؟ قلت بخبث «لم امنح اسرائيل شرف تمثيلي لها، انا هنا بصفتي الشخصية وباعتباري شاعراً عربياً فلسطينياً.. ثم انه ما من شعراء عبريين يليقون بهذا المقام»!!

ومن ايجابيات ذلك اللقاء اني وقعت عقداً مع احدى دور النشر لاصدار مجموعة من قصائدي باللغة البلغارية وعلمت من المسؤولين هناك انك وقعت معهم عقداً مماثلاً قبل حين.

ولانني لم اتمكن من المشاركة هذا العام في مهرجان الذكرى الثلاثين لمجزرة كفرقاسم على ارض المجزرة وبين ورودها الحية بدماء الشهداء، فقد وجدت شيئاً من العزاء بين طلابنا المغتربين في بلغاريا والذين شاؤوا ان يسمعوا مني شيئاً عن هذه المجزرة التي يربطهم بها حبل السرة التاريخي رغم انهم ولدوا بعدها بكثير.

كما تعلم، فقد جهدت المؤسسة الصهيونية والاعلام الاسرائيلي الرسمي لاظهار المجزرة على انها مجرد شذوذ استثنائي، وكان لابد من بعض الطقوس القضائية والمراسيم الدعائية لتجنيب «دولة الضحايا» اي شكل من اشكال الاحراج في مواجهة الحقيقة. وكان على «ضحايا الدولة» ان يمارسوا طقوسهم هم في ديانة الدم وصلاة الدمار من اجل الحقيقة المجردة البسيطة المرعبة: المجزرة هي القاعدة لا الاستثناء.

«ويهطل المطر وتنبت الحقيقة»... درس تعلمته في ايام الولدنة. ارسلني ابي برفقة اخي سامي لزراعة بعض البذور في قطعة ارض ما زالت لنا. واوصانا بأن نضع حبتين في كل حفرة. الا اننا كنا على عجلة من أمرنا لنتابع الشيطنة وكرة القدم في ساحة القرية. وكان سامي آنذاك ولداً عفريتاً وكنت انا الولد الاهبل فاقترح علي ان نضع في كل حفرة حفنة من البذور حتى ننتهي من العمل بسرعة ونعود الى شلة الاولاد التي تنتظرنا على احر من بلاط الساحة. وهكذا كان. نفذنا المؤامرة وعدنا الى البيت بسرعة فدهش والدنا واستفسر وحقق، الا اننا تشبثنا بالشهادة المتفق عليها سلفاً: عملنا وفق تعليماتك ولم نضع في الحفرة الواحدة سوى حبتين اثنتين. فهنأنا الوالد على نشاطنا وكافأنا وصرفنا الى شلتنا وكرتنا.

ومرت الايام والليالي وأبرقت فأرعدت فأمطرت.. واستدعانا الوالد من جديد ليسأل مرة اخرى: كم بذرة وضعتها في كل حفرة؟ ودون ان نفطن الى عوامل الطبيعة وتقلباتها عدنا وكررنا: حبتين لا اكثر!

آنذاك فقد والدنا هدوءه الذي تعرفه فأطعمنا علقة لا تُنسى وكان يهتف بين شدة

اذن واختها: «سيهطل المطر وتنبت الحقيقة»! «سيهطل المطر وتنبت الحقيقة»!

وآنذاك فقط، ادركنا ان والدنا تفحص مزروعاتنا فعثر على غابة حقيقية مكان كل حفرة!

كان ذلك درساً وأي درس، الا ان والد الصهيونية كان رجل صناعة لا رجل زراعة. لذلك لم تتعلم درساً في طفولتها ولم تدرك انه ذات يوم «سيهطل المطر وتنبت الحقيقة!».. ومع ذلك فالمطر يواصل هطوله وتواصل الحقيقة ظهورها ونموها.. ومع امطار هذا العام الغزيرة ظهرت حقائق جديدة بشأن مجزرة كفرقاسم. فقد نشرت صحيفة «هعير» الصادرة في تل ابيب، في العاشر من تشرين الاول [أكتوبر] اعترافات عدد من «ابطال» المجزرة. ويكفي ان نسجل وبدون تعليق بعضاً من اعترافات الجندي شالوم عوفر:

«كنا مثل الالمان. هم اوقفوا الشاحنات وانزلوا اليهود منها واطلقوا الرصاص عليهم. وهكذا نحن. لا فرق ـ نفذنا امراً مثلما نفذ الجندي الالماني امراً ابان الحرب، حين صدرت له الاوامر بذبح اليهود». ويستطرد الجندي شالوم (سلام؟!): «انا انسان عديم الاحساس. غير نادم على شيء. فقد كنت متورطاً في امور أسوأ. فمنذ الخامسة عشرة من عمري وانا معتاد على المشي فوق الجثث».

من الواضح تلقائياً ان الجثث التي تعود شالوم (سلام؟!) السير عليها لم تكن جثثاً مستوردة من كوكب آخر.. وعلى اية حال فلنصغ اليه مرة اخرى: «كان الامر في غاية الوضوح. وكان واضحاً ان الامر جاء من فوق. اعلى بكثير من «الالوف مشني» (المقدم) يسسخار شدمي، وفي سياق المحكمة كان واضحاً ان اجراء تحقيق جدي في الموضوع من شأنه ان يوصل الى قائد المنطقة الوسطى الجنرال تسفي تسور والى رئيس هيئة الاركان موشيه ديان والى وزير الامن دافيد بن غوريون. وبعد المحكمة اخذوا تواقيعنا على تعهدات بحفظ السرية. وعقاب كل من يتكلم، السجن لمدة خمسة عشر عاماً».

ويهطل المطر، وتنبت الحقيقة.. الا انه هذه المرة مطر من الدم والدموع...
وكل مجزرة، وشعبنا بخير!

اخوك سميح القاسم
(حيفا ـ ١٠/١١/١٩٨٦)

سفر بلا سفر

● عزيزي سميح،

... واما انا، فما أَبْتُ من سفر الاّ الى سفر.

وفررت من تفسير هذه النغمة المتتابعة. فمن يجرؤ على الشروع في حديث السفر طالما لم يعرف حداً له؟

من البدء ونحن نسافر في ما ليس سفراً بقدر ما هو اقتلاع، وليس سفراً بقدر ما هو ضياع، وليس سفراً بقدر ما هو صراع... مدفوعين الى استبدال سفر بسفر بحثاً عما يُؤجل فينا اطلاق الصرخة المكبلة باعتبارات ليس اولها قداسة المكان، وليس آخرها سخرية الزمان...

لا اعرف عمَّ يفتش الجسد في الجسد، ولا عم يبحث الباحث في اللامكان عن مكان رمزي، ولا عـمَّ يبحث المسافر في اللغة، غير اسناد الروح على مكان للروح لا تحتاجه، الا حين تدرك بغتة، انها آخر ما نملك لنكورها عضلة للدفاع عن مساحة للصرخة...

ولكنني اعرف انني لا اسافر. هي الريح تجري بي واظنُّ اني احركها. هي الدوامة السـريعة. لا اسافر كالناس، لأن المسافر هو العائد الى مكان الخطوة الاولى. هو العائد الى العتبة الاولى او الاخيرة التي خرج منها. هو العائد الى عنوان شبه ثابت، ينتظره فيه أحد، او رسالة، او سجان، او قبر، لان المسافر هو العائد. اما المسافر من مكان ليس له الى مكان ليس له، المسافر خارج مكانه، فليس اكثر من تائه، حتى لو رفع المعنى الى مكانة البحث عن الفكرة، او الاغنية، او الحب الذي يحوله مرض الروح الى مرفأ.. قابل للانكسار!

الـذا، لم اسافر ـ يا عزيزي ـ غير مرتين. في كل هذا السفر لم اسافر سوى مرتين: مرة معـك، منـذ ثمانية عشر عاماً، على متن «فينوس» اليونانية التي سميتَها «فينوس القبيحة»، من ميناء حيفا الى ميناء اثينا، ومنها الى صوفيا. هل تذكر كيف كنا نبحث عن موسيقى ميكيس تيودوراكيس لنعرف انها ممنوعة في اليونان، وان

اسم الفنـان ايضـاً ممنـوع، فلم نسمع من بين اعمدة الهياكل القديمة غير حفيف العشب اليابس؟

وفي صوفيا، هل تذكر كيف كان اشقاؤنا العرب يخطفوننا سراً، ويحبوننا سراً، خوفاً من عرب آخرين ادانوا بقاءنا هناك في بلادنا، وطالبونا بأن ننهي التناحر الضاري بين هويتنا وشروط سفرنا بأن نتخلى عن جواز السفر او عن وثيقة السفر؟

كانت تلك الرحلة سفراً لاننا كنا عائدين، محمّلين بفرح الامتداد العربي، الى بيوت لا تبتعد عن بيوتنا غير خطوات قليلة، ونشعر ازاءها بمنفى النفس الذي لم ينتقل من النفس الى خارجهـا الا بوضـع هذه المفارقة كلها مقابل مسيرة العذاب التي يقطعها اخوتنا، احياء وشهداء، من أجل ان يصلوا الى خطوة اقرب الى سمائهم الاولى، الى حيث يتقلص المنفى الكبير الى منفى صغير، منفى في الوطن...

منذ تلك الايام ونحن نسافر. نسافر في الحنين وفي النشيد المقطوع الى عالم لا تُغرينا فيه الف ليلة وليلة، بل تغرينا فيه الف هزيمة وهزيمة لم تكسر فينا قامة الامل، بقدر ما حطمت فينا الوهم ليزداد تعلق السجن بفضاء لا يتخلى عنه مهما تبدلت الفصول...

ومنذ تلك الايام، ونحن ندرك ان ما يُسافر منا هو النشيج، ليعلو على افئدة محروقة بالامل المعاكس قوة نشيد يصلح لأن يكون طريقاً يسلكه المنفيُّ الى مكان يستولي عليه الآخر، دون ان يتمكن من تغيير طبيعته، فشقائق النعمان تتفجر كجراح الحب الاولى في موعدها في نيسان. وللصنوبر دائماً.. للصنوبر تلك الرائحة القادرة على تحويل السجن الى معبد!

ومنـذ تلك الايام، ونحن نسمي المكان بالشغف اياه الذي نُسمي به الكائن. نسمي القرى والمدن والنبات والطير كما نسمي اولادنا وآباءنا. فهل كنا نؤلّبُ على السجن والمنفى معاً قوة الاسماء، ام كنا نحشد الحي والبسيط لنبعد النمط؟ ام كنا نتكاثر في ما يتكاثر فينا من اسماء لنغلب ما يتكاثر حولنا من نسيان وسواد؟ ام كنا نحاول اعادة تركيب المكان بأسمائه لان من سمى مَلَكَ وامتلك!

لا ادري...

ولكنني ادري اننـا ادركنا الحاجة الى اعلاء شأن الفروق الصغيرة بين السفر، والـرحيل، والتيه، والـذهـاب، والاياب، والغياب، والتنقل، والانتقال، والترحال، والخـروج، والـدخـول، والضياع، واللجوء، والتشرد، والهجرة، وما يحركه اختلاف الخطوة عن الخطوة من دلالة!

وسافرت مرة ثانية...

وكنتِ معي مرة اخرى...

سافرتُ من الحياة الى الموت في فيينا، وعدتُ من الموت الى الحياة. قيل لي انني ودعتُ الحياة بلفظة واحدة: «يَا». أمن اللائق ان اصف الموت.. موتي؟

اخترقت غابة من المسامير صدري وانتشرت في كل الجسد. ذابت طاقتي وسقطت على ارض الغرفة. ولكن سيرة حياتي حضرت كلها لأعرف ان الموت يحيي ما مات من الذاكرة. كان الشريط كلمات بيضاء مكتوبة على لوح اسود. رأيتُ كل ما كنت قد رأيت. وتوقف الأنين عن الأنين، لانه لم يعد في وسع الناي ان يئن. ثلج ثقيل على صدري، وعرق بارد على جبيني. ونمت. نمت على غيمة من قطن ابيض. تشرب النوم اعضائي وامتصني تماماً. لم اشعر من قبل بمثل هذه النشوة، نشوة النوم الابيض على سحاب ابيض. بياض لم أره من قبل. بياض من ضوء ناعم. شفاف ولا يطل على شيء. لا يعكس شيئاً. بياض خلفه نور وخلف النور بياض مصقول. وانا خفيف، يحملني سحاب خفيف معلق على هواء ثابت. لم اسقط عن شيء ولم ارتطم بشيء. لم اسمع شيئاً ولم اشم شيئاً ولم ألمس شيئاً. ولكنني رأيت ريشة بيضاء نائمة على سحابة بيضاء واقفة على هواء ابيض...

وحين أعادوني من نشوة النوم الى عذاب اليقظة، بأسلاك الكهرباء وثقوب في الساعدين وفي الفخذين، شعرتُ بالاختناق. لماذا اعادوني من سحر الراحة!

كان عليَّ أن انتظر اسبوعين لأعرف الحقيقة: لقد اعادوني من الموت الذي استمر دقيقتين الى الحياة. لقد اعادوني من النشوة الى الوجع. أهذا هو الموت؟ ما اجمله! أهذا هو الفارق بين الحياة والموت؟ ما أكبره!. لقد أزعجوني في نومي الابيض الجميل. ايقظوني في ساعة لا أريد ان استيقظ فيها. لقد أعادوني من السفر الى... الرحيل!

بعد يومين، جئتَ لتجلس على سريري...

لماذا انت؟ لماذا انت؟

أومن بحدس الطبيعة، ذلك المجهول الذي لا ينفي عدمُ ادراكنا له وجوده. فكثيراً ما افكر بشخص لم أره منذ سنين طويلة لأراه امامي فجأة او لأسمع صوته على الهاتف. وكثيراً ما اتعرف على مشهد لا اعرفه من قبل، فأراه بعيني من رآه عدة مرات من قبل. ماذا يُسمى هذا الحدس، هذا التواطؤ بين ما كان وما سيكون؟ كأن المستقبل يرابط خلف الماضي..

هل هو نوع من السفر؟

سفر لا ينتهي. سفر لم يبدأ.

ونسافر من الماء الى الماء. نسافر من الطين الى الطين، فكيف نعرف سفرنا بما هو اقل تفاهة من علاماته الخارجية: جواز السفر، وثيقة السفر، «حرس الحدود» مكان الولادة، مكان الاقامة، جهة المغادرة؟

في اللغة نجد حلولنا. في اللغة نحاول ان نزوّج المعلوم الى المجهول. في اللغة نسافر ونعود. في اللغة نرسي للسفر قواعد سفر رمزية تكسر ذاتها لتبني ذاتها او تكسر السفر. في اللغة نصالح ما لا يتصالح في الواقع... وفي اللغة نعلن حربنا ونقيم سلامنا.

ولكن، اين نسافر خارج اللغة؟

اما من سفر في هذا السفر!

اخوك محمود درويش

(باريس ـ ١٩٨٦/١١/٢١)

لقاءاً.. وإلى الوداع!

● اخـي محمود،

في شمس واضحـة وضـوح الدم الجديد المشرق من بير زيت وغزة: وبأصابع معقمـة بدخـان الاطارات المشتعلة على مصليات الشوارع، اكتب إليك مسافراً مقيماً، مأخـوذاً بنبـل الحجـارة مسكـوناً ببراءة الزجاجات الفارغة، سلاح الخضر العصـري المشهر في وجـه الدبابة وناقلة الجنود. ما من بتهوفن هنا وما من احمد عدوية، وحـدهم ابطال شاتيلاغراد وعين الحلوة غراد وصبرا غراد وبرج البراجنة غراد، يعزفون دمهم الكبير الصاخب على ايقاع القصف والقصف المضاد، هنا، هناك وفي كل مكان.

ما من هدوء على جبهة الشوق الفلسطيني، ما من هدوء على جبهة القلب ليهدأ اولئـك المـركونون على اعتاب رونالد ريغن، وليهدأ اولئك الذين جعلوا من راية العرب والمسلمين ستاراً لشحنات الاسلحة السرية الى جيوش فارس.

كان هاجس السفر محور رسالتك الاخيرة، فهل تذكر كيف ضحكنا حين طلبوا الينا اختيار قصيدة في موضوع السفر لندوة غرينوبل؟ ضحكنا، كالطير يضحك مذبـوحاً من الالم، لان السفر ليس موضوعاً لقصيدة، بل هو مضمون الحياة وهو مضمون الموت في لغتنا. السفر بكل مرادفاته ومفرداته، السفر بكل ابعاده ومعانيه، بكـل حسـاسينه وكواسره، بكل يابسته ودموعه، بكل مفارقاته وحقائبه وبُقجه، السفـر علانية السفـر سراً، السفـر بالجوازات المزورة والتاريخ المزور والعناوين المزورة، السفر الذي يبدو دائماً وابداً بالاتجاه المعاكس، خطأ، صدفة، احتمالاً، محطات بديلة، وتاريخاً بديلاً، هذا هو محتوانا الشخصي، هذه هي قصيدتنا الذاتية. بيد ان عنادنا العاقل وجنوننا الواقعي وايماننا العلمي (سمتنا الخاصة) امور لا مرد لها ولا مفر للعالم من التعامل معها باعتبارها الشكل الأرقى للتنسيق الكامل بين اللاعب الاولمبي وبـين اعضاء جسده المدربة والمهيأة لاداء القفزة الصائبة والظافرة، على اكمل وجـه.

حين حطت مكالمتك الاخيرة عندليباً على شجرة الروح كنت وبعض الاصدقاء مغموسين في الاعداد لمهرجان الذكرى العاشرة لرحيل صديقنا وحبيبنا راشد حسين، هذا المسافر الجميل الذي حاول ان يختار منفاه فاختاره المنفى.

واذا كانت طرق المسافرين تتشعب على هواها، وتنطلق كيف شاءت في مهبّ ريحها العاتية ونسائمها الرخية، فإننا ما زلنا قادرين على استجماع الجهات بين اصابع يدنا الواحدة، بما يليق بالحوذيين المتمرسين، وما زلنا قادرين على استحضار رحلاتنا، بكامل تفاصيلها، وانك لتذكر معي رحلتنا تلك بصحبة راشد حسين الى قرية المكر الجليلية ذات يوم من صيف ١٩٥٨. كنا مدعوين الى مهرجان شعري في ساحة القرية. ولم تكن شرطة اسرائيل مدعوة، الا انها قررت المشاركة على طريقتها الخاصة، فأغلقت مداخل القرية وقرفصت على الاسفلت متأهبة لاستقبالنا بالكلبشات المصنوعة بتقنية عالية وبما يتناسب مع مقاسات معاصمنا العاصية.

ولاننا لا نستطيع الا ان نسافر فقد تداركنا الامر على نحو لا يخلو من طرافة بقدر ما فيه من أسىً. لقد هيأ لنا اهلنا في المكر عربة تراكتور استلقينا فيها لتقطع بنا طريقاً زراعياً بين الاشجار الواطئة، وحين هبطنا في ساحة القرية وهلل «الكابتن» فرحاً بانتصاره الشخصي و «القومي» على مكائد الشرطة، كانت بقايا السماد الطبيعي المنقول سابقاً في عربتنا الضخمة، عالقة بقمصاننا. وكان راشد آنذاك أسوأنا حظاً لانه كان يرتدي قميصاً ابيض جديداً، ولم نكف عن مداعبته بالسؤال عن نوع العطر الذي يستعمله.

واليوم، لا استطيع الا الاعتراف بأن ذلك «العطر» الذي «استعمله» راشد حسين يحمل في رئة الذاكرة عبق الجنة نفسها وعبير الخلود الخالد.

وها أنذا اقترح عليك ان تبعث الينا برسالة الى راشد نقرأها بالنيابة عنه وبالاصالة عنك في مهرجانه العتيد.

اما الآن، وفوراً، فسأمضي لوداع السيدة الجليلة والنبيلة والدة رفيقنا وصديقنا الكبير اميل توما.. يبدو انها لم تعد قادرة على احتمال الشوق فسافرت.

والى اللقاء في مطار الريح، ذات سفر قريب.

اخوك سميح القاسم

(حيفا ـ ١٩٨٦/١٢/٧)

شتاء

● عزيزي سميح،

لا أعـرف الهـدوء منذ شهور. ولا أجد وقتاً للتعويض عن الوقت الضائع بين مدينتين. ومن فرط ما شاهدت من مدن لا اعرف اية مدينة. كأنني سحابة في الريح او صوت على حجر. لقائي وداع! وليس وداعي لقاء دائماً.. ومنذ خرجتُ من عزلة الصيف الطويلة التي ربطت فيها ساعتي على وقت الورق الابيض، متباهياً بانتقالي الصارم من هواية الكتابة الى حرفتها.. وانا أدور في صخب الذهاب السريع من مكان الى مكان.

وها أنذا في شتاء جديد..

اشجـار عارية واشجـار من فضـة وثلج اصطناعي. فبعد قليل سيولد سيدنا المسيح، وابن بلدنا، وبعد قليل يولد من خطاه عام جديد. وبعد قليل سننخرط في عادة التأمل في ما صنعت بنا الجلجلة، وفي ما صنعنا بأيام العمر الهاربة منا كالاولاد...

شتاء جديد، وقلب جديد..

افتش في قلبي، الليلة، لأتلمس صوف الفراغ الناعم، فأصفق لما فيه من حب يورق ويكسو اغصان الشجر. أهنيء نفسي على هذه العافية. ولكن، كيف أسرق وقتاً من الوقت لاتابع انضباطي السابق بصباحات صارت اقصر، خاصة وان الليل ليس مهنتي. ليس لي ليل لأحتفي بشتاء لا يفعل ما هو اكثر من اطالة الليل، وحشو القلب بالتوجس من الوحدة..

لا أريد ان اكون وحيداً.

ولا اريد ان أصـدق ان الشعـر وسيلة للانتصـار على شيء، او حـل لعذاب الضياع تحت المطر. ففي الشعر ايضاً غربة. وها أنذا أتذكر المطر الاول على بيادر وحقول، واسترجع تلك الرائحة الاولى في برية حاصر فيها المطر ولداً لم يجد ما يلوذ به سوى الهتاف اليائس لأم لا تسمع الانين..

كم أحب المطر.. كم احب المطر الأول وأصغي فيه الى ما يبتعد، وأقبض فيه على رائحة لا تعرّف بغير اصوات النايات الجائعة الى إناثها. فلماذا لا يشبه شتاء شتاء؟ ولماذا يحرك الشتاء فينا هذا الحنين الى الماضي او الى المجهول؟.. ولماذا.. لماذا يكبر الحب حين نتذكر الليلك؟

سأزج بنفسي في ما لا يُسيِّجها او في ما يجعل الطاعة بهجة، في لحظة ينتهي عندها السؤال ليبدأ الانجراف. حصان معلق على وتر، ما عليه سوى الاندفاع الجميل الى الهاوية. وليست الهاوية سوى قمة مقلوبة. لو استطيع.. لو استطيع فقط ان أجد هامشاً بين عاصفتين أو رصيفاً بين هاويتين. لأنني اريد ان اقبض على الصهيل.. واكتب. اريد ان ادفع تلك العربات الغارقة في الثلج، الى الامام قليلاً، الى الوراء قليلاً، لا لأنني اشفق عليها من عزلة الاغاني، بل لانني لا اريد ان اجد نفسي هناك. فلأحصِّن نفسي او لأعودها منذ الآن على ذلك المشهد: ثلج، حصان، عربة، واغنية لا تصل...

شـــتـــاء؟

فكيف اغيِّر ايقـاعي كما يغيِّر الشتاء مداري؟ أمن حطام القلب يصاغ هذا الليلك! وماذا يفعل الشاعر في معبد مهجور؟ ماذا يفعل اكثر مما فعل في انقضاض الشتاء على امرأة تدربت على الغياب.. تدربت الى درجة الوقوع في عبادة عيني ثعلب!.. وها أنذا ادندن: هي امرأة.. هي امرأة..

شـــتـــاء،

هو فصل الشاعر. هوية غامضة لبداية النهاية، او لنهاية البداية. ميلاد من موت. موت من ميلاد. نزول السماء الى الارض. صعود الارض الى السماء. وانتظار لما يسفر عنه القلب من مرض أو عيد.

شـــتـــاء،

حدائق للنسيان..

شـــتـــاء؟

مخيمات تسعفها السماء بماء لتواصل القدرة على تلقي «الموت الاخوي». وأحمد الزعتر يتابع عمر الحصار عشر سنين اخرى، عشرين عاماً آخر في رحلة من الصفيح الى الصفيح. فماذا اقول له وقد تألب عليه جنون التحالف الشيطاني وهستيريا القدر؟ العاصمة وفروعها المتغيرة. وهو هو يعيد انتاج هويته النارية. ويحرق اوراق هوميروس ليطهو طعامه الوحيد: الخبيزة. ويدثر بشبق البقاء العاري. ولا يأخذ من اسئلة شكسبير غير ما يجعله هو هو: وحيداً في مألوف لا يألفه.

احمد الزعتر وشاتيلا وسائر الاسماء لا يجد ما يقول. أما من مقطع آخر للنشيد! لم يحدث شيء. لم يحدث شيء. فلتبك السماء كما شاءت ان تبكي على حالها. اما هو، فما له من السماء الا ما يضيف اليها. يا احمد العائد من الموت باسم جديد للمخيم، بحصار جديد للحصار! متى تكف عن افراغ اللغة، وليس الرمل رملاً.. وليس الازرق للازرق!

شـتـاء،

واحمد الفائض عن نشيده، المدعو الى آخر حفلات الموت، ينبت من عناصر الطبيعة، من ذاته ومن أقصى بقاع اليأس، بطلاً للبساطة.. منذوراً لما ليس له: لقدرة الامة على الاستمتاع بما يقتل فيها الألفة والروح، وبما يحقر البطولة وينزلها الى مستوى العار. فليس قتل الفلسطيني مدهشاً بقدر ما هو أمر عادي، وطبيعي، ويومي. وليس مدهشاً ابداً بحث الباحثين عن مقبرة جماعية لشعب زاد عن الأمة وزاد عن الارض وزاد عن التاريخ. فلن يغفر احد لهوية احمد الزعتر حتى لو سمى نفسه احمد العربي، او لانه سمى نفسه احمد العربي. فماذا عساه يفعل في هذه العزلة غير ان يتناسخ في كل دقيقة ويرفع عاره الوحيد في فضاء الكهنة القتلة!

الى أين آخذه؟ الى أين يأخذني في هذا الشتاء؟ وكيف نقوى، هو وانا، على سأم التكرار وابتكار معجزة الدهشة وسط ركام الخيانة الكبرى المرفوعة الى مستوى القداسة، على مرأى من امة لا يكفي القمع، وحده، لتفسير ما تستمتع به من عجز عن التعديل الطفيف على المشهد، كأن يسحب الاطفال المذبوحون الى الكواليس، ولتنزل العبودية من مستوى الفكرة الى مستوى الفكرة..

شـتـاء؟

شتاء من دم؟

مطر احمر على المخيم. ولا يملك شعبي غير قوة هذه العزلة هنا وهناك. والنشيد جسد. كأن الواقع هو الذي يُقلّد اللغة. كأن الطبيعة هي التي تطمح الى محاكاة النشيد. سأصرخ بك ثانية: خذ عني القصيدة! خذ القصيدة عني، لأتمكن من الوقوف مرة اخرى على شيء: رأسي، او قدمي، او روحي. ولأمسك خيطاً من خيوط هذا الفضاء الهارب. ولأصدِّق ان الحرية والوطن يستحقان صراخ هذا الدم!

ولا تصدقني ان توازنتُ خارج هذا التوتر، فليست لي ارض وراءه. ولا أُصدّق ان في وسع هذا الرمح ان يشفيني إن خرج من خاصرتي. ولا أصدِّق انه شرط حياتي وحريتي. وليست الريح تحتي ـ كما قال المتنبي ـ ولا الريح حولي. واكاد أصرخ: ان الريح نسيجي.

شـتـاء؟

وأبحث فيَّ عن احمد العربي. وفي الصمت اسأل: هل من جديد؟ ولكن، لماذا يأتي اهل المغرب العربي الى صوت قال لنا الصمت انه حوصر حتى الذبح؟ ولماذا تحميني الشرطة من علاقة العرب بفلسطين؟ ولماذا تضرب الشرطة علاقة فلسطين بالعرب؟ هل تدرك التبـاس السلطة حين تنقسم ادواتهـا على الهشـاشـة القائمة بين ذاتها وواجبـاتهـا؟ ان رجـال الشـرطـة الذين ضربوا الشباب المحيطين بنشيج القلب الفلسطيني هم رجال الشرطة الذين طالبوني بصورة تذكارية! والرقيب الذي يمنع تداول كتبي هو نفسه الذي طلب مني ان أوقع لابنته على كتبي. ورجل الأمن الذي أوقفني ساعات في المطار هو الذي طلب مني ان اكتب على بطاقة هويته بيتاً من الشعر.. للذكرى..

ويا عزيزي، خـذ القصيدة عني!
خـذ عني القصيدة... في هذا الشتاء...

اخوك محمود درويش
(باريس ـ ٢٠/١٢/١٩٨٦)

احمل قصيدتك.. واتبعني!

● اخـي محمود،

أمطرتْ رسالتك الشتائية على القلب، وكان عارياً كما ولدته غربته، فلا لوم عليه اذا ارتجف، عصفوراً في العاصفة، ورقة «نابية» عن شجر الحكمة، او ولداً من اولاد المخيم الصغير تحت خيمة الله الكبيرة.

طقسٌ ماطر ورسالة قارسة، وبريد لا يعرف الرحمة. بريد بالاتجاه المعاكس دائماً وابداً، حتى لكأن لعنة فرعونية تلاحق هواجسنا واوجاع اصابعنا النازفة حبراً ودماءً على ورق لا يرتوي.

أيُّ بريدٍ هذا؟

وأيّ سعاة، هؤلاء؟

ويا أخي العزيز، كان الثلج الاوروبي يحاصرك بشراسةٍ حين انتبهت ازاء المرآة الى مزيد من نديف الثلج، هابطاً من سماء الـروح، طالعاً في الشعـر الابيض على الصدغين... هوذا اخوك دوريان غراي يتهاوى من فضاء الحياة الصاخبة الجامحة، لتنسجم خطاهُ، راغمة مكبوحة، مع ايقاع الزمن الرهيب.

كعادتنا، في منتصف ليلة رأس السنة، كنّا معاً ولم نكن معاً، كعادتنا.

حاولتُ العثـور عليك في باريس، وتركتُ لك شجن المعايدة على رنين الهاتف اليتيم. وحين عثرت عليَّ بعد ايام اعدت اليَّ شجني عبقاً من وردة حزنك... وكان معنا آنذاك راشد حسين ومعين بسيسو، ورفاقنا الآخرون من أقمار الكلمات الغائبة في بطن الحوت.

عـامٌ جديد.

اهو حقاً كذلك؟

وكيف نحصي نحن اعوامنا؟

لنبدأ اذن، لنبدأ تقويمنا بعام الفيل. وليكن هذا عام المخيم. اما العام القادم فسنجد له اسماً آخر جميلاً رشيقاً بقدر يتناسبُ عكساً مع ما نحن فيه، أمةً وشعباً، أرضاً وسماءً، بشراً وشعراء.

وما دمنا نحلم بترويض الزمن، فسأفضي لك باحساسي الراهن وجهاً لوجه ازاء هذه اللفظة المجردة «الزمن»:

أنذا مشدود بحبال من مسد الى جوادين اثنين، احدهما ابيض والآخر اسود، يخبّان باتجاهين متعاكسين... وانني لأسمعُ صوت تملّع اللحم عند الأبطين وما بين الفخذين. انـه الزمن الزمنان، ذلك المرهون بدقات القلب وذلك المتناثر مع دقات الساعة.. الـزمن النابع منّا ليصبُ بعيداً بعيداً في اعماق الأبدية.. والزمن القادم من غور سحيق في غموض المستقبل ليصب في اعماقنا نسلاً او كلمات، غبطة او عزوفاً، ندماً او اكتفاءً.

ثمة موقعٌ غير محدد وغير متوقع، للارتطام الهائل في نقطة ما بين ما تعارفنا على تسميته «بالروح» وما درجنا على تعريفه «بالجسد».

وهناك، في تلك البؤرة المدومة، اقفُ عارياً مأخوذاً محموماً، رافعاً ذراعي في محاولة مستميتة لالتقاط الشمس ولترتيب المجرة وفق ذلك الحلم البسيط والمركب في آن، وعلى صورة تلك الأمنية الساذجة والعميقة في آن: ليكن الوجود اجمل قليلاً. لتكن الحياة افضل قليلاً وليكن لنا ان نحظى بحصة أوفر من السعادة!

ولانني اغتسلت نهائياً من اثم المثالية، فلن يلوثني وهـم السعادة بمعناها المطلق. ولن اتملّص من الواقع الى الانشاء. وسأظلّ قادراً على استشفاف سبب للسعادة، حتى في اجـراء يبـدو عادياً، كالاجـراء الـراهن لاعـادة توحيد صفـوف الكتـاب الفلسطينيين، وفي انتصار القوى الوطنية التقدمية في انتخابات المهندسين في غزة، ولجان الطلاب الجامعيين في بيرزيت وبئر السبع والقدس. وسأظل قادراً على احتواء الشقاء القادم مما يسمى بحرب الخليج، تلك المذبحة المجنونة التي تمنح اسحق شامير متعـة القـول: «ان انتصار اي من ايران او العراق في حرب الخليج يُعتبر تهديداً لسلامة اسرائيل».. او تلك المتعة «الشعبية» التي يبثها الاعلام الاسرائيلي بسخرية واضحـة: «تقتضي مصلحـة اسـرائيل ان ينتصر الجانبان».. او «تقتضي مصلحة اسرائيل ان ينهزم الطرفان!».

ـ خلاصة للسعادة والشقاء، متزامنين متكاملين متماسكين، تأتي القصيدة. فهل احدثك عما اكتبه الآن؟

كنت اخبرتُك في وقت سابق انني أكتب سربيةً عن «السقوط». والذي حدث، ان

اطــار الســريبّة تحطم يوماً بعد يوم ليتحول العمل فيها بعد من الشكل الواحد المتنامي والممتد، الى مقطعاتٍ اشبه بالشظايا، نظراً للحالات النفسية التي تتناوبني وتبعاً لها. بيد ان الاحساس العام والشامل بالسقوط لا يزال قائماً، وما زال هو المحور الاساسي الذي تند عنه الانفجارات الروحية وتدور في فلكه اجرام القلب.

وبعــد، فان معضلة عصيبــة ستــواجهني حتماً. فيبدو لي ان قصائد «السقوط» ومقطعاته ستكون اقل قدرة على الانتشار والوصول. ومع ان الانتشار هذا ليس هدفاً بحد ذاته، فلا استطيع الادعاء بأنه مسألة غير ذات بال!.

وكنتُ وعدتُ «دار الاسوار» في عكا بهذه المجموعة، قبل ثلاثة اشهر ولقلق ما. ابطأت وارجأت، ولعلها المرة الاولى في حياتي التي اتردد فيها، قبل دفع مجموعة من القصائد الى المطبعة.

بعد دقائق اكون قد تجاوزت منتصف الليل بساعة كاملة. وبعبارة أُخرى، أدق واكثـر تواضعاً، يكون منتصف الليل قد تجاوزني بساعة كاملة... حملةٌ اوروبيةٌ جديدة على شكل منخفض جوي. ليل وبرد. بُرنس مغربيٌّ على كتفيّ، ومطرٌ على ليمونة الدار. متران من الثلج الاسود على جبل الشيخ، جبلان من الحزن الابيض على قلبي.

وانت هنــاك. نائمٌ الآن مثل افراد العائلة الآخرين. وانني لأسمع رجع انفاسك الوجلة. لعلك تحلم الآن بشتاء آخر في زمن آخر وفي جغرافيا اخرى.

لعلك تبكي في النوم.
او لعلك تبسم راضياً مرضياً، لوجــه صبــوح يشــاطرك الغربة وقهوة الصباح المتكررة في رتابةٍ قاصمة.

مطرٌ عندنا، وليس لنا.
مطرٌ لا ينقطع.
هرّةٌ غريبةٌ تموء في مثل هذا الوقت الغريب.
وقلب يموء مثل هرة. منبوذة تحت المطر.
مــطــرٌ ورسالتك.

وها انت تزفرها مرة اخرى: «خــذ عني القصيدة». تزفرها ولا مفرّ. لن يأخذ احد عنك

قصيدتك. يا اخي وحبيبي لن يأخذ احد عنك صليبك.
ولن يبقى لك الا ما يبقى لي.
ولن يبقى لنا سوى صيحة ذلك الفدائي الشاعر:
«احمل صليبك واتبعني!»... «احمل قصيدتك واتبعني».

أخوك المحبّ والمشتاق
سميح القاسم
(الرامة ـ ٢١/١/٨٧)

شيء.. من لا شيء

● عزيزي سميح،

لا أحد يحلم كما يحلم الآخر. ولا احد يحلم نيابةً عن احد..

ولكن الشعر يحلم بأن يحلم للجميع ونيابة عن الجميع. اهكذا نستطيع ان نفسر هذه الحـاجة الدائمة والغامضة اليه؟... وبالوجع المُشتهى لحب لا نريده، ولامرأة نحبها وندعي اننا نحبها هي، لا الحبَّ نحب؟ او ندعي العكس كأن نحب الحب في امرأة لا نحبها..

ونـتـغـيَّـر..

نتغير بلا مقدمات واضحة، نتغير بلا سبب..

في وسع طائر عابر ان ينتشلنا من هاوية حين يحمل بمنقاره خيط الأفق.

وفي وسع طائر زائر ان يُهيل علينا التراب.

لست متطيّراً الى حد الهوس. ولكنني حين حملت فنجان قهوتي الاول لاحتسيه على مهل، سمعت أنيناً غريباً في ركن الغرفة، أنيناً قادماً من رماد الصباح. حدَّقت في مصدر الأنين فلم أبصر شيئاً. خيل اليّ انه قادم من الحائط فاقتربت لاجد جسماً غريباً نائماً في قبعة المصباح الكهربائي. هل تعرف ماذا وجدت؟

وجـدت طائـراً كبـيراً مختبئـاً هنـاك. في منقاره الاصفر الطويل حصوة كبيرة، فاستبشرت خيراً في البداية. ولكني سرعان ما خفتُ من عدم خوفه مني. لوّحت حوله بيدي فلم يتحرك. صرخت به فلم يحاول الطيران. كان يحدِّق فيَّ عن كثب. كان يحدِّق بعينـين مفتـوحتين بلا انقطاع ولا وجـل. كان يهددني ويتوعدني. يخترق صدري ويتحول الى وحش. استنجدت بما أملك من مظلات لأدفعه الى الرحيل عن غرفتي وعن صباحي، فلم أفلح..

حملت قهوتي وخيبتي واختبأت في غرفة أخرى. ما هذا الطائر المتحول الى رسالة لا اريد ان أستلمها؟ وقد اقتنعت تماماً بأن هذا الزائر ليس طائراً. فما هو.. ما هو؟

هل في وسع المخلوقات الجميلة ان تحرك فينا هذا التشاؤم، وان تسدد الينا مثل

هذه النظرات الجارحة؟ لقد استطاعت «الخادمة» ان تخرج الطائر من المصباح، وان تلقي به من الشرفة ليعود ثانية، وثالثة، ليموت في المكان الذي اراد الموت فيه، في مصباحي. ولكن، لماذا كان يعض على هذه الحصوة الكبيرة؟ هل كانت رسالة من احد؟ هل كانت هدية؟ وماذا اراد ان يقول لي؟ ماذا اراد مني؟

لا احد يستطيع ان يمحو الحاح المشهد مني، فالى متى تطاردني العينان وتلك الحصوة!

وقالت لي العرافة «جونيا» الأشورية بعد شهور، دون ان احدثها عن ذلك الطائر: لا تخف مـم رأيت. ستعيش. كان ذلك الطائر يموت نيابة عنك. وكان يترك وراءه سريراً بارداً لامرأة مهجورة. هل تعرفها؟

قلت: لا اعرفها.

قالت: اني اراك تكذب، فهل من عادتك ان تكذب؟

قلت: في مثل هذه الامور.. لا بد لي من ان اكذب، ولكن، اين رأيت الطائر؟

قالت: في مخيلتك..

«جونيا» ليست ساحرة او عرّافة. انها عالمة طـب، وعضو في اكاديمية العلوم. في يديهـا طاقة كهربائية قادرة على تحديد المجال المغناطيسي للجسد البشري بدقة كاملة، مما يؤهلها لمراقبة اي خلل في هذا المجال.. الامر الذي يشير الى وجود مرض.. تستطيع ان تشخصه.

أوقفتني دقيقتين، دون ان اخلع شيئاً من ملابسي. حركت يديها حول جسمي وقالت لي: في قلبك خلل. في الجهة اليمنى من اسفل البطن خلل. في مثانتك التهاب. في ساقك اليسرى تصلب شرايين. وفي ضرسك الثالث على اليسار وجع.

قلت مازحاً: وماذا في بالي؟

قالت: امرأة تتلاشى، واسم زهرة تتفتح..

قلت: واين اسكن؟

قالت: على الطابق الخامس في بناية محاطة بالاشجار.

ذهبت الى المستشفى، وبعد اسبوع من الفحوص والتحاليل الدقيقة، قال لي التقرير الطبي ما قالت «جونيا» في دقيقتين...

مازحت البروفسور: وماذا في البال؟

قال: ماذا تعني؟

قلت: هل ترون اسماً لزهرة تتفتح؟

قال: هل انت شاعر؟

قلت: لا. ولكن «جونيا» عرفت ما في جسدي قبل ان تعرفوا. وقالت ايضاً ان في بالي اسم زهرة تتفتح.

قال: «جونيا» طبيبة، وليست عرافة.

ثم تـلا عليّ وصاياه الطبية: لا تدخن. لا تشرب. لا تغضب. لا تتعب. لا تنفعل. لا تقلق. لا تعشق. لا تكتئب. لا تضطرب. لا تفكر. لا تسكر. لا تسهر.

صحت: كـفـي.. كفي. انك قادر على تحويل اي شاعر الى حمار.

قال: ولكن، هل انت قادر على تحويل الحمار الى طبيب؟

هل تنقصنا مثل هذه السلامة؟ هل ينقصنا حمار مثلي؟ وتذكرت قصة عن سجين سياسي محكوم بالاعدام. وقبل تنفيذ الحكم بالاعدام بساعات سألوه عن أمنيته الاخيرة، فقال: اريد ان أتزوج لانجب ولداً يحمل اسمي. استغربوا طلبه، ولكنهم احضروا اليه مومساً وأدخلوها الى الزنزانة. بعد دقائق خرجت دون ان يقربها. سألوه لماذا تخلى عن رغبته في الزواج، فأجاب: ان هذا الوطن المليء بأولاد العاهرات لا يحتاج الى ابن عاهرة جديد!!

ولكن اسألك، يا عزيزي، أليس الحمار الحيُّ خيراً من الشاعر الميت؟

ربــمــا،

بيد اننا لا نريد ان نصدق ان من المجدي لاحد اخلاء مجال الشاعر من قليل من «المثالية»، لا بمستواها الفلسفي بالطبع. والا، فما معنى ان يتمكّن طائر من قتلك، ويتمكن طائر آخر من بعثك حياً؟ ففي منطقة الروح.. في اقاليم الغامض من النفس مجال لم يصل اليه العلم بعد. ولم يُر او يعالج الا بالسحر والشعر، وبقدرة غامضة على رؤية ما لا يُرى. اذن، كيف قرأت «جونيا» اسم زهرة تتفتح في البال وفي القلب، هي امرأة تطعمني الشتاء كحبة الكستناء المشوية على موقد الفرح. هي امرأة.. هي امرأة حلمتُ، قبل أن أراها، بأنني أعانق زهرة ونطير على غيمة بيضاء.

وكيف استطاعت فتاة ان تبوح لامها بمخاوفها: لا اريد ان امضي معكم في هذه الرحلة، لانني خائفة. تساءلت الام: مم تخافين يا ابنتي؟ قالت: «رأيتُ في المنام طائراً ملتفُ الســاقـين، منحني الرأس». ولكنهم اخذوها الى الرحلة. وفجأة ارتمت الفتاة المرتجفة في حضن امها: «انا خائفة.. خائفة. لقد جاء الموت». وقبل ان تكمل جملتها ارتطمت سيارة العائلة بسيارة اخرى ارتطاماً قذف بالفتاة الى البعيد. ومن بعيد نظرت الام لترى ابنتها تتخذ هيئة طائر المنام: ملتفة الساقين، منحنية الرأس، وميتة!

فماذا يقول العلم؟

وها أنـذا أخرج للتو من حلم: فتحتُ باب شقتي لآخذ بريدي الصباحي، فرأيت حبات من البرتقال تملأ مدخل البيت.. برتقال اصفر، ذهبي، تتقدمه برتقالة مربعة الشكلِ في حجم الباب.

وانت تعرف انني لا احب مذاق البرتقال على الرغم من ان لونه يفتنني. وحين صحوت أكلت برتقالة، وانتظرت ما تسفر عنه هبات الحلم. ثم تذكرت اول امرأة ارغمتني قبل عشرين عاماً على اكل البرتقال لاثبت لها انني احبها. فهل كانت تشبه امرأة الشتاء الآن التي ترغمني على الا احبها وحدها، بل ترغمني ايضاً على ان احب حبها، وما يشيعه فيّ من اشعة الروح، وما تطلقه في جسدي من خيول راكضة؟

ليس ضرورياً، في هذا السياق، ان نسأل: هل الـواقع هو الذي يركّب مادة احلامنا؟ ام ان الحلم هو الذي يركب عناصر واقعنا؟ لان للعلماء تناولاً يختلف عن هاجس الشعراء الذين يحتاجون الى قراءة الواقع بأدوات الحلم.

وماذا اريد ان اقول لك؟
لا شي.. لا شي، عدا الاسترسال في خواطر لا يضبطها موضوع، خواطر تطل على ما لا ندرك فينا من غموض هو الذي يوضح الشعر ويبرّر الشعر، الى درجة قد نُعرّف الشاعر معها بأنه ذلك الانسان الذي يحمل آلافاً من «قرون الاستشعار» التي ترى البرق البعيد، وتحس بالعاصفة البعيدة، وتلمس الزمن القادم الذي لا زمن فيه.. وهو.. هو المهووس بأن يصدِّق أحلامه..

أمن الغريب، اذاً، ان تحتاج العرّافة، عضو اكاديمية العلوم، الى كتابة الشعر في محاولة لفهم ما لا تفهم من طاقتها على قراءة ما في بالنا من اسماء الأمكنة والنساء، والزهور؟

لا تسألني ان كنت أُصدّق ما يقال عنه انه خرافة...
بل اسألني ان كنت اصدق حاجتي للشعر..

كل شيء رمادي في هذه الايام.. رمادي اسود.. رمادي مكتوب بفحمة كونية سوداء. ولكن هذه البطاقة الصغيرة قد وصلتني الآن من فتاة اسمها زينب، من بلد المطار اياه، لتزيد عدد حبات البرتقال حول قلبي. تقول البطاقة: «دخلت قلوبنا بلا ورقة. ولاننا نعلم مكان ولادتك، تقبّلتك وقبّلتك قلوبنا أكثر وأكثر، فأفّ للمطار،

ولنفهم ولنضحك الى ان يبكوا».

شكراً لزينب لأنها تحدد الفارق، ولانها تدلني على ما لا اعرف: في وسع احد ان يحلم كما يحلم الآخر. وفي وسع احد ان يحلم نيابة عن احـد.

وهذا وحده.. هذا وحده ما يحاول الشعر ان يقوله..

اخوك محمود درويش
(باريس ـ ١٩٨٧/١/٢٧)

للأسى سماء من طيور

● اخـي محمود،

كان ولا يزال للأسى عالمه المغرق في خصوصيته، ولا حـدّ، لا حـد ابداً لطاقة الأسى في ابداع عالمه هذا واعادة ابداعه مرة تلو مرة بأشكال وصيغ تحاكي الطبيعة اولاً ثم تعود الطبيعة لتحاكيها، عاجزةً، قطعاً، عن الامساك بأطرافها السحيقة.

ولا أعلم لماذا كانت للأسى دائماً سماء من طيور.. سماءٌ من طيور شتى نتسلق فضاءها الشاسع بأبصارنا وبصائرنا الكلية لنرى هناك وعلى الحد الفاصل بين ما هو واضـح وما هو غامض عنقاءنا الاولى، خلاصة الأسى الدبق في صهريج البيداء العـربية، الأسى الـدبق مرة اخـرى والمتجمع بكثافة هائلة في ما اصطلحنا على تسميته بالحلم... ونرى هنا ايضاً حمامة نوح حيث تجسد الأسى الصادر عن طوفان لم يُبق ولم يذر.. ونرى هناك ذلك الغراب التعس الذي وصمناه بخطيئة البين... ثم نرى السنونوة التي تحملنا على جناحيها بعيداً في حلم الربيع خارج الأسى المتكدس كالثلوج والـوحول في شتاء يبدو بلا نهاية.. ونرى هناك المطوقة التي تنوح بباب الطاق لتكون أسـى شاعرنا السجين ابي فراس متقمصاً طائراً ليس كالطيور. ونرى ثم نرى قبّرة شيللي وغراب ادغار الـن بـو.

قبل ايام رأينا دُوريًا. كان ذلك في مهرجان الذكرى العاشرة لرحيل حبيبنا راشد حسين. فقد استعاد عمر حمودة الزعبي بعضاً من ذكرياتنا القديمة وأعادنا الى ليلة الدوري (دوريّ ما يقتحم الغرفة العليا في منزلنا حيث اعتدنا السهر ويمضي معنا ليلة كاملة مصغياً لحوار نشط فيها بيننا... احدنا يقول: انه دوري متطفل ووقح ومن حقنا ان نلتهمه فوراً. ويقول آخر: بل هو روح من لدن الله يحمل الينا فضاء جديداً لقصيدة جديدة. ويقول ثالث: لا، بل انه الشيطان شخصياً على هيئة طائر يسترق السمع ليدبر المكائد...).

مع الفجر الازرق حمل دورينا جناحيه ودهشتنا وطار...

حدث هذا قبل ربع قرن ولم أزل منذ مهرجان راشد مسكوناً بقناعة ما، بأن ذلك

الدوريّ هو راشد حسين وانه ما زال يحوم حول بيوتنا ويقتحم نوافذنا في ساعات الليل تاركاً في فضائها احلاماً جديدة لقصائد جديدة...

وها نحن نرى الآن طائراً غريباً يقتحم غرفة نومك في باريس... وكما يبدو واضحاً من رسالتك فهو ليس دورياً على الاطلاق. وعليه فهو ليس راشد حسين. إذن من يكون طائرك هذا؟ هل هو غسان كنفاني؟ او لعله معين بسيسو؟ او انه روح شهيد جديد ضاق بضجيج القصف على مخيماتنا في لبنان فطار اليك؟

ينبغي ان نستوضح الأمر مرة اخرى لدى «العرافة» الاشورية «جونيا». واذا قيض لي ان أقابل «بارينا» الأشورية التي اصبحت طائراً في براغ منذ اعوام سحيقة فسأتدارس الامر معها.

طائر يحملك من الأسى الى الأسى.

وطائرة تحملك من باريس الى الجزائر.

وافرح معك ونفرح معكم: ها نحن قادرون على الالتحام حول اطراف اجسادنا المتطايرة على مداخل المخيمات.

في كلمتك التي وصلتني فقراتٌ منها تدعو مثقفي العالم الى اطلاق صيحة، ولو صيحة، مجرد صيحة، لايقاف المجزرة. انت تدعو! صيحة فيرف طائر الأسى من سماء الجزائر الى سماء القدس الى سماء بيروت الممزقة!

أية صيحة تريد يا صديقي؟ وبأية لغة؟ أية صيحة تريد من زمن الحناجر المقطوعة بالبلادة، المنخوبة بسرطان اللاأبالية؟

إنني لأذكر عبر رواية «فارس الأمل» لجورجي امادو صيحة رومان رولان: «نداء الى العالم! نداء الى الشعوب! لننقذ لويس كارلوس برستس!»».

نداء الى العالم! نداء الى الشعوب من اجل بطل البرازيل، فمن يوجه صيحة، او نأمه، من اجل ابطال شعبنا ومن اجل ناسنا العاديين؟ ام ان الحياة هي من حق الابطال وحدهم؟!

اعتقد اننا سنلتقي قريباً يا محمود. سنلتقي في موسكو وسيكون هناك سرب كاملٌ من طيور الأسى، فهل نستطيع اغراء هذا السرب بإطلاق صيحة ما، مجرد صيحة، لأجل إخوتنا المذبوحين من الوريد الى الوريد ثلاث مرات يومياً قبل الجوع وبعده؟!

ثمة معادلة صعبة، نحن مزجوج بنا فيها. معادلة على النحو التالي: حتى يسمعك العالم فأنت مدعو الى ممارسة العنف، الى اجتراح الصخب القادر على إشغال حيز داخل انهماكات العالم وانشغالاته الهامة والسخيفة على السواء. وحين تمارس العنف لتُكره العالم على الاصغاء اليك فإن هذا العالم نفسه يكفّ عن الاصغاء... ويذهب

الى أبعد من ذلك... انه يغتنم الفرصة للتخفف من اوزار موتك، فيلقي بها على كاهلك وبقـدرة قادر يتحول الجزار الى ضحية، وتتحول الضحية الى مجرم مدان ويصبح طبخك في حليب امك امراً مشروعاً للغاية.

هذه هي المعادلة. ويبدو لي انها معادلة صعبة حقاً، فما العمل؟ كيف نتدبر معضلة الخيار البشع بين الموت صمتاً او الموت صخباً؟

هل تذكر قصة الطائرة المدنية التي سقطت على جبال الجليد في مكان ما من العالم قبـل حين؟ لقـد اضطر الناجون من الركاب الى التهام جثث القتلى من زملائهم ليتمكنوا من حماية النجاة العرضية التي كانت من نصيبهم. لم يكن من حولهم آنذاك سوى قوة الموت وقوة الحياة. ولم يكن امامهم من خيار سوى ان يحسموا لصالح الحياة. فاستجمعوا ما تبقى لهم وفيهم من طاقة في صراع البقاء المعروف ليلتهموا جثث اخوانهم، ولا ادري اذا كانوا قد استعملوا طواقم الطعام الحضارية ـ الشوكة والسكين وصحون البلاستيك! الذي اعلمه هو انهم ظلوا على قيد الحياة الى ان تـم اكتشافهم اخيراً!

ونحن يا عزيزي، نحن الفلسطينيين القادمين الى الكوكب الارضي على متن سفينة فضائية من كوكب آخر، لم ننج من مصير مماثل. لقد سقطت سفينتنا على جبال الجليد في العام ١٩٤٨. هلك من هلك ونجا من نجا وولد من وُلد واستشهد من استشهـد وينتـظر من ينتظر. وبقوة الحياة نفسها نلفي انفسنا اليوم، ازاء الخيار الشاق: إما ان نلتهم جثث قتلانا او ان يلتهمنا الموت المحدق بنا من كل جهات الارض. فما العمل؟ لقد التزمنا بالحياة المنظمة وبالموت المنظم، وعليه فاننا نستصدر فتوى دينية تتيح لنا اكل موتانا!

قد نحظى بفتوى كهذه! ولا أظن الديانات السماوية صادفت من قبل مسألة مركبة بهذا المقدار. انما المعضلة الحقيقية هي انشغال العلماء والفقهاء والاكليروس والفلاسفة بقضية أهم ما زالت منذ الأزل تبحث عن حـل: كم ملاكاً يستطيعون الوقوف على رأس إبرة؟!

وتبعاً لسلم الاولويات الكوني فسيكون علينا ان ننتظر. والى حين صدور الفتوى المرجوة يترتب علينا ان نعمل شيئاً، كأن نكتب قصيدة في باب الرثاء او باب الهجاء او باب المديح، وربما في باب النسيب ايضاً.

وحين نلتقي في موسكو بعد ايام يكون الربيع قد اقترب قليلاً على جناح سنونوة ما، ويكون طائرك الغريب قد عثر على نافذة اخرى وقلب آخر يفعمه أســى ويطوح به الى نافذة عّرافة أشورية او عربية عاربة. مع محبتي.

اخوك سميح القاسم
(حيفا ـ ١٩٨٧/٢/٩)

تصور أنك تأكلني

● عزيزي سميح،

توقفت طويلاً عند جملة كاتب ياسين «لن تكون هناك ابداً عبودية تكفي جميع البشر»، توقفت لاتساءل: أهناك من الحرية ما يكفي جميع البشر، ليشملنا ايضاً؟

لا يبدو لي، ولا لك، ان لسؤالي فرصة البحث عن اجابة، خارج ما تصنعه هذه السيرة الجماعية من شبق الى البقاء ومن جنون... حتى لو كانت للحرية ألقاب اخرى وطقوس مضحكة...

لقد رأيتك في موسكو حزيناً منذ ايام، كما رأيتني مرهقاً. هل هو تعب المعادن، ام الاطلال على ما فينا من غربة لا تتضح الا في مرآة الاقتراب؟

اما انا، الخالي تماماً من وهم السعادة على ارض البشر ومن عبادة الحجر، فقد هدني جسد لم يعد في وسعه ان يسافر اكثر من مرة واحدة في اسبوع واحد...

واما انت، فقد كنت تحلم بأخت لاولادك الثلاثة، فرزقت صبياً رابعاً سميته ياسراً، لعله يخرج من العُسر يسر. وإن لم يفعل ذلك فمن حقك ان تلعن أباه، فان لم ينجح الجيل الرابع او الخامس فيما فشلنا فيه، فمن ينجح اذاً!

ولكنها الحياة، يا عزيزي، تجري بنا ولذاتها... تنسانا على مهل على ضفاف لم نحلم بها، وقوية الى حد النسيان، مصرة على حياتها الى درجة النكران. ففي وسع اجمل الازهار ان تتفتح في ساحة شهدت أشدّ المعارك وحشية. وفي وسع النرجس ان يتملى وجهه، جذلاً، في بركة ذبحوا فيها طفلاً منذ قليل...

وماذا في مقدور صوتك ان يرفع من اسماء لا اسماء لها، في زحام البحث البشري عن درب خطر محتمل، كخطر العاصفة النووية التي تهدد الجنس البشري بالفناء؟ أفي وسعك، مثلاً، ان تقول ان شعبك لا يواجه الآن هذا الخطر المحتمل لأنه مهدد بالابادة بواسطة سلاح عادي؟ وهل يستطيع الجنس البشري ان يلتفت قليلاً لانقاذ اطفال برج البراجنة من الموت جوعاً؟ فإما ان يكون الموت العصري نووياً ليشغل ضمير العالم، واما ان تمر الجريمة بلا احتجاج...

وهكذا، علينا ان نموت سراً وبلا ضجيج. فليس في الحرية ما يكفي لجميع البشر. وما زال الطريق امامنا طويلاً لنثبت اننا جزء من هذا الجنس القادر على الخوف من الكارثة النووية ومن كوارث الحروب العادية، الحروب الصغيرة. فليس لدى جراهام جرين ولا جريجوري بيك ولا نورمان ميلر ولا كلوديا كاردينالي من الوقت ما يكفي للانشغال بقضايا صغيرة، مثل ولادة طفل تحت الانقاض، وبحث شعب كامل منذ اربعين عاماً عن مكانه، وبحث المحاصرين في المخيمات عما تبقى من عشب يابس ولحم كلاب حامض، او عن فتاوى لتحليل ما هو اقسى لانقاذ جنس بشري من الانقراض!

ولكن، ما اجمل الكرة الارضية...

وما أنبل الدفاع عنها امام ما في باطنها من مخزون موت...

لقد سيطر الانسان على الطبيعة الى حد انتحاري منذ عجز عن السيطرة على غرائزه. لقد امتلك سر الذرة، امتلك السر الذي يهدده بالفناء، لان في وسع رئيس طائش ان يخرج الى الشارع بلعبة الموت الكوني، في حرب خاطفة لا ينتصر فيها احد على احد، ولا عقيدة على عقيدة، ولا ايديولوجيا على ايديولوجيا. فما هو دورك، ايها الشاعر العربي في حملة السلام هذه.. ما هو دورك؟ هكذا يسألك عشرات الصحفيين لكي لا تقوى على مواراة المفارقة الجارحة: انا؟ ما هو دوري في منع الحرب النووية؟ انا؟ ما هو دوري في انقاذ الجنس البشري؟

فمن هو القادر، في هذا العصر، على الهروب من هذا الواجب، حتى لو كان مطروداً من هذا العصر، ومدفوعاً الى التسليم بمدى ما بينه وبين عصره من اغتراب؟

هل كان عليك وعلي ان نطالب اهلنا في مخيمات لبنان وفي سجون الوطن، بالسير في مظاهرات حاشدة تدعو الى وقف التسلح النووي ما دام السلاح الذي يقتلهم لا يكفي لقتل جميع البشر؟

ليست المسألة مثيرة للسخرية الى هذا الحد، اذ لا اجد تناقضاً، بل انقلاب اولويات، بين الخائفين من الحرب النووية وبين ضحايا الحروب التقليدية، اذا اعترف الخائفون من الحرب النووية بأن ضحايا الحروب التقليدية هم جزء من الجنس البشري، وبالتالي فان لهم مكاناً على الكرة الارضية، وطن الجنس البشري!

أرأيت كم نحن بعيدون عن الارض وعن الخيال معاً... أرأيت؟

ان العلماء اكثر قدرة من الشعراء على تخويف البشر مما يهددهم، طالما ان الشعراء مشغولون في البحث عن قطرة ماء، وحفنة قمح للجائعين، وعن اسماء جديدة للوردة. وبينما يمتلك العلماء اسرار صورة الارض والفضاء حين يحدث الانفجار العظيم

التشبيه بالانفجار العظيم الاول الذي أسفر عن جمال هذا الكوكب، سيظن الشعراء ان الارض تلعب وترقص. فما هو دورك، ايها الشاعر، في التمييز بين ثنائية البرق والرعد وبين ثنائية الانفجار والقيامة؟

سيظل «العالم الثالث»، وعالمنا الخاص المنبوذ من العالم، مفتوناً بسؤاله الاول عن حصتـه من الحرية التي لا يبدو حتى الآن انها تكفي جميع البشر. وسيظل سؤال السلام متفرعا من سؤال الحرية، على الرغم من جهلنا مخاطر السلاح النووي، او لعلّ هذا الجهل يزودنا بحوافز الصراع الذي نادى اينشتاين باستحالة ادارته في ظـل القنبلة النووية بقوله: «انكم لا تعرفون ما تتحدثون عنه. انكم تتحدثون عن السلاح الذري وعن عصر القوة النووية وانتم لا تستطيعون ـ ولا حتى في أقصى حالات جموح خيالكم ـ ان تلموا باطراف الحقيقة»...

هل نحن مطالبون بأن ندرك ان السلاح النووي قد غير مفاهيم الحرية، والسلام، والعدل، والحقوق، والوطنية، والقومية، ليكون بقاء الجنس البشري ـ كما تحدده موازين القوى النووية ـ مشروطا بالغاء اجناس بشرية اخرى؟ لان ما تكوَّن قد تكوّن، وما لم يتكون لن يتكون على حدود الخطر الشامل!...

على الاقوياء، اذاً، على العلماء والملمين بالحقيقة النووية ان يحذروا ضحايا هذا السلاح. اما نحن، ضحايا السلاح العادي، ضحايا السلاح البدائي، ضحايا غياب الشـروط الاولى لتكـوُّن انسانيتنا، فلا نملك ترف هذه المعرفة، ولا نملك شرف المشاركة الفاعلة الا في ما يوفر لنا الشروط الاولى لاعتراف الجنس البشري بنا، ما دامت «الهوية الانسانية» لا تشمل من هو خارج هويته الوطنية. فهل أوقفتنا الهوية الانسانية خارجها، وتقدمت الى فضائها دون ان تكترث بمستنقعات خلفتها فوارق التطور الذي اشترط تطوره بخلق هذه الفوارق؟

ربما... وربما كان على السجين والسجَّان ان يتعاونا على حماية السجن من زلزال يهدده بالانهيار عليهما معاً. ولكن، هل يمتلك السجين حرية الدفاع عن سجنه؟ ليس عالمنا واحداً الا في هذا السقوط الشامل، فما جدوى دعوة الذين ليس هذا العالم عالمهم الى الدفاع عنه بأيـدٍ مقطوعة؟ كم نحن غرباء عن هذا العالم. كم نحن ضحايا حربه. وكم نحن ضحايا سلامه!

وماذا كنت تقول؟ هل كنت تقول ان بعض البشر يضطر الى أكل لحم البشر ليحافظ على بقائه؟

كـم أكلونا...

وكم يواصلون أكلنا...

وكلما حاولنا تحريك ضمائرهم بقولنا اننا مضطرون الى اكل لحم اخوتنا، كلما ازداد الفـارق، واتسعت الهاوية. لعنة الله على الفتوى وعلى من أفتى وروّج للفتوى. فليس مثل هذا البكاء بنافع ولا رادع، لأن ما يتبقى منه هو ثبات الصورة الغربية عنا بتحويل المأكول الى آكل، مهما كانت الاسباب.

تصور انك تأكلني، او انني آكلك! ما هذه الفرية الجديدة! أتظن انها تفضح احداً في بيروت، او تل ابيب، او دمشق؟.

لقـد جاءت النجدة العربية الى لبنان مرة اخرى. جاءت في المرة الاولى لانقاذ الكتائب من حصار القوى الوطنية. وجاءت الآن لانقاذ قطعان «امـل» من حصار القوى الوطنية. اهذا هو دور المدافعين عما تبقى في العروبة من شعارات؟ ودائماً لانقاذ حلفاء اسرائيل المحليين من الهزيمة، ولتشديد الحصار على «العدو المشترك»، الفلسطيني، الفلسطيني لا سواه هو العدو المشترك!! فمن يرفع صوته بعدما اغتالوا جدنا الرائع، حسين مروه، وهو يرفع طفولته الأبدية فوق غابة الوحوش؟

وما هو دورك، ايها الشاعر العربي، في معركة الدفاع عن الجنس البشري من خطر الفناء؟

مـا هـو دورك؟
لا أريد الجواب
لأنني لا أريد مزيداً من العذاب
ولا مزيداً من الاغتراب.
ولكن، لا تأكل اولادك، مهما كانت الأسباب!!

اخوك محمود درويش
(باريس ـ ١٩٨٧/٢/٢٤)

وداعاً، أنا مسافر فيّ!

●أخـي محمود،

وداعاً. انـا مسافرٌ فيّ. مُبحر جوفاً في أوعيتي الدموية. سأبدأ رحلتي في الوريد الأجوف الأعلى. اقلع أفقياً في منتصف الليلة الى الشريان الرئوي، ومن هناك اهبط قليلاً الى الأذين الأيمن.

قد تستهلك هذه المسـافة ثلاثة شهور من الزمن. أتزوّد بعدها بالحبر والورق واتابع الرحلة باتجاه الشريان التاجي الأيسر، فالبطين الأيسر، آملاً ان اتمكن من قطع هذه الفـراسخ المرعبة في مدة لا تتجاوز الستة اشهر. في ذلك الوقت يكون الجو مكفهراً عاصفاً وتكون الملاحة خطرة بعض الشيء، الأمر الذي يقتضي الابطاء، بحيث لا تتجاوز السرعة سبعين عقدة في الثانية.

واذا تيسر لي ميناء ما للتزود، فسأتابع الرحيل عبر الشريان التاجيّ الايمن باتجاه المحطة الاخيرة، على رصيف البطين الأيمن. وسأكون قادراً على اجتياز هذه المسافة في غضون اربعة اشهر على وجـه التقريب.

ان الرحلة كلها قابلة للانجاز في ثلاثة عشر شهراً، واذا تحقق لي ذلك فسأكون قد سجلت رقماً قياسياً دولياً جديداً، كاسراً به الرقم القياسي الاخير الذي سجله أخونا خليل حاوي.

وداعاً. انا مسافرٌ فيّ. صـلِّ من اجل رحلة ميمونة لأخيك، اذا كانت لديك بقية من قدرة على الصلاة.

مرة اخـرى تصل رسالتك وانا جالس على حقائب السفر. وكانت رحلة ثلجية ممرضة الى براغ. ولأن الطائرة تأخرت بضع ساعات عن موعد إقلاعها المحدد سلفاً، فقـد اضـطررت للمبيت على مقـاعد مطار فرانكفورت. لم يكن ذلك في صالحي اطلاقاً. كانت آلام اللومبارغو هي المستفيد الوحيد الاول والاخير. وحين بلغت براغ، كانت الثلوج وصدمات الكهرباء الساكنة في مقابض الابواب وفي أكـفّ الاصدقاء بانتظاري.

هل تذكر صدمات الكهرباء الساكنة هذه التي أحدثك عنها؟ لعلك تذكر، فقد كابدناها معاً، في براغ ايضاً، منذ عام او عامين.

أمـر طبيعي ان يلتقي الفلسطينيون في المطارات. مع ذلك فقد فوجئت بصديقنا الرسام كمال بلاطه في مقصف مطار فرانكفورت، وحدثني عن رحلة خائبة في وهم خائب، يسمونه «التضامن العربي» مع القضية الفلسطينية.

وكانت هناك مفاجأة أخرى، فحين فتحت عينيّ على ضجيج اجهزة التنظيف في الفجر، كان يقف على مقربة مني شاب يبدو دون العشرين من العمر. تردد قليلاً ثم دنا بارتباك:

ـ هـل أنت فلان؟

ـ اجل. اهلاً وسهلاً. ومن اين انت.

ـ انا فلسطيني مبعد من قطاع غزة. مبعد من اليمن. مبعد من السودان ومحتجز في الترانزيت هنا الى ان يعثر الالمان على طائرة تقلّني الى بلد آخر، ليبعدني بدوره الى ترانزيت آخر!

ـ لا عليك. هذا قدرنا.

ـ شكراً.. لكنني اريد ان ابكي.

ـ إبـكِ يا اخي إبـكِ فسترتاح قليلاً.

وواصلنا الحديث الى ان حان موعد سفري، ولا علم لي الآن في اي ترانزيت يقيم ذلك الفتى.

أخـي العزيز.

اتصور انني آكلك. واتصور انك تأكلني. نجلس للغداء في مطعم «مكسيم»، في الضاحية الاخيرة من مخيم برج البراجنة. تتناول بهدوء شريحة من كتفي اليسرى، تسبقها رشفة من نبيذ فرنسي جيد، وتليها رشفة أخرى اطول قليلاً.

وحين تعيد الكأس الى المائدة، اقتطع لي مضغة صغيرة من عنقك (لا شهية لديّ اليوم ولن يسعفني النبيذ، لانه يسبب لي مزيداً من الحموضة الكاوية في هذه المعدة اللعينة التي لم يسموها ببيت الداء عبثاً!).

صاحبي!

لم نكن شعراء المقابر يا صاحبي
هكذا ينبغي ان نموت
ينبغي ان نعيد الى بارىء اللحم والحُلم
ما ظـل من لحمنا

والذي ظـل من حُلمنا
في البيوت / المنافي
المنافي / البيوت
لـم نـكـن.
هـكـذا.
لم نعد امراء المنابر يا صاحبي
كاتم الصوت يأمرنا بالسكوت
صوته وحده الراوية
صمته وحده القافية
هـكـذا،
فالوداع الوداع
أنذا ذاهب في بلاد دمي
راحلٌ في خلاياي
محبرتي مركبي
وقميصي شراع
أنذا ذاهب في جنوني..
متى نلتقي؟!

والى ان نلتقي بعد ثلاثة عشر شهراً في المقهى المقفر على شاطىء البنكرياس فان دعابة صديقنا كاتب ياسين المرة ودعابتك الاستطرادية الأشد مرارة تظل هي هي الحقيقـة التـاريخية الأشد وضوحاً بين انهيارات الروح والجسد فلسطينياً وعربياً ودولياً (دع اسرائيل جانباً، تلك دعابة أخرى!!).

لم يكن حزني في موسكو حزناً فردياً ولم يكن ارهاقك مسألة شخصية. أُصارحك بما أحسسناه معاً ولم نجرؤ على المكاشفة به آنذاك. الاهانة. الاحساس بالاهانة لاننا ندعي لانقاذ العالم والجنس البشري من كارثة نووية مؤجلة بينما نحن عاجزان عن انقـاذ كوخ من الصفيح وطفلة جائعـة، من موت عاجـل لا يأتينـا مترجمـاً عن الانكليزية او العبرية بل يداهمنا مباشرة باللغة العربية الفصحى وباسم القومية العربية والاسلام. هنا طلعت سنبلة الحزن، هنا نبتت وردة الارهاق. أليس كذلك؟ قلها صراحة فلن تؤذي مشاعر أحد سوانا نحن الأهبلين المتجشمين مشاق السفر عبر الرمال والثلوج الى وهـم لا يساوي ثمن تذكرة السفر.

وليس هذا كل شيء. فقـد أنجزنا امراً ما. امراً ضئيلاً. إلا انه يليق بموازين

القوى وأفضليات الصراع الدولي. وعليه فلست نادماً على شيء. لا أعزي نفسي ولا أكابر. لست نادماً على شيء يا صديقي واستطيع القول بملء فمي على مسامع الغمر الساكن والبرية المهجورة تماماً: اللهم اني بلغت!! اللهم اني بلغت!!

أخـي العزيز.

في اثناء رحلتي هذه التي ارتديت من اجلها المعطف المضاد للمطر والحوادث لن يكون بيننا اتصال بريدي. فلا جهاز تلفون في محبرتي ولا هوائيّ ارسال على قميصي ولا محطة استقبال في قلبي. لن اكون دباً قطبياً في نومه الموسمي. سأحاول ان اكون طائـر الرعد القادم من ذاته الى ذاته مع مطلع الربيع المتوقع. وسأدون تقلبات الطقس واحوال الجو الممتد من الجغرافيا الى ارتعاشات القلب ومن ارتعاشات القلب الى سلم رختر. ويوم أعود قد تكون معي قصيدة جديدة، كتابة ما، محارة غير محلولة الرموز او اي شيء آخر أنثره على البشر، في ضـوء الشمس الكامل.

وداعاً يا اخي، هأنذا ارفع قلوعي، هأنذا أشرع في السفر، وداعاً والى لـقـاء.

أخوك سميح القاسم
(حيفا ـ ١٩٨٧/٣/١٨)

شقاء يوم الثلاثاء

● عزيزي سميح،

لا نطوي هذه الصفحة الا لنبدأ كتاباً جديداً. فالى أين أنت ذاهب في ربيع شديد الغموض؟ لقد طال الشتاء.. طال وتلكأ كزوجة تماطل في الطلاق. ولكنه حظٌ على قلبي، منذ البداية، امرأة ذكية تحمي فرحها وتحميني من حديث الزواج.. الى ان يُصبح مطلب الأغنية.

سافر فيك، كما يطيب لك السفر المضاد. لعلَّ في أقاليم القلب ما يُعوض عنك هزائم الجغرافيا وتبدُّل فصول ستجدها هناك، في القلب، اكثر فوضى وغموضاً مما هي عليه في الخارج.

اما كان في مقدور وردة مخبأة في داخلك ان تنفجر فجأة لتجتاح قارةً من الجليد؟ وفي وسع بقعة شمس داخلية ان ترقص افاعي الغابات وتدجنها؟.. والاّ، فمن اين استحلبنا هذا المطر على صحراء الساعات الميتة؟ من اين جاءنا سحر القوة لنتابع العزف، مائة سنة اخرى، على وتر بلا عود، وتر من هواء مالح، هواء صلب، هواء يبني عليه الشعراء مقومات وجود لا يتماسك الا بعناصر وهم يتحول، من فرط الحاجة اليه، الى مادة.. الى معدن!

وفي المقابل، ألم ينشف القلب من نمطية الجمال، ومن سأم المسافات المفتوحة بالنرجس، المسافات الموصلة الى وحشة النفس العطشى الى ثرثرة يوم الثلاثاء، الى صمت صديقين، والى كسل انتظار لا يأتي منه أحـد!

هناك قد لا يأتي الشعر ابداً، لا يأتي من هذا التفرّغ المتأمل الا اذا كان استراحة بين عاصفتين.

الشعر ـ كما تعلم يا صاحبي ـ لا يأتي من انتظار الشعر، او من البحث عن الشعر، لأنه في حاجة الى ما هو خارج هويته، في حاجة الى ما يبدو انه نقيضه على الرغم من انه مصدره. لذا، نهرب من ذاتنا الى زحام الخارج، ويصير في وسع ورقة مريضة، تسقط من شجرة، ان تحرّك الايقاع الساكن. ويصير في وسع فتاة مجهولة تنتظر سيارة

الباص وتقضم ساندويتشها ان تفتح باب القصيدة على مصراعيه، ليطل على عجوز يجلس على مقعد الحديقة، او على انقاض المخيم، ليرى الى اين أوصلته أمه حين دربته على المشي منذ سبعين عاماً..

وانت تعلم، يا صاحبي، ان منطقة الشعر تقع خارج منطقتها، وان وقت الكتابة يقع خارج وقته...

وكثيراً ما اعتقد ان ما يميز شاعراً عن آخر هو مجرد حظ من ذكاء، صاغته العادة، بعثوره على لحظة الكتابة الملائمة لان يعتصر في الوقت المناسب ما تقطر من أوان شاعريته التي لا يعرف دائماً متى يقاربها او يعاشرها. فكم من مرة جاءنا الشعر ونحن نيام فاختفى. وكم من مرة جاءنا الشعر ونحن نلعب النرد، فضاع. وكم من مرة حسبنا فيها اننا ممتلئون بالشعر فهببنا للقطاف فاذا به سراب وجفاف. وكم من مرة قادنا فيها الضجر الى الورق الابيض لنجد الشعر هدية من السماء..

من يعرف التوقيت الملائم، اذاً، يجد اطراف القصيدة. فهل سيصل بنا العلم الى يوم يبتكر فيه جهاز رصد للحظة مرور تيار الشعر السري فينا، كي لا تضيع سنوات من الشاعرية منا دون ان ندري، وكي يتجاوز عمر الشاعر الشعري الساعات والايام؟

... ولكل واحد عاداته. لقد راقبت نفسي مراراً دون ان أعثر على قانون عام للكتابة. ولكنني لاحظت انني لا اكتب الا تحت تأثير التوتر العالي كما يقولون. لا أعني بهذا التوتر ارتفاع شحنات الحساسية الى مستوى يقارب الانفجار، كما هو معروف، بل اعني انني لا اكتب الا في الزحام. واذا انقطعت الى نفسي شهوراً من العزلة فلا افعل ذلك لأجد الشعر في العزلة، بل لأفرغ نفسي مما امتلأت به نفسي، ولاحصد ما زرعت.

ولقد حاولت كثيراً ان اتخلص من مشاغلي العامة غير الادبية، فقدمت استقالتي من عدة مهام ادارية لأتفرغ للشعر. وبعد عام من هذا التفرغ وجدت روحي خالية من الشعر، وخالية من النشر ايضاً. لم اكتب شيئاً لأنني لم انجز وقتي المُبْدَع. لم أسرق وقتاً للشعر من هذا الوقت المعطى والممنوح بلا حرمان وصراع. فماذا تفعل حين تقول لك امرأة الشعر دفعة واحدة: خذني!.. ألا يأخذك الشلل؟

الخارج يجنح نحو الداخل. والداخل يجنح نحو الخارج، وعلى سياج التقائهما تنمو وردة السياج الشعرية. وهكذا لا يكونان الا مجازاً ليرقص الشعر رقصته. اما اذا اتضحت المسافة بينهما فلا تتضح الا لتدل على غياب شاعرية مؤهلة لان يبتذلها «الخارج» تارة، ولأن يُعتمها «الداخل» تارة اخرى. وهكذا استدرجت الوظيفة العامة

بعض الشعراء الى الاستقالة من الشعر، لا من الوظيفة، لان التوازن بين الداخل والخارج لم يكن قلقاً او متوتراً منذ البداية..

ما هذا الشقاء، يا عزيزي، وما هذا الهناء!

ما هذه النعمة، وما هذه النقمة!!

و.. «لا أحد يكتب ليكتب» هي صياغة نقيضها: «لا احد يكتب الا ليكتب».

تلك المفارقة تتضح ايضاً في النثر الذي تكمل فيه القصيدة شاعريتها، والذي يجد في الشعر نثره، شبهاً لا يُرى بوضوح، شبهاً مؤولاً للعلاقة المتداخلة بين الداخل والخارج.

هـل تكتب اذا لم تكن مضطراً الى الكتابة؟

لا ألقي بهذا السؤال على الأغنية، لأن الروح ليست مطالبة بالنشيج من احد. هي تنشج لتصفي روحها من احتقان يسبُّبه الحزن او الفرح، ولتحفظ طبيعتها مما يخدشها..

اما النثر، فلا نكتبه الا لأننا التزمنا بذلك. لأن الصفحة محجوزة، ولأن المطبعة تنتظر، ولأننا على موعد مع احد. فليس من الهواية في شيء ان نكتب مقالاً ليس للنشر. وهكذا يكون النشر شرط كتابة النثر. وهذه الرسائل التي نتبادلها، يا عزيزي، هل كنا سنواصل كتابتها لو لم نـزج بأنفسنا في انضباط العلاقة مع القارىء ومع المطبعة؟. قد لا تحتاج أغنية الى قارىء غير كاتبها. ولكن القارىء هو غاية المقال. وهكذا فنحن لا نكتب لنكتب، بل لنفي بالتزام. ولكن من يرغمنا على ذلك؟ لا احد غير حريتنـا في ان نكتب. ومـا دمنـا نكتب فاننا نعبّر عن طبيعة نشاط نمارسه بشروطه التي لا تستحضر دائماً اهدافها المباشرة في عملية الكتابة. وهكذا فنحن نكتب لكي نكتب؟ لكي نعبر عن طبيعتنا بأدواتها.

كـم أمقت يوم الثلاثاء، لا لأنه يوم لا معنى له ولا منزلة له بين الايام، تماماً كالساعة الثالثة بعد الظهر، بل لأنه يوم كتابتي الاسبوعية، وموعد تسليم مقالي الاسبوعي. أصحو متعباً يوم الثلاثاء. ألعن يوم الثلاثاء، لأنه يوم الواجب. هل هو الخوف من المسؤولية ومن القارىء المجهول، القارىء الذي لا يرحم؟ أم هو الحرص الدائم على توازن العلاقة المتوترة بين الداخل والخارج؟

فما يصلح فـضحه من داخل، في القصيدة، من اسرار الضعف البشري لا يصلح اتتسهان النثر عليه. لأن النثر بيان عام يتعاطى مع سؤال عام، مع كيفية دخول الخارج الى الداخل وخروج الخارج مضرجاً بشظايا مرآة الداخل.. دون ان تكون العملية قريبة من بيان شخصي..

وهـذا التمييز بين بيانين هو مجال هذه الرسائل، مجال يتعايش فيه الذاتي مع الموضوعي، ويتحرك فيه الشخصي مع العام، ويتداخل فيه الخارج والداخل. ولكن حوار الـداخـل المؤوّل الى وطـن، مع الخارج المؤوّل الى منفى هو الجانب الذي اغتبطت له الناس.

فهل أدت هذه الرسائل غرضاً ما؟

ليس هذا السؤال سؤالنا. ما يهمنا هو اننا حاولنا ـ على المستوى الشخصي ـ أن نتابع حواراً بدأ مع صبانا وشبابنا، وقد يصلح لان يكون شهادة متواضعة على حياة جيلنا...

ومـا يهمنا ايضاً هو اننا حاولنا ان نكسر جمود النظرة الى العلاقة بين الداخل والخارج، دون ان نخشى القول ان المنفى ليس دائماً في المنفى، وان الوطن ليس دائماً في الوطن. فان في وطننا من المنافي ما يُضعف نعته بالجنة المطلقة. وفي المنفى من طرائق ابـداع ما يخفف نعتـه بالجحيم المطلق. وان سكان الخارج قد استقر ماضيهم ومستقبلهم في الـداخل، ولا يعترفون بأن حاضر الحاضر اكثر من واقعة مأساوية على جسر الوصول. وان سكان الداخل لا يكتملون الا بحضور نصفهم الغائب، وطن واحد، شعب واحد، وحرية واحدة.

والآن.. الآن نرتـاح قليلاً. فليس في اقاليم قلبك الذي ترحل اليه بريد جوي، سأدعك مع قلبك. لقد سافرت كثيراً الى الخارج. ومن حقك ان تجلس الى قلبك بعض الايام. ولكنني، وآلاف القـراء، سنشتـاق الى رسـائلك، فلا تتـأخر طويلاً. وسنحتفل مع قصيدتك الجديدة الطالعة، كالعادة، من قلبك..

ومنذ الآن، احذرك من خداع القلب. فالقلوب ليست مجرد عضلات قوية مكرسة لخدمة اصحابها. انها كائنات مشاغبة، قد تغدر وقد تخون وقد تعُض. لقد عضني قلبي ذات يوم، وخانني مراراً، وهدَّني وهدَّني، غير انني سلطت عليه ارادتي: سأعيش ايها القلب ـ الكلب!

فاحذر قلبك. لا تدلله اكثر مما ينبغي. ولا تهمله اكثر مما يستحق، فهو جهاز قوي، شقيّ، وسريع العطب. قد يحتمل ضربة صاروخ. وقد يتجعلك بزهرة ليلك..

والى ان تعيد قلبك الى موضعه، والى ان تعود من زيارة قلبك، اتمنى لك كـل الخير، وكل الشعر..

اخوك محمود درويش

(باريس ـ ١٩٨٧/٣/٢٤)

الحــزمــة
الثالثــة

منذ البداية

● عزيزي سميح القاسم،

ليس حدثاً عادياً، في ظروف غير عادية، ان تنجح انت واخوانك الكتاب في تأسيس اول اتحاد للكتاب العرب في الوطن المحتل، بعد اربعين عاماً من الاحتلال.

اربعون عاماً؟ لا تنظر الى الوراء بحزن.. لا تنظر الى الوراء إلا لتعرف الى اين وصلت بنا الطريق. للاعداء حساباتهم ولنا حسابنا. إن وراءنا اربعين عاماً من الاحتلال ومن مقاومة الاحتلال، اربعين عاماً من محاولة تهويد الارض، واللغة، والروح.. اربعين عاماً من الصراع على البقاء أسفر، على المستوى الثقافي، عن ولادة اول اتحاد للكتّاب الذين كانوا مرشحين للالتحاق بما تحدده الدبابة من حدود للهزيمة النفسية والادبية.. فلم يهزموا.

ترى، هل ترى كيف لا تقاس الظواهر كلها بالمقياس إياه. ففي وسع القصيدة أن تنجو من قصف الطائرات، دون ان تتمكن من اسقاطها، ولكنها تتابع نموّها التدريجي في وجدان شعب يحوّلها الى طاقة.

فمن هم الباكون على مصائرهم في هذه الذكرى.. ذكرى انتصار الدبابة على المحراث الخشبي؟ من هم الذين ينظرون الى الامام بخوف، دون أن تتمكن القوة العسكرية العمياء من ابداع نتاجها الادبي الموازي، ودون حاجة ماسة الى اجراء المقارنة معنا، نحن الذين صحونا ذات يوم على خرابنا المفاجيء، لا نملك من الدنيا غير اعادة ترميم ذاتنا من ادوات تشبه الهواء. لا كتاب لنا، ولا حقل، ولا ثور، ولا فضاء. اين كنا، وأين صارت ثقافة الاحتلال؟

هل تتذكر البداية؟ يوم امسكتَ بالطريق وصحت: ابدأ على هذا الطريق! ويوم هتفتُ بجلاد الهوية: سجل، انا عربي! كنا ندافع عن البسيط وعن السؤال الاول: نكون او لا نكون، حين ادرجونا في الادراك العملي، لا النظري، لدور الشعر، دون مراجع ودون تجارب، ودون ان نتساءل كما نتساءل الآن: هل كان ذلك الصراخ

شعراً؟ لقد زُج بنا في الفاعلية، واخترنا ـ لنبقى ـ مهمة الصراخ في برية الزمن، عرايا من الامل الملموس، لا نملك الا الصوت.

هل تتذكر البداية، ونحن ذاهبون الى اي طريق عدا الطريق الذي يلحقنا بقيصر، ايام كان الحكم العسكري هو الناقد الادبي الذي يحدد ما يصلح للصراع وما لا يصلح من شعر، فأدركنا ان الشعر ليس هو البراءة كما يقول الفيلسوف الالماني، بل هو ما نتسلح به من طاقة في معركة البقاء الوطني والانساني، فكانت السجون معاهدنا الاولى التي تعلمنا فيها دروس الحرية الاولى، واخترنا من تاريخنا ما يشذ عن قاعدة السلطان. واخترنا من تاريخ غيرنا ما ينفع اخراج سؤالنا البسيط من العزلة، ليكون الغصن المقطوع من شجرة الامة سنديانة الاكثرية الانسانية.

لا احد يعرفنا، يا فتى، لا احد يسمعنا غير السجان حين نضرب موعداً على الشاطىء، فيمنعنا البوليس من اللقاء، الى ان صار السجن مكبر الصوت الاول الذي رفع الأذان الصغير الى الملايين التي عرّفتها الهزيمة على اطرافها المقطوعة في الداخل.

كان اسمنا الداخل. ما اشد فتنة هذا الاسم. لقد كبر الاحتلال، يا فتى، وتمدد. ولكنه لم يخنق صوت الاصوات الجماعية في القصيدة كما كان متبعاً او متوقعاً، بل كبرت القصيدة وامتدت لتغطي الاحتلال، ولتحتل الاحتلال.

فهل بلغ الاحتلال «سن الرشد»؟ لا يبلغ الاحتلال الا سن الرشد الحيواني: اربعين عاماً من القتل والطيش والانقسام علينا: ماذا نفعل بهم؟ ماذا نصنع بهؤلاء الذين يتكاثرون ويصمدون.. ويسبقوننا الى الغد؟. لم نصدق انهم يستطيعون الخلاف علينا لو وجدونا ميتين، فالعربي الجيد هو العربي الميت. هل تتذكر البداية، يوم حددوا لنا مهمة واحدة هي ان نكون «سقاة ماء، وحطابين» ليحميهم الوعي الشريد من هذا النمو، دون ان ينتبهوا الى ان باستطاعة الحطاب ان يغني للفأس والشجرة، والى ان الحطاب الذي صودرت أشجاره سيُعْمِلُ فأسه في جذع الاحتلال!

والاحتلال هو الاحتلال، حتى لو زيّنوه بوهم العودة التلمودي، «عودة شعب بلا ارض إلى أرض بلا شعب». اما زالوا، يا فتى، يسكرون من هذه الكأس، ويفيقون على اصراخ طفل عربي يولد، ليدفع بكهانا الى المزيد من الجنون، وليفضح نفاق الليبرالي الذي يزود كهانا بالسلاح ليعلن الخلاف اللفظي معه من اجل صيانة الصورة في مرآة الغرب؟

ليست هذه هي المسألة. لا ارض اللبن والعسل خالية، ولا سكانها اشباح. ولكن القوة العسكرية عاجزة عن فرض السلام الصهيوني على شعب من الرهائن. هل

تتذكر البداية؟ منذ البداية كان الصراع محتدماً على الجبهة الثقافية بين مشروع التهويد، والاستلاب، والعدمية، والتغريب.. وبين وعي الهوية والحرية، ومنذ البداية، انتصر المتنبي وابو فراس الحمداني، فينا، على حاييم نحمان بياليك وجده السموأل. ومنذ البداية، انتصر النحل في دمنا على بعوض المستنقعات التي جففتها أناشيدهم الركيكة التي حاولت ان تربينا على حب استعبادنا، فلم نقبل الا العكس. ان عكس ما فيهم هو شرط المحافظة على هويتنا: عرب، ولا نخجل. عرب، ولا نرحل..

فهل في مقدورنا، الآن، ان نقول دون ان نهاب الوقوع في خطأ المبالغة ان ذلك البقاء الاول هو الذي حمى الوطن من التلاشي. وان الداخل هو القوة المادية للهوية الوطنية الثقافية. وان للداخل اسماً يفوق السحر، لان الداخل هو الذي وفر للظاهرة الفلسطينية قوة المعجزة.

ان اربعين عاماً من الاحتلال، ومن مقاومة الاحتلال بالبقاء، وبالتعبير عن البقاء بارتداء جلد الارض واكمام الشجر، بالزواج والتناسل، بالمظاهرة والتفاؤل، بالقصة والمقالة والقصيدة، بالمنشور والجريدة، بحراسة العلاقة بين الماضي والمستقبل ـ لا تجعلنا ننظر الى الوراء لنبكي، بقدر ما ننظر الى الحاضر لنرى الى اي مدى يدخل المنتصر العسكري في هزيمته الانسانية والثقافية، ومن اي ثقب نطل على الافق، مدججين بكامل عدة الحضور، شعباً يُستعصى على الابادة والتغييب، شعباً يتوحد في وعي ذاته وفي اداة التعبير عن ارادته، وينشر رسالته على اكثر من مستوى انساني ليس أبسطها انه قادر على ان يبدع اشكال حياته الثقافية، في شروط لم تعد فيها الثقافة تعبيراً عن قوة الحياة فيه، بل صارت فيه الثقافة احد شروط قوة هذه الحياة.

هل تتذكر البداية؟ منذ البداية لم يكن نشاطنا الثقافي يحاور نشاطنا العملي فقط، يعبر عنه او يستكمله، بل كانت الكلمة هي الفعل، لا حدود بينهما، ولا حدود بين الجسد واللغة، وذلك ما جعل الاغنية وطناً وما جعل الوطن اغنية. ومنذ البداية، لم يكن نشاطنا الادبي فردياً الا في المظهر. هو النشيد الواحد نكتبه معاً، سطراً سطراً، هو النشيد الجماعي الذي لا يزال مفتوحاً على البداية وعلى أفق الحرية.

لذلك، فان اتحاد كتّابنا قائم، معنوياً، منذ البداية ولكن اعلان تأسيسه العملي، الآن، هو تتويج لحاجتنا الوطنية، في الداخل والخارج، الى بناء المؤسسة، والى وحدة التمثيل الوطني على اكثر من مستوى. انه شكل من اشكال تبلور الكيانية الفلسطينية بعد اربعين عاماً من الاحتلال ومقاومة الاحتلال الثقافي، وهو اعلان عن انتصار ثقافة الضحية على ما تعرضت له، طيلة عمر الاحتلال، من حروب

الالغاء والابادة.. واعلان عن هزيمة الثقافة الصهيونية، لا في معركتها فقط مع ثقافتنا التي تتكون من جدل العلاقة بين الارض والشعب والتاريخ والانفتاح الانساني، مقابل ثقافة الجيتو الروحية والزمنية العاجزة عن التكون في شروط الاحتلال والتنافر الذاتي والانقطاع عن مصادرها، بل هو اعلان ايضاً عن هشاشة تلك الثقافة في عملية توحيد حامليها على اسس سلبية هي خوفهم من الاندماج في ثقافة المنطقة.

انها دلالة رائعة ان يتشكل اتحاد كتابنا في الداخل في مناخ نجاحنا في توحيد صفوفنا في الخارج. لقد استلهمنا من مداخلاتكم المثمرة قوة للتغلب على ما كان يفرقنا من هامش السياسي اليومي. ومن المفيد القول ان جدل العلاقة بين الخارج والداخل قد وفر لكم ايضاً فرصة التأثر الايجابي بما يقدمه نشاطنا من ايجابية. ها نحن نتوحد على الجبهتين. ها نحن نسير على ايقاع واحد: شعب واحد، وطن واحد، وثقافة مقاومة واحدة. فلا ادري اذا كان من اللائق ان اعتذر لكم عن تأخري في ارسال هذه التهنئة، لان المرء لا يهنيء نفسه.

ولكنني، باسم اخوتك الكتاب في الخارج، اهنئك بثقة زملائك الغالية، بانتخابك رئيساً لاتحاد الكتاب بالاجماع، ايها السيد الرئيس منذ الآن والى ان يتمكن الفلسطينيون من العيش في مجتمعهم الواحد. فحينئذ سأقدم لك وستقدم لي شكوى لا تخلو من طرافة، لننصرف معاً الى كتابة مذكرات البداية، على ارصفة الوطن، او الرحيل الحر الى اي مكان لا يلاحقنا بسياط الغربة، وتحت شبابيك الغناء الحر في ليل لا يطرد الغرباء.

والى ان يتم ذلك، اتمنى لك النجاح في موقعك الوطني والثقافي الجديد، واتمنى لك المقدرة على التعايش مع ما يُنغص مناخ هذا الانجاز من حديث انشقاق لا مبرر له. فقد استمعنا الى الاصوات الداعية الى التشكيك بشرعية الاتحاد، واستمعنا الى ما استمعتم اليه، ذات يوم، عندنا.

فهل من حقنا التدخل الاخوي في شؤونكم، لنناشدكم كلكم التخلص من آفاتنا؟ ففي الخارج، خارج داخلكم، اكثر من دولة عربية تطلب الوصاية. وفي الداخل، داخل خارجنا، دولة عدوان واحدة. فلماذا الخلاف على وليد منذور لتوحيد العائلة؟ ولماذا يستعير البعض من سلبياتنا ما يغريه بأن يفرض دكتاتورية الاقلية على الاغلبية، وهي صنف من اصناف الديمقراطية المقلوبة التي يدين بها العالم العربي الى ما آل اليه من لا معقول.. واختلاط فصول!!

واسمح لي، وانا أشد على يديك، ان أدعوك الى ترك باب الاتحاد مفتوحاً على

مصراعيه لكل من يخالفكم الرأي والعقيدة، فلسنا في حاجة الى ترف هذا الخلاف الذي لا يبرر الدعوة المتسرعة الى انشاء اتحاد كُتّاب بديل. والى مفاوضات توحيد، ومؤتمر جديد. أما زال في وسع المحتل ان يحتل المزيد من قدرتنا على الفرح بالوليد الجديد؟ أما زال في وسع المحتل ان يُحيل أزمته علينا بحصان طروادة من هنا، وحمار مسادة من هناك؟

لا، لا...

أخوك محمود درويش

(باريس ـ ٥/١٠/٨٧))

قبلتي الحجر!

● اخـي محمود،

وهكذا فأنت تري اننا دائماً نعود. نُقلع في جهات الارض والجسد، نغيب في خبايا الروح، ونعود. دائماً نعود، الى ملمس العينين، الى بصر القلب وبصيرة الاصابع، الى هنـا، حيث يكمن الحجر النظيف بجوار شجيرة القندول المزدهرة شتاءً في اعقاب شتـاء. نعـود الى الـولادات المنتـظرة وغير المنتظرة في فوضى هذا الزمن الجارح والمدهش في آن.

كان ان انقـطع بريدنا شهوراً ثقيلة، وضجر سُعاة البريد الذين اعتادوا فـضَّ رسائلنا وقراءتها قبلنا.

وماذا اقول لك يا ابا سليم عن رحلة الشرايين التي غَيَّبتْني في دمي عاماً واكثر؟ كيف أصف خيبتي العائدة بلا يواقيت وبلا مرجان؟

لم أنجـز سربيتي الجديدة التي بدأتها، كما انني لم اجد العزاء في اصداف الكلام الجميلة التي يتسلى بها المرء في موانيء راحته القليلة.

حين عدت الى مكتبي فوجئت بأكداس الرسائل المنتظرة بلا جواب. ولفتت قلبي من بينهـا رسالتك ورسالة صديقنا وشقيقنا الكبير ابي توفيق نزار قباني. وكانت جريدتنا «الاتـحـاد» قد نشرت رسالتك اليّ والى اخوتك في اتحاد الكتاب العرب، كما نشرت رسالة حبيبنا نزار المفعمة بالحرارة واللوعة والحب لفتيان الحجارة الذين يصفهم بأنهم السلالة الفلسطينية التي خلعت ملوك الشعر واستلمت زمام السلطة.

وكما تلاحظ يا محمود فهذا هو نزار الطيب، يعود الى مهمته «وبراءة الاطفال في عيليه»، ونحن نعلم ان مهمته تنسجم مع منصبه، ناطقاً رسمياً باسم الوجدان العام.

لكن ماذا بالنسبة لنا؟

من جهتي، أصارحك بأنني استقلت من وظيفة الناطق باسم الحاضر، فلشد ما أوجعتني هذه الوظيفة بخيباتها المتلاحقة. ولا اتعامل اليوم مع الحاضر الا من خلال المستقبل. وهنا لا أستطيع الا ان أجاهرك بقلقي ومخاوفي.

اري ان انتفاضة فتيان الحجارة او «الشبان الاحرار» كما احب ان اسميهم، هي الحدث الاكبر اهمية وتأثيراً في التاريخ العربي المعاصر منذ ثورة «الضباط الاحرار» في مصر الشقيقة.. ولنستعد الاحداث قليلاً وبكثافة:

ثورة الضباط الاحرار.. آلت الى انور السادات.

انتصار الجندي العربي على نفسه وعلى عدوه في حرب رمضان آلت الى «كامب ديفيد».

سيناء العزيزة على قلوبنا.. قويضت بفلسطين والجولان ولبنان، وكلها فلذ من الوطن تستحق ان تكون هي الاخرى عزيزة على قلوبنا.

ومن إضراب الستة اشهر «ثورة ١٩٣٦» انتهينا الى حرب الايام الستة!

لـمـــاذا؟

لأن السياسي ذهب دائماً الى الشعر (والشعر الرديء حتماً!) فحين كان السياسي يروج لقصيدة «خلي السيف يقول».. كان يدرك ان السيف في يد العدو وليس في يده هو، وهكذا سقط سيف القصيدة وسقطت قصيدة السيف، ولم يبق لنا سوى السيف الحقيقي المصلت على رقابنا، سيف الاستعمار والصهيونية والاحتلال والرجعية والتخلف.

واليوم؟ نذهب نحن الشعراء الى السياسة فنطالب بحماية منجزات الحجر الفلسطيني، واخشى ان يذهب السياسيون مرة اخرى الى الشعر ويكتفوا بالغناء «خـــل الحجر يقول».

صحيح يا محمود ان القيادات تبدلت وتباينت، صحيح ان هناك فرقاً جوهرياً بين قيادات الامس وقيادات اليوم، بيد ان القيادة الفلسطنية ليست وحدها على الساحة والقرار الفلسطيني «المستقل» يظل محكوماً بعوامل «قومية المعركة ودولية الصراع»، وهنا يكمن الخطر فلا يجوز لنا التغافل عن الانظمة والقوى التي اختارت قصيدة اخرى مطلعها «خلي الدولار يقول».

كم انا سعيد وممتلىء غبطة وتفاؤلاً بوردتنا الطالعة من حجر.. وفي الوقت نفسه فانني خائف على هذه الوردة.

وتعال نحاول النظر الى حجرنا هذا من زاوية اخرى:

ان مائتي مليون عربي، تعمر بهم قارة شاسعة واسعة لا حدود لثرواتها وخيراتها يجدون كرامتهم المفقودة في حجر عار تقذفه راحة فتى فلسطيني يكاد يكون عارياً في مخيم يكاد يكون عارياً منذ أربعين سنة.

لـمـــاذا؟

لماذا لا يكون العكس المنطقي هو الصحيح المعيش؟
لماذا لا تكون هذه الملايين العربية هي التي تعيد الى الفتى الفلسطيني كرامته المغتصبة؟
ألِى هذا الدرك من الفقر السياسي والاخلاقي تردت أمتنا التي كانت عظيمة؟
ألا تستطيع هذه الملايين استرداد كرامتها ـ كرامتنا بنفسها؟
اما من حجارة في الوطن العربي؟
قسماً بكل ما نحب ونقدس، لو ان هذه الامة قررت مقاطعة الكوكاكولا الامريكية لاسقطت عالماً واقامت عالماً.
لكن ما العمل ولسنا بمسيطرين؟
واعوذ بالله من السيطرة بمعناها الرائج. انها حضرتني اللفظة بحضور بيتين من الشعر انشدهما قبل عقود من الزمن الشاعر اللبناني الفلسطيني وديع البستاني.
آنذاك رأى وديع البستاني غرفة الوكالة اليهودية في قصر الحكومة البريطانية فتمتم ملوعاً:

أرى الوطن القومي يعلو بناؤه ... أرى غرفة في القصر تحجبه قصرا
فذكّرهمو ذكرى ولست مسيطراً ... مخافة يوم فيه لا تنفع الذكرى

لم يكن وديع البستاني مسيطراً. وما نحن بمسيطرين.. وقد ذكر وديع البستاني، وها نحن نذكّر. لم تنفع الذكرى آنذاك. فهل تنفع اليوم؟
أرجو ذلك يا اخي الحبيب.
أرجو وأصلي.. قِبلتي الحجر.

أخوك سميح القاسم
(القدس ـ ١٩٨٨/٢/٨)

كرم نابوت، ومهنة الورد

● عزيزي سميح،

حسناً، ها انت تعود. سأعترف لك الآن بأنني كنت في حاجة ملحة الى هذه العودة من قبل... في الصيف المرّ الذي لم ينقذني فيه سوى الليلك من وحشة جديدة في الغربة القديمة. كانت في صمتي شهية كلام عن حيرة، وعن اختفاء في قلب لا يفصح عما فيه خارج تقاليده. وانـا ايضـاً أضعت كتابي الجديد الذي لم اكتب منه غير العنـوان. واضعتُ اغـاني نشيج كان انبثـاقها الحر في حاجة الى الاعتراف بيأس الشوكة من الوردة.

مدى حديدياً كان...

ولكن شجرة مديدة تنشر عراء اغصانها وظلالها المثقوبة على الساحة كانت تلهيني في كل غروب. اذ كان يحط عليها، في البداية، طائر وحيد، ثم يطير ليعود بصحبة طيور اخرى، تتوزع على الغصون العارية، ثم يحلّق طائر آخر ليصطحب طيوراً اخرى، الى ان تمتلىء الشجرة العارية بآلاف الطيور التي يظنها عابر السبيل اوراق الشجرة. لقد ارتدت الاغصان عصافيرها... وتدلت فاكهة من ريشٍ ملون. وحين تغيب الشمس تماماً يخرج الطائر الاول كسهم من اعلى غصن على الشجرة، لتتبعه اسـراب العصـافـير كلها. وفي لحظة واحدة تخلو الشجرة من اوراقها الحية، من طيورها، وتعود الى عرائها الاول... وحيدة في ساحة كبيرة. هل كانت محطة هجرة؟ وفي الغروب التالي يتوالى المشهد: تمتلىء الشجرة وتفرغ، ترتدي الطيور... وتعرى.

في قلب كل واحد منا شجرة عارية في ساحة خالية... شجرة تنتظر طائراً لا يحط عليها الا ليرحل عنها...

والمدى، حديدياً كان...

ولم أقل لك، من قبل، إلا هذا المعنى: الذاهب الى الكتابة لا يكتب. فالعزلة التي يحتاج اليها هذا المخاض الابدي ليست هي بعزلة الوقت ولا المكان. النهر ليس في النهر دائماً. هو فينا. ولكن ثمة مفارقة اخرى هي: ان القلب ليس في القلب، فقد تجده

هناك... هناك في الشارع، او على رصيف قطار. وقد تجده دون ان تبحث عنه، وقد تجده دون ان تلحق به، وهو يمشي امامك، يبتعد عنك ليلحق بصدى ايقاع بعيد.

ولأمر ما، نسافر لنندم...

ولأمر ما، نعود لنندم...

ولا فكاك من الحاضر مهما استقلت منه. فهو الطريق الوحيد، مهما ضاق واتسعت، الى نقطة المستقبل. انظر حماقة اولئك الذين ارادوا ان يقنعونا، بعدما اقنعوا انفسهم، بانهم انتقلوا بقفزة واحدة من الماضي السحيق الى المستقبل الخالد، من الأزل الى الابد، كأنهم أرواح طيبة أو شريرة منعتقة من قانون الزمن، من دون ان يلاحظوا ان ما كان مستقبلاً، قبل اربعين عاماً، قد تحوّل الى ماضٍ...

قد يكون صحيحاً، من اجل لياقة الحوار، ان تقول الحكمة في لحظة من اللحظات: بقدر ما نقلل من الحديث عن الماضي نخدم المستقبل. وبقدر ما نقلل من الحديث عن المستقبل نخدم الحاضر. لا لشيء إلا لنوضح: ان حديث الماضي يحرك الجراح هنا. وان حديث المستقبل يثير الخوف هناك. ولا لشيء إلا لمعالجة السخرية الناشئة عن اشتباك بين الضحية والجلاد اشتباكاً بلغ حدّ العناق الدموي ـ في لحظة الحاضر التي يحاول الجلاد ان يركلها الى الماضي. وتحاول الضحية ان تركلها الى المستقبل.

ولكن الحاضر هو الحاضر لا فكاك منه لانه جسر الزمن، ولا فرار من وجهة سيره التي لم يحدث، مرة، ان اندفعت نحو الماضي، على الرغم مما يشهده واقع الحاضر من تقلبات وانتكاسات. وها نحن نصعد منه، ومعه، الى ما تؤدي اليه وجهته في تفاعل ارادتنا معها. ها هو المستقبل يزودنا بصوره الملموسة، ونحن ذاهبون اليه بكل ما أوتينا من عناصر قوة البساطة التي اربكت المعقد من اسئلتنا ومن اسلحة الاعداء. ها هي الطرق الى الوطن تصبُ كلها في وطن الطريق المؤدي الى مستقبلنا الحر، المولود من هذا الحاضر...

بحجر، بحجر...

«ومن حجر سننشيء دولة العشاق ـ هكذا قال لي الايقاع قبل سبع سنين، دون ان أعني هذه الفطرة، هذه السليقة، ولا هذا السلاح.

ألا تمتلىء اغصان شجرتنا العالية العارية بملايين من عصافير تأتي لا لترحل، بل لترتديها الشجرة في هذا الربيع المبكر او المتأخر، كأنها تنبثق من كل حبة رمل، لتختم على مرحلة العسر والعقم بولادة العمر كله؟

نعم. إن المعاني التي يبذرها هذا الحجر، القادر على كل تأويل وترتيل وتنزيل، في

تحوله من ترابٍ الى سنونو، من ماء الى نار، من هواء الى كلمة، هي اكثر ايام حياتنا موهبة وإشراقاً.

كيف تبزغ البطولة من المأساة، لا كيف تبزغ الجريمة من المأساة ـ هو الفارق الذي يقف على المنعطفات ليدل على تآخي شعب مع الحرية. وليدل ايضاً على عبث الخلط بين الخرافة والواقع.

هـل كان في وسع يزهار سميلانسكي، قبل انبلاج هذا الحجر، ان يقتبس من «سفر الملوك» حكاية نابوت صاحب الكرم في مرج بن عامر، الذي حاول الملك آخاب ان يستولي على كرمه بالفضة فرفض، ثم حاول ان يستولي عليه بأن يبادله ارضاً بأرض فرفض، الى ان حلت زوجـة الملك ايزابيل المشكلة بأن كتبت رسائل باسم زوجها الى الشيوخ والاشراف تحرضهم على اتهام نابوت، صاحب الكرم، بالتجديف على الله وعلى الشعب. فجاؤوا بشهود الزور «واخرجوه خارج المدينة ورجموه بالحجارة حتى مات. ولما سمعت إيزابيل بأن نابوت قد مات، قالت لآخاب الملك: قم لترث كرم نابوت اليزراعيلي الذي أبى ان يعطيك إياه بفضة، لان نابوت ليس حياً بل هو ميت»...

يعلق سميلانسكي على الحكاية: «تلك الارض التي نسميها «يهودا والسامرة» او «المناطق» او «المناطق المحتلة» ليست الا كرم نابوت الذي استولت عليه ايزابيل والملك بالقوة وبالخديعة. ان «يهودا والسامرة» ليس اسماً توراتياً. انه اسم مضاد للتوراة. ان «كرم نابوت» هو الاسم التوراتي الحقيقي والصائب». ويضيف: «والآن، لا نطلب من الواقعين تحت المطالبة بالانصياع وبين توقعنا ان المحتل سيتنازل عن الحـرية ويخضـع للاحتـلال ـ هنـاك شعب حـي، حـي حتى لو سميناه «عربياً». والانسان الحي مخلوق للحرية»...

شعب حـي مخلوق للحرية...

وانت على حق، يا عزيزي، في ان تنزف صرختك: اما من حجارة في الوطن العربي؟ ولكن، اياك ان تصدق الشكل الذي يتم فيه تقاسم الوظائف بين هذه العواطف. نعم، لقـد وجدت الملايين العربية تعويضاً عن كرامتها في حجر. ومن قبو سجنها الكبير صفقت لنموذج البطل العائد اليها في طفل فلسطيني يُشهر آمالها. اما بعض الكتبة، فلا يقرأ من آيات هذا الحجر غير ما يبرر التصاق جبهته بحذاء الحاكم، كأن يضع «الخارج كله» في صـف واحد نقيضاً للداخل: الخارج كله شـر مطلق. والداخل كله خير مطلق ـ وكفى الله المؤمنين شر القتال. بهذه الطريقة يبرئون ذممهم ويريحون ضمائرهم. واما بعضهم فقد أدمـن شتم الذات لسهولة دوران هذه الاسطوانة ـ على

وتيرة جاهزة، في ثنائية تقليدية. وكأن الخارج كله ظاهرة واحدة لا تنوع فيها ولا تناقض. واما البعض الآخر، فلا تصدق انه مفتون بابداع اساليب جديدة في «النقد الذاتي»، (هل يعني احداً ان تعلن المومس عن مهنتها!): إن ما يعنيه هو التخصيص المغطى بالتعميم. ان ما يعنيه هو تفتيت وحدة الشعب الفلسطيني، وتحقيق التماهي بين الشعب العربي والحاكم. «كلنا سواسية في الخارج» هكذا يقولون، ليحرروا الحاكم العربي من مسؤوليته تجاه ذلك الداخل، البعيد، النبوي، الوحيد، المتروك لمصيره الموحش...

ليت الحاكم العربي يترك الداخل وشأنه، ليته لا يشارك الاسرائيلي الخوف من استقلال الفلسطيني العربي. وليته لا يشارك الامريكي والاسرائيلي عملية الاجهاز على الانتفاضة، وعملية البحث المضني عن بديل لمنظمة التحرير الفلسطينية، وعملية البحث المضني عن بديل للخيار الفلسطيني يأخذ فيه الأمن العربي الرسمي دوراً اكثر فاعلية في قمع الانتفاضة...

هم الخائنون، يا عزيزي، هم الخائفون. لقد شغلوا انفسهم، طيلة الشهور الفائتة، في البحث عن منطقة عازلة بين الانتفاضة وبين منظمة التحرير. وحين تيقنوا من ضحالة هذا السؤال ازدادوا خوفاً وسخفاً. ولا تستهجن ابداً ان يرفعوا شعار الهروب الى امام، كأن يطالبوا الانتفاضة، وحدها، بمهمة تحرير كامل التراب الفلسطيني، من النهر الى البحر...

سيتآمرون، نعم سيتآمرون، فهل لهم من مهنة أخرى؟

اما الحجر الذي أطلع وردة، مرة، فقد أدمن مهنته: مهنة الورد...

اخوك محمود درويش
(باريس ـ ١٩٨٨/٢/٢٩)

على هذا الحجر أبني دولتي!

● اخـي محمود،

لا اليهـودي التـائه ولا الهولندي الطائر! لا ليس هذا النموذج. وسنكون على صواب حين نلتفت الى انفسنا لنكتشف المثال الكامل لجوّابي الآفاق المناوبين في الفلسطيني المسافر. الفلسطيني الهائم على وجهه ضارباً في الارض وفي الفضاء. ومن اجل ماذا؟ من اجل ان يقولوا له بلغة اخرى غير لغته: اجل انت على حـق. انت انسان عادي وتستحق وطناً عادياً!

هذا الفلسطيني المسافر ابداً والمقيم فينا ابداً هو الذي حملني فيّ الى بلاد اليونان يوم حمل اليّ ساعي البريد رسالتك.

كرم نابوت؟ او. كي. هم يقولونها الآن. يقولها ما تبقى على قيد الحياة من ضميرهم الموزع على الحياة والموت بالعدل وبالقسطاس كما يبدوا يقولها كاتبهم المحترم حقاً وعن جدارة يزهار سميلانسكي فلا تحظى بالاهتمام الا لديك انت نابوت الجديد.

وكـما قيل قديماً، فالشيء بالشيء يذكـر. وقبل عودة سميلانسكي الى «سفر الملوك» باثني عشـر عاماً كان علينا نحن ان نعود الى ذلك السفر الرهيب لنعتبر ولندعو الى العبرة. ففي العام ١٩٧٦ وبعد يوم الارض مباشرة عقدنا مهرجاناً شعبياً ضخماً في الساحة الحمراء، ساحة عين العذراء في الناصرة. وهناك ألقيت قصيدتي «قد نمهـل لكن لن نهمـل». وكـان نابوت وآحاب وسفر الملوك موزعين بين الجمهور الغاضب والشرطة المتوفزة واللحظة التاريخية.

تقتل في عـز الظهر وترث المقتول - على عينك يا تاجر -

تقتل وتصلي. تلتمس الغفران.

فأي إلـه فاجر.

يقبل كفارة عارك. لن تنعم بالصفح. استرسِل...

وكانت هناك اسفار اخرى وكان هناك يوشع بن نون في طبعتيه القديمة والجديدة:

يا يوشع بن نون!
اســمــع
يا يوشع!
اوقفت الشمس على اسوار اريحا؟
ارضيت الربّ القاتل؟
لا نعلم
لكنّا نعلم ان الشمس تسير على اعناق الشهداء
من جبل الشيخ الى سخنين
ومن المغرب لفلسطين
يا يوشع بن نون!

آنذاك لم يأت الرد من يزهار سميلانسكي. لقد جاء وبأقصى سرعة من بعض اعضاء الكنيست الذين طالبوا بحبسي سنة بدون محاكمة، وبتهمة التجديف!! مرة اخرى يبعثون نابوت ليصموه بالتجديف. ليقتلوه. وليرثوه من جديد!

وكم كان حكيماً ذلك الرجل الذي قال: ان التاريخ يعيد نفسه، لكن مرة على شكل مأساة ومرة على شكل مهزلة!

ولــلامانة التاريخية يا محمود، فان جملة من الناس العاديين الذين لم يجدوا لهم موقعاً في «سفر الملوك» يكتبون اليوم سفراً جديداً من الوعي ويرفضون الاسهام في مهازل ملوك اسرائيل الجدد. ونحن من موقعنا القومي والاممي نمد ايدينا النظيفة الى كل يـد، ومن أية لغة، تعترف لنابوت بحقه الشرعي المقدس على كرمه الشرعي المقدس.

ويقينــاً ان نابـوت العصـر لن يسلم عنقـه للجلاد. انه يقاوم الفرية بالحقيقة ويتصدى للدبابة بالحجر.

واذا كان الفلسـطيني القديم* اطلق صرخته المدوية: على هذه الصخرة أبني كنيستي، فان الفلسطيني الجديد يعلنها متمترساً في كرمة: على هذا الحجر ابني دولتي!

ولنتحدث قليلاً عن الحجر:

أتيح لي في الآونة الاخيرة ان اراجع عدداً كبيراً من القصائد الفلسطينية لاعداد انتولوجيا الشعر الفلسطيني، وهالني ان الحجر هو احد الرموز الاكثر شيوعاً في هذا الشعر. وحتى لا يرميني احد بالزندقة وادعاء النبوة (حسبنا المتنبي!) فانني اذهب الى علم النفس على الفـور زاعـماً ان الاحسـاس بشيء من العجـز ازاء آلـة الحرب

الاسرائيلية ـ الاوروبية ـ الامريكية وآلة الصمت العربية، هو الذي يدفعنا الى الـوقـوف الـروحي الأعـزل الا من مادة الـطبيعـة المجردة ـ الحجر، في مواجهة التكنولوجيا المتطورة التي عملت ضدنا حتى الآن، على الاقل والاكثر معاً...

كأننا نقول لهم: حسناً لديكم التكنولوجيا ولدينا الحجر. لديكم الميتافيزيك ولدينا التراب.. لديكم مشاريع الهجرة ولدينا خصب الولادة.. حسناً.. لن نفرط بالكرم وسنقاوم!

ولنتحدث قليلاً عن الحجر،

انني اتساءل احياناً، او على الاصح، حين يكون لدي متسع من الوقت للتساؤل: ما معنى هذا الاعجاب العالمي بحجرنا؟ الا يجوز لنا ان نعثر في هذا الاعجاب الاعلامي الصاخب على شيء من توبيخ الضمير لدى السيد عالم؟ فالاطفال لا يولدون مدججين بالسلاح.. ولعل السيد عالم يكابد وعكة من تأنيب الضمير لانه لم يحسن توزيع السلاح على ابنائه بحيث يأمن هابيل شر اخيه قابيل!

ربـمـا ولـعـل!!

ويبقى الى اجل مسمى، هذا الفلسطيني المسافر، مسكوناً بالقلق، محموماً بالغربة، تتلقفه المطارات لتنثره الموانىء.. انها الى اجل مسمّى. والى اجل مسمّى، قطعاً وبكل تأكيد، فبعد كل هذا الليل لم يبق الا ان يشرق الحجر!

وسيشـرق الحجـر، شمسـاً استثنـائية، لأن الشمس العـادية منهمكـة ببقايا الاسـطورة، مبلبلة الخطا، بين اسحق شمير المقتضب بخطاه المقتضبة على ساحة العشب قبالة البيت الاسود في واشنطن، وبين خطا ولاة النواحي من مزق وطننا الكبير.

لا بـد لنا من شروق. وسنصنع نحن شروقنا الخاص وسنوزعه على العالم بضاعة جيدة عالية الاتقان مختومة بلغة التبادل العالمية الواضحة: MADE IN PALES-TINE وستكون هناك بضع دموع غير مرئية تنشر اريجها الحاد على جهات المعمورة.

واننا لندرك تمام الادراك ان احداً لن يتركنا وشأننا. نعمل ويحاولون تخريب عملنا. هنا وهناك.. وهنا.

وكما تعلم يا محمود فإن احدى قواعد التخريب التاريخي التي يؤسسون عليها تقوم على مبدأ تشويه الصورة الخلقية والخلقية، تشويه صورة الجسد ومحتويات الروح. فنحن بشعون وكذّابون بالولادة (على حد تعبير وزير هنا اسمه؟ لا اذكر.. قد يكون «شرير».. اجل، ابراهام شرير، وهو سائح يعمل وزيراً للسياحة!).

وفي اطار عمليات التخريب يشنون اليوم حملة جديدة على القصيدة. والقصيدة المناوبة الآن هي قصيدتك عن الانتفاضة. فقد نشرت «معريف» جزءاً منها مسبوقاً بمقدمة شرسة على الطريقة المخابراتية. وهذه الصحيفة «السياسية» تتجاهل فعاليات الادباء والمثقفين اليهود المناهضة للاحتلال والداعية الى السلام القائم على الاعتراف بحقوق شعبنا، وتتجاهل ردود الفعل الواضحة والحضارية الصادرة عن الادباء والمثقفين الفلسطينيين، وتنقض على القصيدة لتنقض على الشاعر ولتنقض من بعد على الانسان ـ الشعب برمته.

وبحكم الضرورة فقد كتبت رداً على حملة «معريف» لينشر في الصحف العبرية والعربية. وقد تستغرب ان صديقنا اللدود القديم الشاعر حاييم غوري اتصل بي قبل قليل ليستفسر عن القصيدة قبل كتابة رأيه في زاويته المعروفة في صحيفة «دفار».. كان حديثي مع غوري حديثاً طويلاً وذا شجون وفاجأني تماماً حين قال: «كما تعلم وكما يعلم محمود فأنا لست محسوباً على الحمائم، الا انني في الآونة الاخيرة افكر بضرورة الحوار مع منظمة التحرير لنرى ما يمكن لكل طرف أن يقدمه من اجل السلام!».

وهكذا يا محمود، فان الكلمة التي بذرناها قبل ربع قرن لم تذهب هباءً!.. ها هيذي تشق صخرة الكارثة وتطل في برعم ضئيل، نرعاه بدموعنا ودمائنا، حتى ينمو، حتى تكون الشجرة، فلا بد من ظل في لفح الهجير ولا بد من أمل في هذا الظلام.

واسلم لأخيك المشتاق
سميح القاسم
(الرامة ـ ١٩٨٨/٣/١٧)

نعم.. بلادنا هي بلادنا!

● عزيزي سميح،

.. ولأسباب تعرفها، لم اكمل قصة نابوت والملك آخاب: «هكذا قال الرب: هل قتلت وورثت ايضاً؟. في المكان الذي لحست فيه الكلاب دم نابوت تلحس الكلاب دمك انت ايضاً. من مات لآخاب في المدينة تأكله الكلاب، ومن مات في الحقل تأكله طيور السماء».

لم أكمل اقتباس القصة، لان شعار «لن ننسى ولن نغفر» ليس شعارنا الجامد. ولأن الانساني فينا قادر على التسامح بقدر ما يتحرر.

لقد كتب يزهار سميلانسكي، قبل قليل، مخاطباً حكامه «لماذا التهرب، والتجاهل، والمماطلة، وكسب الوقت لخلق الوقائع لماذا هذه المماطلة؟ ألن تجلسوا مع الفلسطينيين في آخر المطاف؟ اذ لا مناص من الاضطرار الى الاعتراف بها. لم يكن مفهوماً في البداية. فلماذا المزيد من الألم. لماذا لا تبدأون اليوم، وفوراً؟»

وعن هذه الحتمية، كتب صديقنا المشترك عاموس كينان «شئنا ام ابينا، سيحل السلام بين اسرائيل وفلسطين ولكن من سيطالب بدم الطفل الاخير الذي سيُسفك قبل حلول السلام بدقيقة واحدة؟». ثم دعاني كينان الى كتابة مرثية الطفل الفلسطيني الذي سيموت غداً..

في هذا المناخ، اعلن الاسرائيليون الرسميون الحرب على القصيدة التي لم تكتب بعد، وعلى القصيدة التي كُتبت، لقد حفروا فيها بحراً ليشيروا الى انه مقبرة اليهود!. فهل بلغ الاستشراق المخابراتي الاسرائيلي هذا المستوى العالي من الجهل، ليتهمني بأني ادعو الى رمي اليهود في البحر، عندما اطالبهم بالجلاء عن ارضنا المحتلة؟! كما يطالب اليهود يهودهم بهذا الجلاء ام انهم في حاجة ملحة الى هذه الفرية لاعادة انتاج المقومات المنهارة لبداية تحتاج الى تجديد بدايتها كلما اقتربت من نهاية؟

لا اخفي عنك، انني اتسلى بما اقرأ من ردود فعل كاشيوس الشيكسبيري المشار الى شره بكراهية الشعر، مقابل سائق التاكسي الفلسطيني الذي سألته وكالة

الصحافة الفرنسية عن سبب استماعه الدائم الى الشعر، فأجاب: عندما اقترب من حاجز للجيش استمع الى الشعر لانه يجعلني أقوى.

هل هذه الحملة موجهة الى القصيدة حقاً؟ لا اعتقد ذلك. بل هي جزء من الحملة الرسمية على وعي السلام الجدي الذي يعبر عنه عدد كبير من المثقفين الاسرائيليين واليهود الداعين الى الاعتراف بدولة فلسطينية، الى جانب الدولة الاسرائيلية، فور الانسحاب من المناطق المحتلة. والا، فما معنى قول «يديعوت احرونوت» انني وجهت ضربة قاتلة الى اليسار الاسرائيلي الذي يدعو الى ضرورة الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية؟

ما هي الضربة؟ وما هي القصيدة؟ هل تخلصوا من حمى الاسئلة، ومن انشقاق الوعي، ومن حرب الحجر، ليشغلوا الرأي العام بقصيدة؟

وهل هم يخافون القصيدة حقاً؟ لا اظن. ولكنهم امتلأوا حتى التخمة بقصائد المهاجرين الاوائل عن تجفيف المستنقعات في الخضيرة. وعن عودة الى فردوس تمخض عن جحيم حروب لا نهاية لها، بطائرات تبعد الصراع عن ارض الصراع، الى ان اندلعت حرب الجوهر في الداخل، فلم يعد في وسع آلة التفوق العسكري ان تعمل، واصيبت الرؤوس النووية بالشلل، لان حسم المعركة بما يملكه الاسرائيليون من قوة لا يعني الا الانتحار.

هذا ما يصنعه الحجر الحي بعقلية متحجرة لم تتكون خارج شروطها الذاتية: اما الانتحار في الحرب. واما الانتحار في السلام. الانتحار في كل خيار. لان الدعوة الى سلام مشروط بالاعتراف بالحقوق والحقيقة الفلسطينية يعني، بالنسبة الى الوعي الاسرائيلي السائد، دعوة الى التخلي عن وجود لا يوجد الا في اختفاء الفلسطيني من الوجود. اذن، على احد الطرفين ان ينتحر، او على الطرفين ان ينتحرا! فالاسرائيلي الذي لم يحدد للفلسطيني غير هذا الدور، يتقمص الفلسطيني ليحدد للاسرائيلي ما حدده هو للفلسطيني من دور. ان الاسرائيلي هو الذي يحدد للفلسطيني لغته ونواياه! وان ذريعة «الدفاع عن النفس»، وهي احتكار اسرائيلي، في حاجة دائمة الى وحشية الآخر، في حاجة الى «لا سامية» ضرورية لتبرير الاحتلال الذي لا يداوى الا بمزيد من الاحتلال للدفاع عن الاحتلال!

وحين يضطر هذا الوعي الى التبدل قليلاً والى التكيف مع ظروف جديدة، فان الاسرائيلي يطالب الغياب الفلسطيني بالحضور الخاطف لمهمة واحدة محددة: ان يعترف الغائب بالحاضر. وان يعترف الغائب بأنه لم يحضر الا لكي يغيب. على المفقود ان يتحلى، دقيقة واحدة، بانسانية تمتحن مدى قابليتها للاعتراف برفاهية التخلي الحر

عن الوجود!

لا نهاية لهذا السجال العبثي لا نهاية له الا بتوقيع الفلسطيني على وثيقة التخلي عن الذات وعن الموضوع!! وعلى الفلسطيني ان يصدق في الاعلان عن ان بلاده ليست بلاده! لكي يوفر للاسرائيلي شروط الوجود. وهناك طريق آخر: على الفلسطيني ان يصدق في الاعلان عن انه لا يرضى بأقل من رمي اليهود في البحر، لكي يوفر للاسرائيلي حق الاحتلال وراحة الضمير!!

لا هذا، ولا ذاك، هو وعي الفلسطيني...

فلماذا يحتاج الاعلام الاسرائيلي الى قصيدة مثل قصيدة «عابرون في كلام عابر» ليختبر فيها براعته في القدرة على التزييف وعلى نفي انسانية الآخر؟ لماذا لا يرى من البحر وهو برية رحيلنا المائية، الا مقبرة اليهود؟ فمن هو الذي رمى الآخر في البحر وفي الصحراء.. من هو القرصان؟

وهكذا حاورني صحافي اسرائيلي:

☐ هل قلت لنا: اخرجوا من جرحنا؟

ـ قلت ذلك.

☐ لماذا؟

ـ لان جرحي هو ملكيتي الشخصية، هو جزء من هويتي فهل لك حق فيه؟

☐ لا. ولكن هل قلت لنا: اخرجوا من قمحنا؟

ـ نعم. قلت ذلك، لان قمحي هو رغيفي النظيف، فهل لك حق فيه؟

☐ لا. ولكن هل قلت لنا اخرجوا من بحرنا؟

ـ نعم قلت ذلك.. اخرجوا حتى من هواء الارض المحتلة.

☐ ولكن، لا بحر في الارض المحتلة!

ـ الا تعرف الخارطة التي تحتلها. غزة على البحر.

☐ هي تعني، اذاً، بحر غـزة؟

ـ هذا البحر اسمه البحر الابيض المتوسط، لا بحر غـزة.

☐ اذن، هل تعني ان علينا ان نغرق في البحر؟

ـ قلت لكم: اخرجوا من البحر. ولم اقل لكم: اذهبوا الى البحر.

☐ ماذا تعني، اذاً، بقولك «ايها المارون في بحر الكلمات».

ـ لم اقل ذلك، قلت: «ايها المارون بين الكلمات» وهناك فارق طفيف بين كلمة «بحر» وبين كلمة «بين».

☐ ولكن صحيفة «معريف» وغيرها من وسائل الاعلام الاسرائيلية تقول انك قلت

«بحر الكلمات».
ـ أنا أدرى بقصيدتي من وسائل الاعلام. ثم ماذا لو قلت «بحر الكلمات»؟ ما هي المعضلة؟
☐ ان في ذلك ايحاء برمينا في البحر.
ـ انك تحرك فيَّ الضحك.
☐ وهل قلت ان فيكم ما ليس فينا: وطناً ومستقبلاً؟
ـ نعم. قلت. ما الذي يثيرك؟
☐ أليس لنا وطـن ومستقبل.
ـ ليس لكم وطن ومستقبل في الاحتلال.
☐ قـل لـي: مـا هـي بلادك؟
ـ بلادي هي بلادي فلسطين.
☐ كـل فلسطين؟
ـ نعم. كل فلسطين بلادي. هل خدعك احد وقال ان فلسطين ليست بلادي؟!
☐ لا انها بلادي.
ـ انت تؤمن بأن بلادك قد تمتد من النيل الى الفرات وانا اؤمن بأن فلسطين، وحدها، هي بلادي.
☐ ونحن، ما هي حدودنا؟
ـ عليكم انتم ان تقولوا ما هي حدودكم في بلادنا. لان جزمة الجندي المحتل لا تصلح لان تكون حدوداً كما كان يحددها الجنرال ديان. اما نحن فلا نسأل ما هو وطننا لاننا نعرفه تماماً. بل نسأل عن دولتنا الممكنة من ارض وطننا. ونحن لا نأخذ منكم شيئاً لكم... نحن نأخذ من حقنا. فان تنسحبوا مما هو حولنا الى ما هو لنا لا يعني اننا نأخذ منكم شيئاً. هل تفهم؟
☐ لا أفــهــم...

ولن يفهم ان السلام ليس نقيضاً للحرية. ولن يفهم ان هذا السلام ليس عدلاً. ولن يفهم ان المطالبة الفلسطينية بحق العودة، وبحق تقرير المصير، وبحق انشاء الدولة الفلسطينية على جزء من الارض المحتلة لا يعني ابداً ان بلادنا ليست بلادنا. ولن يفهم ان المحتل لا يتنازل عن شيء يملكه. ولن يفهم اننا نحن الذين نتنازل.

من المدهش ان يدهش الاسرائيليون من قوة صفاء الذاكرة الفلسطينية. هل كان على الفلسطيني ان ينتظر الفي سنة لتأذن له الذاكرة اليهودية بأن يتذكر. وبأن يعود، مرة مع السيد بلفور، ومرة مع كورش، ومرة مع حاملة طائرات اوروبية، ومرة مع

البند العربي في احتياطي الامن الاسرائيلي؟!

ان عشرين سنة، واربعين سنة، لا تكفي لان ينسى الفلسطيني اختلاط عروقه بتراب بلاده. ما هي بلادك يا سيد سميح القاسم؟ تصور ان يوجه اليك هذا السؤال! وتخيل انك تجيبه بأن بلادك هي بلادك فلسطين. وتصور ايضاً ان يسألك: ما هي دولتك الفلسطينية. وتخيل ماذا يحدث له لو قلت: انها قطاع غزة والضفة الغربية لنهر الاردن. سيقول لك: يا ابن الطابور الخامس... ارحل من بلادي ومن دولتي الى دولتك في غـزة!

وجـع، وجـع، وانشطار.

هل في المخيلة السوداء ما يشبه هذا الواقع؟

فنحن مطالبون الآن، منذ الآن، والى زمن لا نعرفه بأن نقايض موتنا الآمن بحياة الاحتلال المتوترة. الاحتلال في مأزق، وعلى الفلسطيني ان ينخرط في عملية انقاذ الاحتلال لان مصيره قد تقاطع مع مصير الآخر!!

لا يكفي ان تقول ان طريقة تعامل الاسرائيليين مع الحاضر الفلسطيني هي التي ستحدد طريقة التعامل الفلسطيني مع المستقبل الاسرائيلي.

ولا يكفي ان تقول ان طبيعة تعامل الاسرائيليين مع الوجود الفلسطيني هي التي ستحدد طبيعة التعامل الفلسطيني مع الوجود الاسرائيلي.

لان «العالم الاخلاقي» حريص على مصير الاحتلال اكثر من حرصه على مصير شعب. «مـاذا سيفعـل الاسـرائيليون المسـاكـين بعد الانسحاب؟ من يضمن لهم المستقبل؟» هكذا يتساءل الضمير العالمي، ويطالب الفلسطينيين بأن يتخلوا عن حصتهم من الماضي ومن المستقبل، من الذاكرة ومن الوطن ومن الحلم، وبأن يوافقوا على استبـدال جيش الاحتلال الاسرائيلي بقوات أمـن عربية تضمن لداء القلق الاسرائيلي علاجاً بعيد المدى، وتنقل الصراع الاسرائيلي ـ الفلسطيني الى حرب أهلية عربية، لا كاميرا فيها ولا شاهد.

اذا كان الامر كذلك، فان شعار «لن ننسى، ولن نغفر» هو شعارنا الطويل الطويل...

واذا كان الامر كذلك، فان الامر كذلك...

ومع ذلك، فان في وسع الشمس ان تشرق من حجرا

لان بـلادنـا هـي بـلادنـا.

اخوك محمود درويش

(تونس ـ ١٩٨٨/٣/٢٢)

نحبها.. ابنة الكلب الحياة!

● اخـي محمود،

نعم، بلادنا هي بلادنا وتنطلق صلية من الرصاص الطازج على افواه كوكبة من الشهداء المناوبين. كيف تجرؤون على مثل هذا القول؟ ونعم، مرة اخرى، بلادنا هي بلادنا، فتمتد ذراع من الموت والفولاذ الى اقاصي الارض لتقتنص فلسطينياً يجرؤ على الحلم. وعبر سبعين وردة حمراء ندية على قميص ذلك الفلسطيني تدوي الصيحة من جديد، تدوي سبعين مرة، سبعين وردة، سبعين موتاً وسبعين ميلاداً. نعم، بلادنا هي بلادنا، ومع كل اغتيال جديد يتأكد القديم الاكيد، نعم، بلادنا هي بلادنا.. فليتعم القناصة العمي بالدم الكبير الملتف على ايديهم قضاءاً لا ينثني، وقدراً لا ينكص على عاصفته، اجل، هي بلادنا ولا بلاد لنا سواها.

واذا كان الموت حراً الى هذا الحد، فلا يبقى امامنا سوى ان نشاطره حريته هذه!

ان رغبة حادة في بكاء عاصف تأخذ بتلابيب قلبي.. وادري يا محمود ولا ادري، لماذا اصبحت الحياة غالية لديّ، وغالية جداً كقشرة البصلة. وأدري يا اخي ولا ادري، كيف اصف شعوري ازاء نبأ عادي في صحيفة اسرائيلية عادية (يديعوت احرونوت ٨٨/٥/٨) عن ذلك الفتى الفلسطيني الذي فوجيء بالمستوطن الاسرائيلي وهو يسدد سلاحه الى قلبه. لقد تعرف ذلك الفتى الى «جاره» اليهودي فصاح به: «يا شموئيل لا تطلق النار!» الا ان شموئيل لم يتردد، وبيد ثابتة ضغط زناد بندقيته مدفوعاً بارادة «الهية» لا ترد (...)

وكيف حالك يا ابن عمي وخالتي؟ ما اخبار الجراد في تونس؟ كيف الطقس في باريس؟ اذن فقد نجح فرنسوا ميتران. تستحق فرنسا هذا العقاب والأسوأ من ذلك انهم لم يرشحوا تشيتشولينا لمنصب امين عام الامم المتحدة. هل تعتقد انها كانت ستفوز؟ ستحتدم المنافسة بينها وبين مارادونا. اما رئاسة الولايات المتحدة الامريكية فلا تليق الا بالسوبرمان رامبو ستالوني.. انه رجل حقيقي هذا الولد الايطالي الاحمق. هل تعتقد انه سمع بدانتي اليجييري؟ ولماذا يسمع به؟ ذلك ليس

شرطاً لتسنم رئاسة الولايات المتحدة الامريكية! ثم ان رونالد ريغان لم يكن ملزماً بقراءة والت ويتمان، لكنه عرف والت ديزني بالتأكيد!!

انني تعب يا صديقي. تعب وعنيد مثل ثور، لا اجد للراحة سبيلاً ولا اريد التفكير، مجرد التفكير باليأس. وان لم اقل لك انني نهب رغبة جامحة في الصراخ، فلمن اذن اقول ذلك؟ ان غزالتي النافرة محاصرة حصاراً مطبقاً بين الخنازير الداجنة، وروحي باهظة يا صديقي. ولا ورد الا ما تبوح الدماء ولا ضوء الا ما يصيح الحجر.

لقد كانت رحلة وفـد اتحاد الكتاب العرب الى تشيكوسلوفاكيا موفقة للغاية وعاد اخوتنا اعضاء الوفد بصيد وفير من السعادة، كما ان وفدنا الى بلجيكا عاد هو الآخر مثقلاً بفرح الانجاز ومتعة العطاء. بقي علينا ان نباشر اصدار مجلتنا العتيدة وسنفعل ذلك حين تتوفر لنا الشروط، وفيما بعد يكون هذا الاتحاد قد أرسى أسسه المتينة ويصبح من حقي ان افيء الى زيتونة همومي الشخصية لاقول ما لم اقله بعد، ويخيل لي احياناً انني لم اقل شيئاً طيلة حياتي وانني موشك على انفجار لا يُبقي ولا يذر.

ان كان لديك وقت للقراءة فماذا تقرأ في هذه الايام؟ لقد فرغت الآن من قراءة رواية استورياس «الها خاديتو». انها اشبه بقطعة انيقة من الماس. لقد نحتها الرجل نحتاً، لذلك لم استمرئها كثيراً. وبالمقابل فقد كنت استمتعت قبلها برواية ياشار كمال «ميميد الناحل». انها عمل عظيم حقاً. وفيها من الشعر بقدر ما فيها من الرواية وقد ذكرتني بأعمال كازانتزاكيس وماركيز وايتماتوف.

ولا اخفي عنك عجزي في هذه الايام عن قراءة الشعر. ببساطة لا استطيع ان المس ديواناً من الشعر، وارجو ان تكون هذه حالة عرضية عابرة.

وماذا عن السفر؟ لعلك لم تزل على سفر دائم. اما من ناحيتي فقد نشأت ظروف جعلت السفـر امـراً عسـيراً، مما اضـطرني الى الاعتذار وتأجيل دعوات الى الهند واستراليا والولايات المتحدة والمانيا الغربية وانكلترا واليونان ورومانيا.

امـا المهمـة التي كنت أتمنى حقاً ان اقوم بها فهي تلبية دعوة صديقنا الشاعر الـدكتـور عبـدالعـزيز المقالح للمشاركة في ندوة المثقفين العرب في صنعاء لدعم انتفاضة شعبنا.

وأية قسمة هي هذه يا اخي؟ الى متى أحرم زيارة وطني الكبير؟ وهل سيكون عليّ ان اموت مثل طائر في قفص؟ صحيح انني احوم كثيراً في هذا العالم الا انه يظل على رحابته، قفصاً ضيقاً على جناحين يعتقدان ان سماءهما الحقيقية والاولى والاخيرة هي سماء الربع الخالي العامرة!!

اما اذا قيّض لك انت ان تشارك في هذه الندوة، فأرجوك ان تداعب شعر طفل يمني وان تلمس جداراً من صنعاء وان تربت على نافذة وشجرة وان تقول: هذه يـد اخيكم من هناك!

وصافح اخوتنا وناسنا وقل لهم هذا قلب اخيكم من هناك!

لعلك علمت بأن مختاراتي الشعرية التي ترجمها الى الفرنسية اخونا وحبيبنا الشاعر المغربي عبداللطيف اللعبي صدرت اخيراً في باريس عن دار «مينوي» واليونسكو. ولدار «مينوي» هذه مكانة خاصة في ذاكرتي ووجداني، فهي التي نشرت ادبيات المقاومة الفرنسية في اثناء الحرب العالمية الثانية، وما زلت اذكر جيداً قصة «صمت البحر» لفيركور التي قرأنا ترجمتها العربية قبل عشرين سنة تقريباً. تلقيت دعوة من المركز الثقافي الفرنسي في تل ابيب لقراءة بعض قصائد المجموعة بالعربية والعبرية وليقرأها احدهم بالفرنسية. اقترحت عليهم دعوة صديقنا الممثل يوسي شيلواح ليقرأ بالعبرية نماذج من شعرنا معاً، من نصوص مسرحية الكولاج من الادب الفلسطيني. وحين كلمت يوسي بهذا الشأن بدا لي محطماً تماماً لان حرباً شعواء تشن في هذه الايام ضد مسرحيته. لقد الغت بلدية تل ابيب جميع عروضه واوصدت الابواب في وجهه، وسـأحاول ان ارتب له بعض العروض في الوسط العربي. لقد تعب الرجل وشقي كثـيراً لاعـداد هذه المسـرحية وحين ادرك الجماعة «خطورتها» اغلقوا نوافذهم في وجهها. ما لهم ولهذا «الوباء»؟

واذن، فانهم يرفعون ضدك قضية لدى القضاء الفرنسي ويطالبون بتغريمك! لقد ضحكت حين قرأت النبأ. ولا تنكر انك انت ايضاً ضحكت. انها صورة سريالية يعجز عنهـا سلفـادور دالي نفسه. فأنت تسلم في نقاشك مع الخواجا فيزل بأن الضمير اليهودي معرض للاحتلال. ومن هذا المنطلق المثالي جداً تخاطب هذا الضمير وتدعوه للتحرك من اجل وضع حد للغبن اللاحق بشعبك. كنت اتوقع ان يقاضيك الفاشي «لوبان» لانه لا يمكن ان يسلم بنقاء الضمير اليهودي، اما ان تقاضيك جماعة يهودية فانها صورة سريالية حقاً!!

على اية حال، فهـذه هي طبيعــة الامور اليوم، ولن يكون بمقدورنا استبدال عصرنا بعصر آخر. نحن هنا وهنا محنتنا. لم نختر حياتنا الراهنة لكننا اخترنا نموذجاً لحياتنا المؤمّلة. وما دمنا قررنا الاختيار فلا يجوز لنا التملص من دفع الثمن كاملاً لهذا الخيار، وها نحن ندفع يا صديقي، ندفع دماً ودموعاً، وعياً وجنوناً، ألماً وثورة.

ندفع دماً وشعراً، دماً وخطباً سياسية، دماً ومؤتمرات، دماً ونضالاً، دماً وفرحاً، دماً ودماء ندفع ليهود فرنسا والمان البرازيل، لهنود كوستاريكا وانكليز الهند... ندفع يا صديقي وندفع. لا ينبغي ان يوقفنا شيء، ولا شيء يوقفنا، لان وقوفنا موتنا، ولا نريد ان نموت، فنحن نحبها، نحبها ابنة الكلب الحياة...

أخوك سميح القاسم
(الرامة ـ ١٩٨٩/٥/١١)
[بالمناسبة، هو يوم ميلادي فكل عام وأنت بخير]

حنين إلى الشعر

● عزيزي سميح،

أصابني ما أصابك من جفاف في الشهية الشعرية. لم اقرأ من الشعر، في الآونة الاخيرة، غير ديوان طرفة بن العبد، وقصائد للصِّقلي ابن حمديس، ومجموعة من قصائد اليوناني البلوري ايليتس. وهزتني كثيراً مختارات من آخر الفرنسيين الكبار رينيه شار.

انت تعرف انني أدمنت على قراءة الرواية. شرعت منذ قليل في قراءة التشيكي كونديرا لسبب لا اعرفه؛ بعدما فرغت من قراءة «التيجان في ملوك حمير» وكتاب عبدالرحمن الشرقاوي الشهير «علي امام المتقين».

اما الشعر، آه من الشعر.. فإنه يبتعد عنا بقدر ما نقترب منه. ونبتعد عنه كلما اقترب منا، لان الحياة تأخذنا الى ما ليس فيها من شعر. فهل اعترف لك بأنني أحن الى كسل طويل، الى رصيف هادىء، الى حديقة آمنة، والى حب أقل لأكتب اكثر؟ لا اخفي عنك انني اعيش في قلق، قلق يتوتر الى حد التساؤل عما فعلنا في هذا العمر: هل كتبنا؟ ومتى نكتب... متى نكتب؟

الوقت يمضي بنا. يغافلنا ويمضي بنا. ولكن ما زال في مقدورنا ان نحلم بوقت نتفرغ فيه للبحث الانيق عن الفارق بين ما يقوله الواقع وما قد يقوله الشعر: وعن تخصص النص بخصائص الانتماء الى هذا الواقع دون ان يكون ملحقاً به، وان يقول الواقع بلغته لا بلغة الواقع. وباختصار: اين شاعرية الشعر؟

لقد تعودت على هذا الاحباط. ولكن هل ينجو الشاعر دائماً من خطر الجفاف؟. هل تتفتح الوردة دائماً في كل ربيع؟. بعد نجاتي من خطر الموت في فيينا صرت عدوانياً مع الاطباء، فأحالوني الى طبيب للعلاج النفسي. ولكنني قلت له بعد جلستين: اذهب، فلست في حاجة اليك... لانني اعرف ما بي.

كان عليّ ان اعيش حياة جديدة وتقاليد عمل جديدة. كان عليّ ان أتحول الى كلب حراسة لقلبي: كان عليّ ألا ابلغ التوتر العالي الضروري للكتابة. لم يكن ما يخيفني

فقط هو انني لن اعود قادراً على الكتابة، بل هو احساسي المدمر بأنني لم اكتب شيئاً. كنت اخسر مبرر وجودي، كنت أمر على الارض كورقة بيضاء.

وحين نسيت قلبي، كتبت كما لم اكتب من قبل. كنتُ في سباق مع الموت. سألوني: لماذا تكتب؟

قلت: لأنني سأموت.

ان شيئاً من تلك العتمة يحتل روحي الآن. اريد ان اكتب... اريد ان اكتب. ولكن الكتابة لا تغتصب اغتصاباً، كما لا تغتصب الشهوة!

لقد انتبهت الى الخطر الناجم عن هروب الرصيف من ظهيرة باردة، وعن رحيل الكسل عن نخلة المساء. مررت، امس، في احد شوارع تونس لاجد ما يجرحني من جمال: صفين من شجر لا اعرف اسمه ينشران مناديل شفافة من الليلك الطائر في سماء عابرة وعلى الارض الرطبة حبات من رذاذ الليلك. قلت لصاحبي: انظر... انظر الى سحابة الليلك. ابتهج بها صاحبي لينساها بعد قليل: عليك ان تؤجل شاعريتك... فأنت في خطر!

ما قيمة حياة بلا شاعرية. او ما معنى وجود مُطالب بقمع شاعريته؟ ولكن الممثلة فانيسا ردغريف جرحتني اكثر: هل انت ابن محمود درويش؟ قلت لها: لا. انا أبوه!

هل انا حقاً ابوه، ام انا ابنه؟ كلا السؤالين يشير الى انفصال، ويدل على غائب. فالشاعر موجود في شخص آخر. الشاعر شائعة او ظل. فإلى متى انتظر عودة المهاجر الى المنفى الاصلي!!

قلت اكثر من مرة ان ما يعجبني من شعر هو ما ليس يشبهني من شعري او من شعر غيري. لذلك لم يحدث ابداً ان قرأت نصاً كتبته خوفاً من الندم: كان عليّ ان اكتب بطريقة اخرى: كان عليّ ان اختلف اكثر!

لم أشارك، منذ مدة، في أمسيات شعرية. وحين وصلت الى قاعة النادي الدولي في بروكسل منذ ايام، همست في اذن صديقي: لا شهية لي... لا شاعرية فيّ... فماذا أفعل؟. ولكن كان عليّ ان اقرأ. فقرأت ما ليس معروفاً من شعري... قرأت القصائد الشخصية. فاشتقت الى الشعر. اشتقت كثيراً الى الخيبة!

أما من مكان للفرح في القصيدة. اما من مكان للقوة. اما من مكان الا لما فينا من ضعف انساني ومن هشاشة في العزلة. أهذا هو مجال الشعر؟

ربـــما؟

على الشعر ان يحاذر قول ما يمكن قوله بغير الشعر ـ تلك هي حكمتي اذا جاز

لي ان ادعي الحكمة. ولكن كيف ندرك ذاك الهامش. كيف نعرف الفارق الصغير بين ما هو شاعري وما ليس بشاعري.

إني اشكو المقعد. أشكو من الجلوس على المقعد، حتى لو كان مقعداً من هواء!

ستقول كما يقول الكثيرون: ولكن لنا خصوصية، وتلك هي شروط حياتنا.

نـعـم، نـعـم.

هل تذكر العابنا في ذلك السجن؟ رقصاتك مع البحارة في النوادي الممتدة على رصيف الميناء. حبّ البحارة العابر على طريقة بابلو نيرودا. الايقاعات الاولى لقمر غارسيا لوركـا العجائبي. والتخريب الجميل الذي احدثه ناظم حكمت في سياق الشاعرية الاولى حين وضع الرغيف نقيضاً للوردة، وصدمة القراءة الاولى من خلخلة عفوية في نظام القصيدة الهندسي وفي مألوف الصورة، فاختلط عليهم امر الاستعارة مع الرمزية. و... الذهاب الاول الى شعر لا مدرسة فيه ولا معلمين...

حتى جاء حزيران ليربكنا ويربك الآخرين، لان الحماسة انتقلت من موقع اللغة الافقي الى مجال آخر تشهد فيه النفس على نفسها، بلغة كفت عن مناطحة الدبابة لتحاور ما في باطن الارض من موتى وجذور، فانتقل صراع الشعر الى صراع على هوية حجر، وتأويل ما يقدمه من قراءة وإشارة.

عاد الجنود الى ثكناتهم مهزومين. وخرجنا من السجن الجبلي الى البحر الأقوى... شعراء يرتبون الزنابق في مزهرية الصوت المطالب بأن يعيد النظر في نتائج الحرب، ليكون المهزوم اكثر انسانية من المنتصر. واختلطنا لنفترق. وافترقنا لنندمج. وكان علي الشعر ان ينفض الرمل عن اسماء الشهداء، وان يروض الاعداء قليلاً لنذهب معاً الى محكمة العدالة. ولكن القضاة والشهود كانوا من الجنرالات المتقاعدين.

لم نلعن غير القتلة، فأصابت لعنتنا المجتمع. واتسع الصدى في امتداد الصحراء. وكان عليك ان تقبل دور المبشر المنادي على أفق. وكان عليّ ان اقبل دور الصوت المضغوط في زنزانة. كم نعرف ما فينا من قهر وسخرية. كم نعرف ان لا نهاية مرئية لهذا النشيد. وكان علينا ان ننشد...

هل كان سجناً ذاك الذي انت فيه؟ انت تقول: نعم. وتقول ان الأفق خلف الباب، وان مفتاح الباب في جيب الاغنية المنتظرة. وهل لك ان تقول غير ذلك. وإلا فكيف تحيا وتصدق ما فيك من قول لم تقله!

كم أفهم حنينك المجنون الى مواقع تكوينك الروحي، الى شوارع المدن العربية، الى ما كان والى ما سيكون من تاريخ. وكم اغبطك على هذا الحرمان، لا لأنه سيسفر عن خيبة، بل لأن تلك الشوارع تشرئب كلها الى الشارع الذي أنت فيه، الى النار

التي تحرقكم وتضيئنا!!

سأبلغ سلامك الى الشوارع والنوافذ. بعدما عجز الخطاب الرسمي عن اختراقها، وعجز عن طرد بلادك من الوعي العام، وعجز عن التشكيك بالرسالة الفلسطينية. لقد جس خليل الوزير، شهيداً، نبض القلب العربي فوجده سليماً سالماً معافى من امراض الخطاب الرسمي الذي لم يصل صداه الا الى كتابه المقعدين.

الانتفاضة... الانتفاضة هي عمرنا الجديد. هي الفرح الصعب المصنوع من شقاء جيل عثر اخيراً على السر، على الشعلة، وعلى الطريق. يستطيع الكثيرون منا ان ينصرفوا الآن اذا عجزوا عن ادراك اللغة الجديدة، فلا حاجة لأحد، بعد الآن، بالعقلية القديمة. ولا حاجة لاحد بمحاورة الاحتلال الذي أغلق جميع ابواب الحوار، ما دام الوعي الخرافي الوحشي هو الوعي السائد، وما دام المجتمع الاسرائيلي مريضاً الى هذا الحد، فها هو يدرب شبيبته على تعذيب الجسد الفلسطيني بسادية ولـذة.

وهـا هو المجتمـع الفلسـطيني يواصل التعبير البطولي عن انسانية تطرد من المجتمـع الاسـرائيلي المـريض آخـر مبرراتـه الاخـلاقية. «مـا قيمة اسرائيل بلا ديمقراطية؟ ما مبرر اسرائيل بلا اخلاق» ـ هكذا ينوح عشاق اسرائيل الغربيون.. وهكذا نسخر مما نعرف.... من خرافة مسلحة صار قانون ديمقراطيتها مشروطاً بأن يعـترف المـرشـح للبرلمان الاسرائيلي بأن «اسرائيل هي دولة اليهود». فماذا يفعل الكاتب الاسرائيلي انطون شماس بجنسيته الاسرائيلية، طالما ان اسرائيل هي «دولة اليهود»، لا «دولة الاسرائيليين»!!

نعم، سأذهب الى المحاكمة، لا لأدافع عن نفسي، بل لأحاكم الابتزاز الصهيوني الذي يريد أن يقنعني بأن الضمير اليهودي ملحق بالاحتلال الاسرائيلي. سأحاول ان ابريء الضمير اليهودي من تهمة المشاركة في قتل اطفال فلسطين. فهل استحق المحاكمة على هذا الايمان؟

إسـخـر، يـا اهبل، إسـخـر...

وسأسخر بطريقة اخرى حين سأضطر الى الدفاع عن حقوق الانسان اليهودي في الهجرة الى حيث يشاء. فالاسرائيليون والامريكيون الذين حاصروا مفهوم «حقوق الانسـان» بمعنى وحيد هو حـق اليهـود السـوفييت في الهجرة الحرة... هم الذين ينتهكـون حقوق الانسان اليهودي بارغامهم اياه على الهجرة الى اسرائيل لا الى

الولايات المتحدة كما يريد...

وهكذا فانهم يحولون المهاجرين اليهود من مهاجرين الى أسرى وسبايا لا حق لها في اختيار وطـن منفاها وهجرتها.

هـل ترى ما يفعل الاسرائيليون باليهود؟

إسـخـر، يا اهبل، إســـخـــر.

اخوك محمود درويش

(باريس ـ ١٩٨٨/٥/٢٤)

الموت واللقاء.. هناك أو هنا

● اخـي محمود،

لعلك تذكر ان الورود كانت دائماً تلك الاصابع الالهية التي ما ان تلمس القلبْ حتى يغمره ضباب من أسـى لا يوصف.

وبعد غروب الشمس عن هذا النهار الذابل، كان عليّ ان اسقي الورود الناشئة في حديقة منزله (المنازل لله)!

ومع رذاذ الماء المتناثر على نبات الروح الشفاف، تساقطت من حنجرة اخيك قطرات صغيرة من الدمع. (الدمع مصدره الحنجرة، أما العينان فليستا غير ظاهر النبع).

لقد رحلت خالتك «ام قاسم» التي احبتنا على علاتنا، وأطعمتنا الكبة واسترضت الله علينا قبل سفرك القديم وبعده.

انها ترقد الآن في مقبرة العائلة، حيث يرقد جدي القديم وابي الاخير، رحلت مع الـراحلين، لتعيدني دفعـة واحدة الى طفولة راحلة وفتوة موغلة في الرحيل: عرب رحل... شعراء رحل... اطفال رحل... ولا إله الا الله!

إنني اسند جسدي المرهق الى شجرة الروح العالية ابداً، أسند جبيني الى راحتي واكابر قليلاً لأكتب اليك. (للكولونيل من يراسله)... وماذا افعل بداء السخرية الذي يستشري يوماً بعد يوم وموتاً اثر موت، ويفتت قليل الجسد، بكثيره الناهش في الروح، النافر سراً وعلناً؟

لا بأس عليك اذا انت احـزنتك سخريتي بعض الشيء فإننا نتسلى بأعصابنا، ونلوذ بما تبقى من هواجسنا: احتمي بهبلك كما تحتمي بهبلي، ونظل رغم كل شيء، ولدين عاقلين لدرجة الفجيعة.

لقد اصبحت الحياة (حياتي) على قدر باهظ من الانحباس، وغدا جنون الكتابة

عيباً اجتماعياً يضاهي الفضيحة... واختلط حابل المفاهيم والقيم بنابلها. ويقيناً اننا في حاجة قصوى الى انتفاضة تؤاخي بين الروح والجسد، وتجمع التفاحة الى الوردة والحجر الى السنبلة.

وكأني بك تكابد ما اكابد، فتلمح في رسالتك الاخيرة الى «المرشحين للبرلمان الاسرائيلي».

يا لمخلب قلبك الطيب، والذي لم تتقن حراسته ابداً. ويا لوحشة قلبي المعتزل في الزحام المنطوي في الجمهرة. ويا للقلق الذي لم يكف يوماً عن مباغتتنا بلا رحمة.

صحيح اننا تغيرنا كثيراً يا محمود، لكن ليس الى هذا الحد، وما زلنا غير صالحين للبرلمانات ولا هي تليق بنا. ولا احيق بها يدفعني الآن الى تكرار كلمات فرّجت كربتي قبل ما يقارب الخمسة عشر عاماً.

الموت، يا شعراء جيل الجرح، بالمرصاد واقف
الموت، للصوت المكبل بين آلاف المعازف
الموت، قلت،
فحاذروا لغط الاكاديمية الصفراء
واجتنبوا المتاحف
في معهد الريح ابتدأنا
فلنكمل... في العواصف!

وإن اخـاك ليؤثـر ان يكمل في العواصف... وإذا كنا ممن يحجمون عن وضع عندليب في قفص، فأنى لنا المواءمة بين عاصفة الايل وقفص العندليب؟

بدأت كتابة هذه الرسالة مساء امس في الرامة، وحين بكى الصغير «ياسر» كـفَّ القلب عن البكاء، وذهب ليمارس مهنة الأبوة.

الحـب، الرأفـة والوقار... هذه هي اقانيم الابوة، ولك ان تشمت بي كما تشاء، فلا تدري نفس بأي أرض تموت!

وها أنذا الآن، أتابع مخاطبتك الصماء في مكتبي الحيفاوي الصغير...

على الجدار المقابل صورة كبيرة لصديقنا دراكولا (فلاد تسيبش) ذلك المناضل الروماني من القرن الخامس عشر.

لم يكن دراكولا غير مصاص دماء مقزز، يلتهم النساء ويتسلى بالجثث...

كانت تلك صورته المقدمة الى العالم عبر أدبيات تجار الغرب الاوروبي وسينما تجار الغرب الامريكي...

وكان عليّ بصفتي عضواً في الأسرة الدولية ان أتبنى هذه الصورة، الى ان أتيح لي

اكتشاف الحقيقة، حين دعيت وزوجتي لزيارة جمهورية رومانيا الاشتراكية الشعبية... وهناك أعدّ لنا مضيفونا مفاجأة في قلعة بران، قلعة دراكولا، فقد قدموا لنا تاريخ الرجل وصورته على طبق من فضة المعرفة وذهب التوثيق.

لم يكن ذلك الامير القاسي غير مناضل من اجل الحرية والامن الاجتماعي وقد وظف قسوته الشديدة لخدمة هذين الغرضين. بينما نشهد اليوم، وعلى اعتاب القرن الحادي والعشرين، كيف يوظف «امراء» العصر رقتهم المتناهية وسفافتهم القصوى، لقمع الحريات ولسلب الامن الاجتماعي ونهب الطمأنينة السياسية والاقتصادية، ولتصنيف المجتمع البشري الى سراق ومسروقين وقتلة ومقتولين.

لقد حاولت، انا المخرب الفلسطيني والارهابي الايرلندي، وكاهن السبخ السفاح، حاولت انصاف ذاتي بانصاف ذلك «الفامبير» الروماني، فكتبت قصيدة «دراكولا ليس دراكولا»...

ولانني لا اجيد لغات العالم قاطبة، ولبقيني بأنه ليس من المفروض او المتوقع ان يجيد العالم قاطبة، الشعر، فان دراكولا يظل في الوجدان العام، دراكولا نفسه، الى ان تتخذ هيئة الامم المتحدة قرارا يعفي دراكولا من صورته، ويضمن عدم لجوء الولايات المتحدة الامريكية الى «الفيتو» شريطة اعفاء الصهيونية من صورتها!

كل شيء بثمن.... وهذا هو ثمنك يا دراكولا اللعين...

وعلى الجدار المقابل، ايضا، لوحات الفنان البريطاني رالف ستيدمان المتفاعلة بصدق ملموس مع قصيدتك وقصيدة اخينا ادونيس وقصيدتي.

وعلى الجدار المقابل ايضا، جدار يكتب من جديد رسالته القديمة الخالدة: لك المجد يا باطل الاباطيل!

جدار وراءه جدار، وراءه جدار.

وعبر الجدران والاسلاك الشائكة في معتقل «انصار ـ ٣» الرهيب في صحراء النقب اللاهبة، تسللت الى جريدة «الاتحاد» رسالة من اخوتنا الشعراء والكتاب المعتقلين هناك، هي أشبه ما تكون برسالة الاستغاثة التي تبثها الى جهات الكون المعتم سفينة الجسد الموشكة على الهلاك.

ليس ما يكابده اخوتنا هناك حجرا سياسيا وثقافيا فحسب، انهم يتعرضون للتعذيب الجسدي الرهيب: من منا دراكولا؟ ها، قل لي اين يقع دراكولا؟ وماذا نفعل ازاء هذا الفصل من فصول الجحيم المتعددة المسالك، العديدة الابواب، ذات الاتجاه الواحد؟

لقد قرر اخوتك في اتحاد الكتاب العرب هنا توجيه نداء آخر الى ادباء العالم

ومفكريه وفنانيه... وقرروا تجنيد اكبر قدر ممكن من الكتاب الديمقراطيين في البلاد وفي العالم كله لمواجهة هذه المحنة.

اضعف الايمان؟ لا بأس علينا إن نحن اشهرنا اقلامنا في وجوه الطواغيت...

ومن جهتي، سأكف عن الكتابة اطلاقاً وطلاقاً بالثلاث، لو فقدت الايمان بعلو يد القلم على يد السوط.

ولا ريب في انكم ستجندون قدرتكم الكبيرة على التحرك والتشعب، لايصال صوت الكلمة المشتعلة في معتقل «انصار ـ ٣» الى كل بقعة من ضمير في هذا العالم.

في تموز (يوليو) القادم، الثالث عشر منه كما اظن، تكون اربعون عاماً قد تكدست على دم شاعرنا وشهيدنا الحبيب عبدالرحيم محمود، الذي تيمن بالاسراء والمعراج في معركة الشجرة، واهوى نيزكاً ينشد على ايقاع الرصاص والشرايين المتفجرة:

سأحمل روحي على راحتي
وأهوي بها في مهاوي الردى
فإما حياة تسر الصديق
واما ممات يغيظ العدى
ونفس الشريف لها غايتان
ورود المنايا.. ونيل المنى...

لقد حقق عبدالرحيم محمود انسجامه التام. ودخل «نيرفانا» الخاصة به، طوبى له وطوبى لنا به، هذا المتناغم جسداً وروحاً، قولاً وفعلاً، لساناً ويداً، هاجساً ودماً. طوبى له هذا الغني المدقع، هذا الذي بلغ الكشف فرُؤيَ ورأى.

ونفكر في هذا المقام المشرق، ان نقيم مهرجاناً لذكرى عبدالرحيم محمود في موعد اندغام الحرف بالوريد، ونرجو ان تكون هناك، بشكل او بآخر، ولا يهم. سنكون معاً.

وصلتني الدعوة للاسهام في مهرجان الشعر العربي الذي ينظمه اخونا رياض الريس في لندن. ارجو ان اتمكن من المشاركة، وآمل ان نلتقي هناك... او هناك... او هناك... الى ان نتمكن اخيراً من اللقاء هنا وهنا وهنا.

اخوك سميح القاسم
(حيفا ـ ١٩٨٨/٦/١٢)

اشرح لهم.. اشرح لهم صبرك

● عزيزي سميح،

بين عاصفـة وعاصفة، قد نجد مقعداً للحنين او للوداع. طوبى لهذه السكنى القصيرة المسورة بالريح. ولكن، لماذا تخشى السخرية؟ اذا كان لا يروقك تعريفها بأنها «اليأس وقد تهذب»، فإن في مقدورك ان تسميها ما شئت، شرط ان تدرأ عنك البكاء.. وان تقترح وردة على الليل.

أمـك، ام قاسم، أمنا المشتركة، تنام اخيراً على متر من وطن. كيف اواسيك وانت على مقربة من ثراها! خـذ قصفة من حبق واذهب اليها، وقبِّل ثوبها الترابي بإسمي. كلّمتها منذ شهر ولم تقل لي انها ستغادر ذاك البيت القديم. كلمتها ولم تخبرني بأنها ستذهب بهذه السخرية العبثية الى النهاية.

لا اذكر منها غير جمالها الناطق وصلاتها الصامتة على ولدين منذورين لما يقلق الامهات. قالت انها قوية وستحيا من اجلك. والآن، لا استطيع ان اتخيلك بلا أم ايها الطفل الابدي. لقد اختارتك انت، لتكون يوسف قلبها. الانك جدير بكل حـب؟ ام لانك ذاهب في طريق الشقاء والحرية؟

كل الذين نحبهم ذهبوا... وسيذهبون.

لا تنس ان تنثر عليها ما وسعك ان تنثر من حبق. الم تكن هي سيدة الحبق، كلما فركنا يدها او ثوبها صرخ العطر بنا ونهانا عن انكسار لا يليق بأغنية صاعدة. ولكن لك، يا عزيزي، اما ثانية. لك امي التي كفّت، منذ سافرت، عن أدراك الفارق ما بيني وبينك. عرِّج عليها في طريقك من حيفا الى الرامة، لتعوض عنك غياب «ام قاسم». عرِّج على «ام احمد» لتعوض عنها رحيلي الطويل.

«آه من قلة الـزاد، وطول الطريق، وبعد السفر». كم تمنينا ان تكون معنا في صنعاء. لقد نشر الاخوة اليمنيون حسرتك: «هل سيكون عليَّ ان اموت مثل طائر في

قفص؟ صحيح انني احوم كثيراً في هذا العالم، الا انه يظل على رحابته قفصاً ضيقاً على جناحين يعتقدان ان سماءهما الحقيقية والاولى والاخيرة هي سماء الربع الخالي من بلاد العرب العامرة».

وجاءني اكثر من اب يمني مطالباً بتحقيق رغبتك بمداعبة شعر طفل يمني. وظلوا يسألون: لماذا لم يأت الى صنعاء؟

كيف اشرح للناس ما لا يشرح الا بالسخرية. كيف اشرح لهم ان قانون الجيتو الاسرائيلي سيحاكمك، لو جئت الى ارض العرب، بتهمة «الاتصال بالعدو»؟

على ألف مسرح ان ينهار امام صرخة لم تصرخ: كيف؟

إن عليك انت، يا عزيزي، ان تفجر هذا الحرمان الجهوري. لان اللامعقول الذي انت فيه صار معقولاً الى حد يحتاج الى شهادتك والى صرختك. انت، ايها العربي المجد لانك هناك حارساً لشجر الخروب ولون السماء. ايها العربي المقدس لانك في القدس جسداً للمعنى وحماماً يطير على جامع ومسجد وخوذة. انت ايها العربي الواضح لذاتك كتضاريس حجر. انت ايها العربي المدفوع الى هاوية الغموض المحيط بأجمل ما فينا من وضوح. اشرح.. اشرح صبرك، واشرح لاهل اليمن حق راعي البقر اليمني، اذا كان يهودياً، في دفعنا من الحقل الى ما وراء السياج. واشرح شرط قداستك في ان تكون هناك بأن يكون وطنك الصغير «وطن اليهود فقط» وبأن يكون وطنك الكبير «وطن الاعداء»!!

اشرح صبرك، او فاشرح ضيق صبرك.

فهل سيفهم احد ما تعاني، وما تكابد. أبهذا الناجي من العواصف بعاصفة، أبهذا الطاهر في وحل المفارقات.

لكن الابيض ابيض!

لم يحدث في تاريخ السطو البشري، يا عزيزي، ما يشبه هذا السطو، كأن يرافق الطرد من الوطن بمحاولة الطرد من الوعي والهوية. وكأن نعجز عن قول ما هو مقول في الواقع بطريقة لا تخرب توازن الكرة الارضية. فعندما يتحول الاحتلال الى «وطن وحيد» للمحتل تصير مطالباً بأن تعتذر عن كل سليقة، وبأن تبرز اناقة قتلك بخصوصية لا تؤذي سمعة الخنجر المغروس في لحمك، لا لشيء الا لان شخصاً آخر قد قتل والد قاتلك في مكان آخر. أنت.. أنت الثمن. ولا لشيء، الا لأن القاتل ليس خائفاً من القتيل مرة اخرى فقط، بل لانه خائف من ان يفقد هوية الضحية. أنت.. أنت الثمن.

لم يحدث في تاريخ الجريمة قط ما يشبه هذه الجريمة: كأن تمنع الضحية من

تسمية قاتلها، وكأن تمنع الضحية من مطالبة قاتلها بالتوقف، قليلاً، عن القتل من اجل حوار عابرا

الى الجحبم

الى الجحيم

فالقاضي هو القاضي.. هو القاتل المتقاعد..

والشــاهــد هو الشاهد.. هو قاتل والد القاتل المطالب بتكفير عن ذنبه القديم بالتواطؤ مع القاتل الجديد.

وهكذا نسأل: لماذا تعكرون صفو الاحتلال؟ لماذا تطالبون المحتل بالانصراف. الى اين ينصرف وقد صار الاحتلال هو الوطن الوحيد؟

ليس من حقك ان تقول: ليس هذا الشأن شأني. فإن عليك انت، الضحية، ان تضمن الحدود الآمنة والخارطة الغامضة الآمنة للآخرين في جسدك. وعليك انت ان تقف خارج جسدك. وعليك انت وحدك ان تجد حـلاً لمصير جلادك قبل التفكير في البحث عن حـل لمأساة وجودك.

إشرح، إشرح لهم صبرك.

وسيسـألـونـك: اذا دخل لص بيتاً، وفوجيء بقبعة صاحب البيت معلقة على المشجب، فمات من الخوف. فمن سوف يكون المتهم بالقتل: هل هي القبعة.. ام صاحب البيت الذي علق القبعة؟

سيكون اللص بريئاً كالمعتاد!!

ولكن اذا قتل جندي اسرائيلي طفلاً فلسطينياً، فمن هو القاتل؟ هل هو الجندي، ام الطفل الذي هيّج اعصاب الجندي بلعبة الحجر، فأرغمه على قتله. ثم عالج عذاب ضميره بالبكاء؟

ما دام القاتل يبكي فإنه بريء. وما دامت الضحية عاجزة عن البكاء فإنها متهمة بالتسبب في القتل، ويموت الضمير..

الى الجحيم

الى الجحيم

.. وآه من قلة الزاد، وطول الطريق، وبعد السفر.

وكم افتقدناك في صنعاء. فبعد مؤتمر القمة العربي «الطارىء» جداً الذي انعقد بعد ستة اشهر من اندلاع الانتفاضة، انعقد مؤتمر قمة المثقفين العرب لدعم الانتفاضة ليكتشفوا ان الانتفاضة هي التي دعمتهم في عملية عودة الروح اليهم...

كان المشهد جميلاً في وطن العرب الاول. وكانت النوافذ العربية، من صنعاء الى

مراكش، تطل على ساحة الحرية الاولى التي افتتحها الطفل الفلسطيني. وكنا نسأل: هل كنا في حاجة إلى حجر لنعرف كيف لم تثلم روحنا، ولنعرف اننا عرب الى هذا الحد؟ وكنا نتساءل: لقد اعطتنا الانتفاضة ذاتنا المفقودة، فماذا اعطيناها. وكنا نحتج: كيف نناصر انصار الانتفاضة ضد آلة القمع العربي الرسمي في الوطن العربي الخالي من الحجارة؟

سوف يبقى المثقف العربي حائراً. لقد وجد ذاته ولم يجد، بعد، أداته. وكنت اتابع الصدى: «بقدر ما نبحث عن وسائل الترابط والتجاوب بين الفعل البطولي الفلسطيني وبين الفعل الثقافي العربي، فاننا نلتصق اكثر بدورنا وذاتنا، ونصوغ مقدمات مستقبل آخر للعلاقة بين الثقافة والواقع.

وكنت اتابع الصدى: «ان فلسطين كانت دائماً اغنيتنا المنشودة وجنتنا المفقودة، تتقدم الآن منا وطناً ملموساً قابلاً للاستعادة، لها ولمعناها المتحرر والحر في وطننا الكبير، وللعلاقة الاحتفالية بين حرية الابداع وبين ابداع الحرية...

وكنت اتابع الصدى: «ليس للانتفاضة في لغتنا من وصف ادبي، فهذا الاختلاط الواقعي والطقوسي بين الوجع العظيم وبين الفرح العظيم في عملية الولادة الكبرى، ما زال يدفعنا الى كسر الغياب الذي هدد اللغة بالانكسار. كل شيء فينا يعيد ترميم اوله الصلب، ويحمل الالتزام الى منطقة كادت تبتعد: الى منطقة اكثر عفوية وسليقة، واكثر مرونة نظرية.

وكنت اتابع الصدى: «لقد خرجت فلسطين مما كادت ان تدخل فيه من مخيلة، خرجت فلسطين من الاستعارة، وخرجت من الاسطورة. قفزت من النص الى الواقع كنسر يقفز من لوحة منحوتة. لقد عاد الوطن من المنفى الى المكان. ان فلسطين، كما تتجلى في الانتفاضة، هي شعب يقاوم الاحتلال على ارض الوطن المحتل. هي شعب، لا مفهوم ولا نشيد. هي شعب يرفع بالاجساد الدامية مطالب وطنية ملموسة ومحددة، علينا ان نتبناها.

وكنت اتابع الصدى: «تقول لنا الانتفاضة، بأدواتها الانسانية المتفوقة التي تقاوم الوحش، وباصرارها على الاستمرار، تقول لنا كما تقول للعدو: ان الحل ممكن. ان الحل واقعي وممكن. ولا ينقصه من فرص التنفيذ الفوري غير ما ينقص الوضع العربي الرسمي من ضرورة انقلاب على المنهج، ومن تحرر من التبعية الكاملة للارادة الامريكية ـ الاب الشرعي شبه الوحيد لمشروع التوسع الصهيوني، مما يحرم الانتفاضة من قوى عربية قادرة على اختصار طريق العذاب. وإذا كنا نلاحظ ما أحدثته الانتفاضة من تأثير ايجابي على الوعي العام الانساني، وما احدثته من خلخلة

في الوعي الاسرائيلي المتخبط في مأزق تكوينه الاول، وفي عبثية الخلط الشقي بين الحدود والوجود، فاننا نلاحظ مظاهر العجز العربي الرسمي عن ممارسة فعل يدفع المأزق الاسرائيلي الى زاوية اضيق، ويفتح امام الانتفاضة آفاقاً اوسع. ان مقاومة ما يشبه الحصار الذي يضربه العجز العربي على الانتفاضة وعلينا هو احد مهامنا العاجلة».

كان ذلك هو الـصـدى.

اما الصوت، فانه قادم من هناك: من بلاغة الحجر، ومن بساطة الحجر...

اخوك محمود درويش

(باريس ـ ١٩٨٨/٦/٢١)

احذر... البرد والشرطة والتدخين

● اخـي محمود،

هو اضحى آخر. فكل عام وانت بخير. وكل يوم واضحياتنا بخير. يد على حجر. حجر على دم. دم على دم. كل يوم ونحن بأضحى. وبغير ذلك لن يكون هناك اي خير.

ما كان في نيتي ان استذكر برد لندن في هذا النهار القائظ. الا ان وسائل الاعلام النشطة لا تتيح لي مثل هذه المتعة، قد الحّت، تلحُّ، اصراراً، (مع الشكر لصديقنا عادل امام) على التذكير بها لا تروقنا ذكراه. وانني لانتفض غيظاً كلما استعدت شريط الاثارة البوليسية البريطاني.

ماذا تريد منـا السيدة الشمـطاء بريطانيا بقبعتهـا السخيفة وعروق ساقيها الزرقاء النافرة؟

لقد ضربنا صفحاً عن كل موبقات التاج الانكليزي في وطننا، وبشاعات تاريخه المتقرحة على جلودنا. نقلنا وجوهنا من سحنة «المندوب السامي» القذرة الى وجوه اصدقائنا الانكليز الشرفاء، فانيسا ريدغريف وكولن ولسون وارنولد ويسكر ورالف ستيدمان وجون هيث ستبز واضرابهم ممن شبوا على طوق «الامبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس» وانطلقوا في ارض الحضارة الانسانية بشراً سويين.

بذلنا جهدنا الممكن للابتعاد عن بريطانيا الاستعمارية التي طبختنا وفق قوانين الكـوشير اليهودية وقدمتنا وجبة كاملة على مائدة الحركة الصهيونية... ثم بذلنا جهدنا الممكن للاقتراب من كل ما هو انساني ومتحضر لدى الشعوب البريطانية... بيد ان مصداقية دستويفسكي تطرح نفسها من جديد، لتؤكد مرة اخرى ان المجرم يعود دائماً الى مكان جريمته. وتعود الضحية الطريدة لتكون الشبح الطارد..

أنـذا اعود الى مقر اقامتي في فندق تشلسي لاصطحاب قصائدي الى قاعة البلدية

حيث ينتظرنا جمهورنا الحار والطيب. أدنو من المصعد، وكما في الافلام الامريكية الرخيصة، يندفع نحوي ثلاثة رجال باللباس المدني، يشهرون في وجهي بطاقات ما ويعلنون: انت رهن الاعتقال!

ـ بأية تهمة؟

ـ ستعرف التفاصيل في مركز الشرطة.

ـ لكن جمهوراً كبيراً ينتظرني الآن ليسمع قصائدي ولا بد من إعلامه بما يجري.

ـ نحن نعلم منظمي المهرجان.

ـ في الخارج تنتظرني سيارة، يجب ان اخبر المضيفين بالامر.

ـ نحن نفعل ذلك. تفضل.

وفي الخارج، كانت سيارتان مدنيتان تنتظران قبالة مدخل الفندق. اما سيارة البي. ام. في التي تنتظرني فكانت بعيدة ولم اتمكن من الاتصال بها لان رجال الشرطة الثلاثة كانوا يدفعونني برفق لا يرحم الى داخل سيارتهم الاولى، حيث تجلس سيدة خلف المقود.

قلت: كيف لي ان اتأكد انكم حقاً من الشرطة وانني لست مخطوفاً من جهة ما؟

أبرز الضابط الجالس على الجهة اليسرى بطاقته مرة اخرى...

من السَّهل تزوير بطاقة في هذا الزمن المزور. قلت:

ـ ان كنتم تخطفونني من اجل المال فقد خاب رجاؤكم.. وان كان ذلك لاجل السياسة فلنتحدث في الامر.

عاد الضابط القصير المتقفع ليقول انه لن يكلمني حتى مركز الشرطة. (علمت فيما بعد انه مركز بادنغتون لمكافحة الارهاب.. والمخدرات).

ـ هل استطيع التدخين؟

ـ لا. ستدخن في مركز الشرطة.

ـ حسناً. لماذا نسافر في غابة؟ هل مراكز شرطتكم في الغابات؟

ـ ....

آنذاك، وفي قلب الغابة، غمرني شعور رهيب باللامبالاة... تملكني الهاجس بأنني مختطف لصالح جهة لا علاقة لها بالشرطة. واقول لك يا محمود، انني لا استطيع ادعاء البطولة. تذكرت زوجتي واطفالي دفعة واحدة... تزاحمت في مخيلتي وجوه كثيرة... اقارب، اصدقاء، ناس من الناس، ورأيت جثتي المثقوبة بالرصاص طافية على مياه التيمز الآسنة.

حين اندفعت السيارة الى مدخل احدى البنايات تيقنت انني امام مركز شرطة.

مراكز الشرطة متشابهة في كل العالم. ومن سخريات التاريخ لا القدر انني ابتسمت بهدوء: الحمد لله، انا، فعلاً، في يـد الشرطة!!

قرأوا عليَّ «حقـوقي»، وقالوا انهم يصادرون على هذه الحقوق الى حين وصول ضابط التحقيق المسؤول. ثم طلبوا افراغ جيوبي من محتوياتها: الاوراق. قلم الحبر. بعض النقود. مفكرة. علبة سجائر. قداحة ومسبحة.

قلت لنفسي: الشرطة هي الشرطة في كل مكان. وسألتهم:

ـ هل استطيع التدخين الآن؟

ـ تـفـضـل.

ـ هل لي بمنفضة؟

تبادلوا النظرات، وقال احدهم.

ـ انت اول شخص يطلب منفضة هنا. لا منافض لدينا. تستطيع ان تستعمل المصطبة.

عبأوا نموذجاً. ثم اخذوني الى الحجز الانفرادي في غرفة ضيقة مصفحة.

ليست زنزانة كتلك التي نألفها. انها اوسع قليلاً. نظيفة. وفي ركنها مرحاض من النـيروسـتـا. وهناك اريكة بغطاء بلاستيكي وطاقة ضوء في منتصف السقف. لم يكونوا بحاجة الى الأصفاد كما يبدو، لان بابين حديديين يصطفقان الواحد تلو الآخر بعنجهية واثقة من نفسها.

خلعت حذائي واسندت ظهري الى الجدار البارد في زاوية الغرفة. لم تكن لدي هنـاك أية افكـار خاصة، انتظرت. فقط انتظرت ثم ناديت الحارس وطلبت شيئاً للقراءة. قال: انتظر حتى يحضر الضابط المسؤول.

بعد دقائق جلجل البابان الحديديان واقتادوني الى غرفة اخرى. كان هناك رجل آخر باللباس المدني. قال: سيدي انت متهم بالارهاب. ونريد بصمات اصابعك ويديك وصورتين، امامية وجانبية.

لم يضع وقتاً وباشر العمل. قلت: نحن لسنا ارهابيين. نحن ضحايا الارهاب. هل تعرف «كوميديا الاخطاء» لشكسبير. انكم تؤلفون الآن تراجيديا الاخطاء. تبحثون عن الارهاب في الاتجاه المعاكس.

قال: هل انت قلق.

قلت: قلق على جمهوري فقط.

طلب توقيعي على لوحة البصمات.

قلت: انه عمل تشكيلي رائع. وبهذا التوقيع تستطيعون بيعه بسعر عال جداً.

هل استطيع الحصول على نسخة؟

دخل شرطي آخر:

ـ هالو

ـ هالو

ـ مستر درويش

ـ انا مستر القاسم

ـ اين مستر درويش

ـ مستر درويش في فرنسا

ـ لكنكما كنتما معاً في منزل ناجي العلي.

ـ قمنا بواجب العزاء لدى اسرة صديقنا الفنان الكبير ناجي العلي. ثم ذهب كل منا لشأنه.

ـ لكنك تقول ان مستر درويش في فرنسا.

ـ صحيح. هو في فرنسا

ـ كيف سافر؟ ومتى؟

ـ سافر عبر مطاركم مثلما حضر عبر مطاركم. لم يتسلل. وسافر في موعد اقلاع الطائرة.

خرج مسرعاً. ثم عاد بعد دقائق.

ـ لم تعد شوارع لندن آمنة.

ـ هل بسببي انا لم تعد شوارعكم آمنة. قلت لصديقك وها انا اكرر: نحن لسنا ارهابيين. نحن ضحايا الارهاب. شوارعنا نحن ايضاً ليست آمنة. وكما ترى فأنا شخصياً لست آمناً. نحن أكثر الناس حاجة الى الامن.

خرج، وعاد بعد قليل.

ـ مستر القاسم نحن آسفون، لقد حدث خطأ في التشخيص.

ـ خطأ في التشخيص؟ سكوتلاند يارد ترتكب خطأ في التشخيص؟ شكراً على اعتذاركم لكن ذلك لا يلغي مرارتي واستيائي مما حدث.

ـ نحن آسفون وانت حر منذ هذه اللحظة. تستعيد اشياءك ونتمنى لك اقامة طيبة في لندن.

مرة اخرى يا محمود، لا استطيع ادعاء البطولة، فقد راودني الشك بأن اخلاء سبيلي يعني ان جماعة ما تنتظرني في الخارج للتصرف بي بشكل آخر.

قلت: اعتقد انه من المفروض ان تعيدوني الى حيث اعتقلتموني.

قـال: انت على حـق. سآخذك بسيارتي.
قلت: اذا كان الامر كذلك فأرجو ان تأخذوني الى قاعة البلدية. لعل الجمهور ما زال منتظراً هناك.

وهكذا، كان. وواصلت «الارهاب» في القاعة. وكان التعاطف والانسجام بيني وبين الجمهور رائعاً الى درجة البكاء. ولا اعرف كيف اسدد ديوني لهذا الجمهور الطيب الصادق الذي لـف قلبي بالعلم ولـف عيني بالأمـل وشحن روحي وجسدي بشهوة الفداء المقدسة.

ويا اخي محمود درويش،

لسنـا غصناً مقطوعاً من شجرة هذه الامة. نحن حراس احلامها وسدنة نارها الطاهرة. كان الله في عوننا. كان الله في عوننا.

وكيف انت في هذه الايام؟ لا تقلق كثيراً، لكن يستحسن ان تحافظ قليلاً على صحتك... لا بأس في شيء من الحذر، في مواجهة البرد والشرطة والتدخين!

اخوك سميح القاسم
(حيفا ـ ١٩٨٨/٧/٢٦)

المحتويات

—— إصدارات ——

دار توبقال للنشر

توزع في

البلاد العــربيــة

—— وأروبــا ——

دار توبقال للنشر
[illegible] 2 ([illegible])، زنقة 15، رقم 24،
الدار البيضاء 05 (المغرب)

يحضر الشعر في هذه الرسائل بالصفاء الفائق. الشعر والحياة متلازمان. من بداية الرسائل إلى بدايتها تظل الكتابة منعقدة في اليومي والعادي ليصيرا معاً هذا الأفق الذي به يحيا الشاعر، سَكَنه في النشيد الذي به يسمي ما يراه وما لا يراه. في الانكشاف والانحجاب يقيم بلا كلل.

والشعر في رسائل محمود درويش وسميح القاسم ينحفر في العذاب الفلسطيني. كل واحد منهما يجتاز عتبة المتعاقَد عليه بين الكاتب والقارىء لينفذ إلى السريرة وهي تخترق الحواجز فالحواجز. السّخرية أو الحنين أو الجنون. بها كلّها تعيد الذات ترتيب العالم. متورطة في هواها.

إن الرسائل، وهي تختار الحوار مع النفس، تؤالف بين السيرة الذاتية والشهادة على ما كان ويكون، في فلسطين وحولها. صراع أكيد من أجل هذا الوطن الذي يعرف الفلسطيني جيّداً حدوده. والحوار مع النفس استقصاء لذات الآخر. عندها يصير الشعر عبوراً إلى حرية تعتقلها الخطابات أو أحذية الجنود التي تفرض حدود الاغتصاب والقهر. أين تنتهي ذات محمود درويش؟ وأين تبدأ ذات سميح القاسم؟ ما يبدو من الأجوبة بسيطاً يتحول شيئاً فشيئاً إلى مُركّب. لا وجود إلاّ للمركّب. والشهادة على الزمن وأهله بالتوتر العالي تنكتب. شهادة تستبد بها الذاكرة لأنها المكان المفتوح على حلم الفلسطيني الذي لا ينسى أن له أرضاً وحلمًا، ككل الناس في هذا العالم. وحيداً يتذكر ووحيداً يحلم. لأنه على هذه الأرض يريد أن يحيا، ولها يبتغي الاسترسال في النشيد.

***

من يقرأ هذه الرسائل لن ينسى. إنها إمضاء جرح يتعاضد فيه الفردي مع الجماعي، والشعر مع الحياة. سفر في الوحدة والشوق والجنون
والخارج. من الليل تأتي ومن الصباح تأتي. بين حيفا وباريس. بين
وللجمرة حجرُهَا. ذلك ما تبدأ به الرسائل لتبدأ.